



# لغة المعرفة المفردات

رواية

غاستون ليرو

ترجمها عن الفرنسية  
د. باسم صابر ميخائيل

رواية **لغز**  
**الخرفقة**  
**المفراء**

غاستون ليرو

ترجمها عن الفرنسية  
د. باسم صابر ميخائيل



عنوان الكتاب:

لغز الغرفة الصفراء

اسم المؤلف:

غاستون ليرو

اسم المترجم:

د. باسم صابر ميخائيل

التصنيف العمري:

13+

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9948-717-16-4

رقم إذن الطباعة:

MC-02-01-1570309

## الفصل الأول

### إرهاصات لغز مكتنف بالإثارة

إنه لأمر مثير أن أسرد لكم أخيراً تفاصيل مغامرات "جوزيف روليتاني" المثيرة، فهذا الرجل وحتى يومنا هذا أبدى اعتراضات لا حصر لها بشأن هذه الخطوة المتسمة بالجرأة، فانتهى بي الأمر كثيراً إلى السقوط في هوة اليأس السحيقة، والعدول عن فكرة نشر الرواية البوليسية الأكثر إثارة للفضول على مدار الخمسة عشر عاماً المنصرمة.

يدور في خلدي أن الجمهور لم يدرك حتى الآن الحقائق الكاملة المتعلقة بالقضية المثيرة للدهول والمعروفة باسم "الغرفة الصفراء"، والتي تناولتها العديد من الأعمال الدرامية الرائعة والمشوبة بالغموض، حيث برز فيها دور صديقي بشكل واضح، ومن الجدير بالذكر أن السيد "ستانجرسون" ذائع الصيت، حينما حصل مؤخراً على وسام جوقة الشرف، فإن إحدى الصحف المسائية - في مقال ينم عن جهل واضح وغدر مقيت - لم تسع لإحياء ذكرى مغامرة مثيرة للدهول، وفقاً لما أخبرني به "روليتاني" آسفاً، قد أضحت في طي النسيان.

"الغرفة الصفراء"، من منا لا يتذكر هذه القضية التي أثارت الكثير من الحيرة منذ حوالي خمسة عشر عاماً؟ والتي خمد بريقها بسرعة غير متوقعة في باريس.

هل أنستنا الأيام محاكمة "نافيز" وتفاصيل الوفاة المأساوية للطفل الصغير "مينالدو"؟ وبالرغم من ذلك، انصب جل اهتمام الرأي العام، في تلك الفترة، على المجادلات المحتدمة، حتى أن الأزمة الوزارية التي اندلعت في تلك الأثناء، مرت مرور الكرام. ولكن يمكن الجزم بأن قضية "الغرفة الصفراء"، والتي سبقت قضية "نافيز" ببضع سنوات، ترددت أصدائها في شتى أرجاء المعمورة. انكب العالم بأسره لأشهر عديدة على متابعة هذه القضية المغلفة بالتشويق، والتي تعدّ على حد علمي، أكثر القضايا غموضاً، حيث حيرت أذهان رجال شرطتنا نافذي البصيرة، وأقضت ضمائر قضاتنا، سعى المجتمع جاهداً لفك طلاسم القضية الباعثة على الجنون، والتي شكلت لغزاً مأساوياً محيراً تقاطلت كل من أوروبا القارة العجوز وأمريكا القارة الشابة من أجل إيجاد حل له.

في الواقع، وأود أن أغتنم هذه الفرصة لأشير إلى أن المؤلف ينبغي أن يتواري تماماً عن أنظار القارئ، ويسرد بحياضية وموضوعية وقائع تستند إلى وثائق فريدة من نوعها تسمح له بإلقاء ضوء جديد على القضايا المثارة، لا أدري إذا كان الكاتب يملك الحق، سواء في عالم الواقع أو الخيال، مثلما رأينا في رواية "إدغار آلان بو" العبقريّة (جريمتا شارع مورج)، ومؤلفات "آرثر كونان دويل" المتنوعة، في إضفاء لمسة من الغموض والتشويق للنص كما سنرى بالطبع في رواية "لغز الغرفة الصفراء" المستوحاة من أحداث حقيقية.

ما عجز الجميع عن ملاحقة ألغازه وفك طلاسمه، نجح الشاب "جوزيف روليتاني"، والبالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، في سبر أغواره، حيث كان يعمل وقتئذ مراسلاً صحفياً مبتدئاً في إحدى الصحف الكبرى! فعندما سلّم مفاتيح القضية برّقتها إلى محكمة الجنايات، لم يبح سوى بجزء من الحقيقة، واكتفى بإزاحة الستار عن بعض الوقائع المتعذر تفسيرها، والتي تفسح المجال فقط لإطلاق سراح متهم بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب. تلاشت اليوم وتبدّدت دوافع إصرار صديقي على التنبّث بالصمت، وارتأى ضرورة البوح بالسر الخطير الذي يخفيه بين الضلوع. وهكذا، باتت الحقيقة معروفة للجميع، وبدون مقدمات طويلة وشروح مستفيضة، سأضع نصب أعينكم قضية "الغرفة الصفراء"، التي وُضعت آنفاً نصب أعين العالم بأسره، وتشابكت خيوطها عقب وقوع مأساة قصر "جلاندييه".

في يوم الخامس والعشرين من أكتوبر 1892، برزت هذه الملحوظة الصغيرة في الطبعة المسائية لجريدة "الحدث": "وقعت للتو جريمة قتل مروعة في قصر "جلاندييه" المملوك للبروفيسور "ستانجرسون"، والواقع على أطراف غابة "القديسة جينيفيف" في بلدة "إيناي سير أوج". في تلك الليلة، وبينما كان البروفيسور منكباً على العمل في مختبره، وقعت جريمة قتل الأنسة ستانجرسون، التي كانت تمكث وقتئذ في إحدى الغرف المجاورة للمختبر، وكادت أيدي الأطباء أن تعجز عن إنقاذها، فقد كانت على شفا حفرة من الموت. أية صدمة عارمة تلك التي ضربت سكان باريس! فقبل وقوع هذه الجريمة الشنعاء، ظلّ المجتمع العلمي يتابع بشغف التجارب التي يجريها البروفيسور ستانجرسون وابنته، والتي تعد الأولى من نوعها في مجال التصوير

الإشعاعي، ومهدت الطريق أمام كل من السيد "كوري" وزوجته لاكتشاف عنصر الراديوم. كان المجتمع العلمي في تلك الأثناء يتحرّق شوقاً لمتابعة التقارير المثيرة التي من المقرر أن يقرأها البروفيسور ستانجرسون على مسامع أعضاء أكاديمية العلوم بشأن نظريته الجديدة، والتي تنطوي على تفكيك المادة وتحللها، تلك النظرية التي تضمّر تحت لوائها العلوم الطبيعية القائمة على هذا المبدأ: المادة لا تنفخ ولا تستحدث، بل تتغير من شكل لآخر.

في اليوم التالي، عيّنت صفحات الجرائد بأخبار تناولت الحادث المأساوي، وقد نشرت جريدة الصباح من بين العديد من الصحف الأخرى المقال التالي والذي حمل هذا العنوان اللافت: "جريمة تفوق تصورات العقل البشري".

روى محرر جريدة الصباح مجهول الهوية هذه التفاصيل المثيرة: "إليك بعض التفاصيل التي تنامت إلى علمنا بشأن جريمة قصر "جلاندييه"، ونظراً لسقوط السيد ستانجرسون ضحية بين القنوط واليأس، وعدم القدرة على انتزاع أية معلومة من فم الضحية، تفاقمت المشكلة وارتطمت تحرياتنا وتحريات العدالة بعقبات منيعة، حتى أنه بات من المستحيل حتى هذه اللحظة أن نستشف الملامح والخطوط العريضة لما وقع في الغرفة الصفراء، حيث عُثر على الأنسة ستانجرسون، في ثوب منزلي، ملقاة على الأرض وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، وعبر لقاء أجريناه مع الأب جاك، -وهو شخص معروف لكل سكان البلدة- الخادم العجوز لعائلة ستانجرسون، تبين أنّ الأب جاك ولج باب الغرفة المشؤومة في نفس اللحظة التي وطئت فيها قدم البروفيسور نفس المكان، وأن الغرفة تقع بجوار المختبر، وهاتين الغرفتين توجدان في جناح صغير ينتصب في نهاية الحديقة، ويقع على بعد ثلاثمائة متر من القصر.

قصّ الرجل العجوز على مسامعنا هذه العبارات المثيرة: "بعد منتصف الليل بنصف ساعة، وأثناء وقوع الجريمة، كنت برفقة السيد ستانجرسون في المختبر الذي يجري فيه تجاربه. استغرقت طوال المساء في ترتيب وتنظيف الأدوات منتظراً أن يغادر السيد ستانجرسون المختبر لكي أخلد إلى الفراش، ظلت الأنسة "ماتيلد" تعمل برفقة والدها حتى منتصف الليل، وعندما انبعث صوت دقات الساعة الثانية عشر من الساعة الجدارية المعلقة في أحد جدران المختبر، نهضت عن مقعدها، وطبعت قبلة على وجنة والدها، ثم انصرفت بعد أن تمت له ليلة هائلة. قالت لي بنبرة ملؤها الود واللفظ: "طابت ليلتك أيها الأب جاك"، تناهى إلى مسامعنا صوت صرير باب الغرفة الصفراء يفتح، ثم إغلاقه بإحكام بواسطة المفتاح والمزلاج، حتى أنني لم أفرّ على كبح جماح ضحكة مكبوتة، وقلت لسيدي:

- يرتجف قلب الأنسة فرعاً كلما أبصرت الدعاسيق، ولذلك فهي توصلد باب غرفتها بإحكام.

يبدو أن السيد ستانجرسون لم ينتبه لما تفوّهت به، فقد كان مستغرقاً في العمل. في تلك الأثناء، انبعث من الخارج أزيز بغيض، وأدركت على الفور أنه صوت إحدى حشرات الدعاسيق. أصابني القشعريرة، وفكرت قائلاً: "هل ستحول هذه الحشرة مرة أخرى دون قمتي بنوم هادئ؟"، فإني حتى نهاية شهر أكتوبر مكنت في مخزن غلال الجناح الصغير، والذي يقع مباشرة فوق "الغرفة الصفراء" لكيلا تبيت الأنسة بمفردها طوال الليل في مكان منزوٍ يقع في نهاية الحديقة. عكفت الأنسة على قضاء نهاية فصلي الربيع والصيف في هذا الجناح، وقد راققتها الفكرة كثيراً، وعلى مدار السنوات الأربع الماضية منذ أن شُيد هذا المبنى، لم تبرح المكان طوال فصل الربيع، ولكن عندما يحل الشتاء، تلوذ بغرفتها في القصر لعدم وجود مدفأة في "الغرفة الصفراء".

مرت الدقائق واحدة تلو الأخرى، وبقيت برفقة السيد ستانجرسون في الجناح دون أن تصدر عنا أية جلبة، فقد ظل سيدي جالساً أمام مكتبه، أما أنا فجلست في أحد المقاعد بعد أن أنهيت عملي، ورحت أتطلع إليه مخاطباً نفسي: "يا له من شخص عبقرى متفرد الذكاء ذي علم واسع غزير!". أود أن أكرر على مسامعك أننا لم نحدث أية ضوضاء، ولذلك تملك القاتل يقين بأننا قد غادرنا المختبر. فجأة، وعندما دقت الساعة الثانية عشر والنصف، انطلقت صرخات يائسة من "الغرفة الصفراء"، فقد كانت الأنسة تصيح بأعلى صوتها قائلة: "أمسكوا بالقاتل! أمسكوا بالقاتل! النجدة!", وعلى الفور، دوى صوت طلقات نارية، وضجيج طاولات تزاح من مكائها، وأثاث ينقلب رأساً على عقب، وكأن شجاراً عنيفاً محتتماً يندلع رويداً رويداً ولا تزال صرخات الأنسة تدوي في الأرجاء: "النجدة! أمسكوا بالقاتل... أبي! أبي!".

ركضت مهولاً بصحبة السيد ستانجرسون نحو باب غرفتها، ولكن لسوء الحظ وجدناه موصداً بإحكام من الداخل بواسطة

الآنسة. بذلنا ما في وسعنا لنفتح الباب عنوة، ولكن باءت محاولتنا بفشل ذريع.. جئ جنون السيد ستانجرسون، وأصيب بالذعر، فقد انقلبت توهامتنا إلى أبراج من الحقائق، ولا سيما فور أن انطلقت تأوهات الآنسة مصحوبة بتحشج: "النجدة! النجدة!". انحال السيد ستانجرسون على الباب بضربات قوية متتالية، وراح ييكى حنقاً غارقاً في لجة من اليأس والعجز. راودتني فكرة، وقلت لنفسي أنّ القاتل سيلوذ حتماً بالفرار عبر النافذة، فصحت قائلاً: "سيدي سأتوجّه بسرعة إلى النافذة"، فاندفعت مهرولاً للخارج كمن أصابه الرعب بمس من الجنون.

ولكن لسوء الحظ تطل نافذة الغرفة الصفراء على الحقول الشاسعة، وأدركت أن سور الحديقة المتاخم للجناح يشكل حائلاً ضخماً يعوقني دون الوصول بأقصى سرعة ممكنة إلى النافذة للإمسك بالقاتل. ولكي أحقق غايتي المنشودة، توجب عليّ أولاً أن أغادر الحديقة.. ركضت مسرعاً باتجاه البوابة، وحينما مضيت في طريقي، التقيت بالسيد "بيرنيه" وزوجته؛ المكلفين بحراسة القصر، واللذين جاءا مهرولين إثر سماع دوي الطلقات النارية والصيحات المذعورة. أطلعتهما بعبارتين موجزتين على الوضع المتأزم، والتمست من الحارس أن ينطلق مسرعاً ليهدئ من روع السيد ستانجرسون، كما أمرت زوجته أن تأتي برفقتي لتفتح بوابة الحديقة. بعد مرور خمس دقائق، وجدت نفسي بصحبة حارسة القصر واقفاً أمام نافذة "الغرفة الصفراء". كان القمر منيراً في تلك الليلة، وأدركت أن النافذة لم تمسها يد بشر. لم تكن قضبانها الحديدية هي الموصدة بإحكام فحسب، بل أيضاً مصراعها المتحجران في الخلف، فهما لم يُفتحاً منذ أن أغلقتهما بنفسي ليلة البارحة، فبالرغم من أن الآنسة شعرت بأن التعب والإرهاق قد أضنياني، وأعباء المنزل أثقلتني، وأخبرتني ألا أعبأ بأمر إغلاقهما، وأنها سوف تنجز المهمة بنفسها، إلا أنني لم أنصع لأمرها، وهكذا ظل مصراعاً النافذة مغلقين من الداخل بواسطة مزلاج حديدي. من البديهي أن القاتل مهما بلغت مهارته، ليس بمقدوره أن يتسلل إلى الداخل، أو يفر هارباً عبر قضبان حديدية سميكة تتسم بالصلابة، ونافذة محكمة الغلق، لم يكن بيدي أية حيلة فتسمرت في مكاني عاجزاً.

غدر بنا القدر، وكادت تجن عقولنا، ها نحن الآن أمام باب غرفة موصدة بإحكام من الداخل، ومصراعي نافذة مغلقين بواسطة مزلاج حديدي، والأدهى من كل ذلك هو أن القضبان الحديدية بقيت على حالها ولم تمسها يد بشر، تلك القضبان السميكة التي يتعذر على المرء أن يمر ذراعه عبرها، وها هي الآنسة تلتمس النجدة مذعورة، أو بالأحرى، خبا ضجيج صيحاتها المريعة المذعورة، ربما وافتها المنية، ولكن لا يزال يتنامى إلى مسامعي صوت منبعث من داخل الجناح لشخص يسعى جاهداً لفتح باب الغرفة الصفراء عنوة من الخارج. عُدت أدراجي مهرولاً برفقة زوجة الحارس، حيث كان باب الغرفة لا يزال مُغلقاً، بالرغم من أن السيد ستانجرسون وبيرنيه انحالا عليه بضربات عنيفة متلاحقة.. في نهاية المطاف، فُتح الباب مستسلماً لسطوة جهودنا الثائرة المفعمة بالغضب، ثم ما الذي وقعت عليه أعيننا؟ من الجدير بالذكر أن زوجة الحارس تسمرت خلف ظهورنا من هول المشهد ممسكة بمصباح المختبر؛ وهو مصباح قوي أضاء الغرفة بأكملها.

أود أن أشير يا سيدي إلى أن "الغرفة الصفراء" صغيرة للغاية، أثنتها الآنسة بفرش حديدي، وطاولة صغيرة، ومكتب، ومرحاض، ومقعدين، وفور أن عُمرت الغرفة بأضواء المصباح المبهرة، برزت أمام أعيننا الحقيقة المروعة برمّتها، فقد أبصرنا الآنسة مطروحة أرضاً بملابس نومها وسط فوضى عارمة. قُلبت الطاولات والمقاعد رأساً على عقب، مما يدل على نشوب شجار عنيف، لا شك أن القاتل انتزعها عنوة من فراشها، فقد كانت غارقة في الدماء وظهرت بوضوح آثار خدوش الأظافر الوحشية على رقبتها شبه الممزقة، وثقب غائر على صدغها الأيمن تسيل منه الدماء بغزارة لتشكّل بركة صغيرة على الأرض.. وحينما وقع ناظرا السيد ستانجرسون على جثمان ابنته الوحيدة ورآها في حالة يرثى لها، اندفع بقوة نحوها، وراح يطلق صيحات يائسة تمزق القلوب، أدرك على الفور أن الفتاة التعيسة ما تزال تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يعر انتباهاً لأي شيء سواها. أما نحن، فشرعنا في تفحص الغرف، وتفتيش كل شبر في الجناح لنقتفي أثر القاتل الأثيم الذي جاء لكي ينهي حياة سيدتنا المقربة إلى قلوبنا، وأقسم لك يا سيدي أنه لو كان قد وقع في قبضتنا لأبرحناه ضرباً ومزّقناه إرباً إرباً، ولكن، أليس مثيراً للدهول أن يتوارى هذا الوغد فجأة عن الأنظار ويفر هارباً دون أن يخلف وراءه أي أثر؟ يا له من أمر يفوق الخيال.. لا أحد أسفل الفراش أو متوارٍ خلف الأثاث، لا أحد! عُثر أخيراً على آثار دماء وبصمات أصابع تلوّث الجدران والباب، ومنديل كبير ملطخ بالدماء لم يُدوّن عليه الحرفان الأوليان لاسم الجرم، وقبعة عصرية مستديرة وبالية،

وعلى أرضية الغرفة، وجدت آثار قدمين ضخمتين لشخص يبدو أن نعليه خلفا وراءهما آثار سخام. من أين جاء الرجل المجهول؟ وأين يختبئ الآن؟ من الجدير بالذكر يا سيدي أن الغرفة الصفراء لا تحتوي على مدفأة، لم يكن باستطاعته الفرار عبر الباب الموصد بإحكام، ومن الواضح أيضاً أنه لم يتسلل إلى الخارج عندما ولجت زوجة الحارس باب الغرفة حاملة المصباح، بينما رحت أنفحص يامعان بصحبة الحارس غرفة مربعة ضيقة يتعذر عليه الاختباء بين جدرانها، لقد فُتح الباب عنوة، وظل مفتوحاً على مصراعيه ملامساً الجدار، وبالتالي، لم يكن بمقدور أي شخص أن يختبئ وراءه، وقد تيقنا من صحة هذا الافتراض. اقشعر بدني، وارتجفت هلعاً، هل نُفذت الجريمة بواسطة أحد الأشباح؟!

ولكن عُثر على مسدسي الشخصي ملقى على الأرض.. نعم، مسدسي، أعادني الاكتشاف المذهل المثير للحيرة إلى عالمي الواقعي! من البديهي أنّ أيّ شبح خارق لن يكون بحاجة لسرقة مسدس من أجل ارتكاب جريمة قتل، من الواضح أن الجاني صعد أولاً إلى غرفتي، ثم سلب مسدسي من درج الطاولة ليستغله في تحقيق مآربه الشيطانية، وفور أن تفحصنا حشو السلاح المستخدم في الجريمة، تبين أن القاتل أطلق منه رصاصتين، لقد حالفني الحظ يا سيدي، وشاء القدر أن أتجاوز محنتي العصبية، وأن أنجو بأعجوبة من حبل المشنقة، فعندما وقعت الجريمة كُنت برفقة سيدي في المختبر، ورأني بأم عينه جالساً على مقربة منه، لقد نجاني الله من خطر محقق وموت محتوم، لأنّ القاتل أراد أن يزجّ بي خلف القضبان، ويلصق بي هذه التهمة الشنعاء.

أسدل محر جريدة الصباح الستار على اللقاء الذي جمعه بالأب جاك مدوناً السطور التالية:

"لقد باح لنا الأب جاك، دون أدنى مقاطعة من جانبنا، بكل ما يعرفه بشأن جريمة "الغرفة الصفراء"، لم نزد حرفاً على ما تفوّ به، وآثرنا نقل نفس العبارات التي انطلقت من بين شفتيه، كما نرجو من القارئ الكريم أن يلتمس لنا العذر لورود عبارات تتم عن النحيب المتواصل تخلّلت سرده الدقيق للأحداث، لقد ظهرت حسن نواياك أيها الأب جاك! لا شك أنّك تدين بالحب والولاء لسيديك وسيدتك المسكينة! ضع في اعتبارك هذه الأمور، ولا تكف عن ترديدنا على مسامع الجميع، ولا سيّما ذكر تفاصيل عثورك على مسدسك الشخصي.

حق الرد مكفول للجميع، ولا نرى في ذلك ضيراً! كانت تحدونا الرغبة في طرح المزيد من الأسئلة على الأب جاك - جاك لويس موستييه - ولكن وردنا للتوّ خبر مفاده أنه مستدعى من قبل القاضي الذي يتابع تحقيقاته في القاعة الكبرى للقصر، تعذّر علينا التسلل إلى داخل قصر "جلاندييه"، كما هي الحال أيضاً بالنسبة إلى غابة البلوط، التي تخضع لرقابة مشددة ومكثفة من قبل رجال الشرطة المكلفين بمنع اقتراب أي شخص من الآثار التي تخلّفت في مسرح الجريمة، والتي ربما ستقودهم إلى كشف القناع عن هوية القاتل.

كنا نود أيضاً أن نستجوب حارس القصر وزوجته، بيد أنهما لسوء الحظ تواريا عن الأنظار.. أخيراً وبعد عناء شديد حالفنا الحظ، وأقمنا في فندق صغير، يقع على مقربة من بوابة القصر، ثم انتظرنا بترقب ونفاد صبر مغادرة السيد "دو ماركيه" قاضي تحقيق بلدة "كوربي"، وبحلول الساعة الخامسة والنصف، رأيناه يغادر القصر أخيراً برفقة كاتب المحكمة، وقبل أن يصعد إلى عربته، تمكنا من أن نطرح عليه السؤال التالي:

- سيد "دو ماركيه"، هل بقدرتك أن تزودنا ببعض المعلومات الجوهرية حول هذه القضية دون أن يؤثر هذا الأمر سلباً على سير التحقيقات؟

- من المستحيل أن نُجزم بأي شيء، فضلاً عن أن القضية تُعتبر أكثر القضايا التي عرفتها غموضاً وتعقيداً وغرابة، فكلما دار في مخيلتنا أننا نُحرز تقدماً ملحوظاً نرى أنفسنا متقهقرين بضع خطوات للوراء.

التمسنا من السيد "دو ماركيه" أن يقدم لنا تفسيراً واضحاً بشأن هذه الكلمات الأخيرة التي تفوه بها، وإليك تصريحاته التي علق عليها القاضي والداني آمالاً كبيرة:

- لو لم تُضف تفاصيل أخرى إلى النتائج الملموسة التي أحرزتها النيابة العامة اليوم، فأخشى ألا تنقش الغيوم التي لا تزال تحجب ملامح الاعتداء الغاشم الذي كاد أن يودي بحياة الأنسة "ستانجرسون"، ولكن يحدوني الأمل في أن تزودنا الفحوصات الدقيقة لجدران وسقف وأرضية "الغرفة الصفراء"، والتي سأجرىها اعتباراً من الغد بصحبة المقاتل الذي شيد

الجناح قبل أربعة أعوام، بدلائل وبراهين ربما تفك قليلاً طلاسـم اللغز المحير، فالمشكلة تكمن حقاً في هذا السؤال: نعلم من أين جاء القاتل، تسلل عبر الباب، وظل قابعاً أسفل الفراش منتظراً وصول الأنسة ستانجرسون، ولكن كيف تمكن من الخروج والفرار هارباً؟ لم نعثر على باب سري، أو فتحة متوارية عن الأنظار، وباءت جهودنا بالفشل عقب تفحص الجدران، وبلغ الأمر درجة من التعقيد تتطلب هدم الجناح، لأنني تبادلـت الآراء مع السيد ستانجرسون واهتدينا أخيراً إلى فكرة المضي قدماً في إزالة الجدران، واتضح جلياً عدم وجود نفق سري يسمح بمرور إنسان، أو أي كائن حي آخر، وعدم وجود فتحات في السقف، أو ممر تحت أرضي، فسوف تزداد قناعتنا بفكرة الأب جاك الذي زعم بأن هناك شبحاً خارقاً تمكن من تنفيذ الجريمة".

ألمح المحرر مجهول الهوية، عبر أسطر هذا المقال، الذي وقع اختياري عليه لكونه الأكثر منطقية وإثارة للتشويق والاهتمام، من بين جميع المقالات الأخرى التي نشرت في ذلك اليوم، وألقت الضوء على القضية، إلى أن قاضي التحقيق بدا وكأنه يخفي سرّاً بين جنباته، ويعتزم القيام بأمر ما لم يفصح عنه، وهذا ما استنتجته بالفعل من عبارته الأخيرة: تزداد قناعتنا بفكرة الأب جاك الذي زعم بأن هناك شبحاً خارقاً تمكن من تنفيذ هذه الجريمة. أختتم المقال بالأسطر التالية:

"أردنا أن نعرف ما عناه الأب جاك بعبارـة "صرخة الدعسوقة"، وقد أوضح لنا مالك فندق "دونجون" أن هذه العبارة تُعني أيضاً "النحيب المشئوم"، وهي صيحات تطلقها في بعض الأحيان، أثناء الليل، قطّة امرأة عجوز تُدعى الأم "أجينو" تُعتبر بالنسبة لسكان البلدة، كإحدى القديسات، وتعيش في كوخ صغير يقع في قلب الغابة لا يبعد كثيراً عن "مغارة القديسة جينييف".

"الغرفة الصفراء"، "وحشرات الدعاسيق"، والأم "أجينو"، و"القديسة جينييف"، والأب "جاك"، تلك هي الفروع المتشابكة لجريمة يلفّها الغموض، ربما ستفكّ طلاسـمها فور أن تنهال ضربات الفؤوس غداً على الجدران، ولكن دعونا نتشبّث ببصيص من الأمل كما أخبرنا قاضي التحقيق".

أعلنت نفس الجريدة، في ساعة متأخرة من الليل، أن مدير الأمن أرسل برقية إلى المحقق الشهير "فريدريك لارسان"، الذي يقوم بإنجاز مهمة في لندن تنطوي على متابعة قضية الوثائق الشهيرة المسروقة، وأمره بأن يعود أدراجه بأقصى سرعة ممكنة.

## الفصل الثاني

### جوزيف روليتاني يظهر لأول مرة

لا تزال ذكرى ولوج جوزيف روليتاني لغرفتي في صباح أحد الأيام عالقة بذهني، وكأن هذا الأمر قد حدث بالأمس. في تلك الأثناء، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، كنت آنذاك في فراشي مستغرقاً في قراءة المقال المنشور في جريدة الصباح والذي ألقى الضوء على جريمة قصر "جلاندييه".

قبل الخوض في أية تفاصيل أخرى، آن الأوان لأقدم لكم صديقي، ربطتني بجوزيف روليتاني علاقة وثيقة منذ أن كان مراسلاً صحفياً مبتدئاً. في تلك الأثناء امتهنت المحاماة، وكثيراً ما أتيحت لي الفرصة للالتقاء به في أروقة قضاة التحقيق، وكلما كنت أسعى للحصول على "تصريح زيارة" لأحد السجناء، كانت ضرباته الموفقة كما أشيع تُصيب الهدف المنشود. كان رأسه المستدير يبدو مثل الكرة، ولذلك جال في خاطري أن زملاءه في المهنة أطلقوا عليه هذا اللقب الذي ظل عالماً بأذهان الجميع، والذي يُعني "مستدير الرأس" "هل رأيت مستدير الرأس اليوم؟ حسناً، ها هو الوغد مستدير الرأس!"، تعزّي ملامح وجهه حمرة غير مبرّرة في بعض الأحيان، يتراقص قلبه طرباً ويشدو بأعذب الألحان مثل طائر البرقش، وفي أحيان أخرى ترتسم على وجهه ملامح الجدية والصرامة كأحد رجال الدين، حينما التقيته للمرة الأولى، كان في عنفوان وريغان شبابه، يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ونصف، تبادر إلى ذهني هذا السؤال: "هل يكسب قوت عيشه بالفعل من العمل في مجال الصحافة؟"، سؤال سيطرأ بالطبع على ذهن أي شخص يلتقي به للمرة الأولى، دون أن يكون على علم بتفاصيل بداية انطلاقته المهنية، عندما عُثر على أشلاء جثة إحدى السيدات ملقاة في شارع "أويركامب"، القضية التي أثارت وقتئذ الرأي العام، بيد أنها صارت الآن في طي النسيان، نجح هذا الشاب بارع الذكاء في العثور على القدم اليسرى المنتزعة من الجثمان الممزق إلى أشلاء، والملقى في أحد صناديق القمامة، ثم أحضرها إلى محرر جريدة "العصر"، تلك الجريمة التي كانت تحوّل آنذاك منافسة ضارية مع جريدة الصباح، من أجل إطلاع الرأي العام على آخر المستجدات حول هذه القضية المفزعة، مُنيت جهود البحث الدؤوب من قبل رجال الشرطة لمدة ثمانية أيام عن القدم المفقودة بالفشل، بيد أن الشاب نافذ البصيرة عثر عليها في إحدى بالوعات الصرف الصحي، حيث لم يجل في خاطر أي شخص أن يجدها هناك. ولكي يبلغ روليتاني ضالته المنشودة، كان لزاماً عليه أن يتطوع ضمن فريق من عمال الصرف الصحي أُستدعي من قبل إدارة باريس لمعالجة الأضرار الناجمة عن اندلاع فيضان استثنائي لنهر السين.

عندما صارت القدم المفقودة في حوزة رئيس التحرير، المصاب بحالة من الذهول فور إدراك الاستدلالات والحجج المنطقية التي قادت الشاب إلى العثور عليها، تأرجحت مشاعره بين الإعجاب المفرط بعبقرية ودهاء وحدة بصيرة شاب يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، وبهجته العارمة بكونه قادراً على عرض القدم اليسرى لجثة شارع أويركامب الشهيرة في واجهة زجاجية بمعرض الجريمة. صاح رئيس التحرير قائلاً: "من الممكن أن أكتب الآن مقالاً افتتاحياً متميزاً حول القضية المثيرة للفضول". وبعد أن عُرضت القدم المنزوعة من الجثة على أخصائي الطب الشرعي الملحق بهيئة تحرير جريدة العصر، سُئل روليتاني، الذي صار قاب قوسين أو أدنى من الحصول على وظيفة مراسل صحفي مبتدئ في قسم الحوادث بالجريدة، بشأن المبلغ الذي يود أن يتقاضاه كراتب شهري، فقال الشاب بنبرة ملؤها التواضع أثارت ذهول الحاضرين: "مائتي فرنك شهرياً". أجابه رئيس تحرير الجريدة بلهفة كبيرة: "بل ستتقاضى مئتين وخمسين فرنكاً، ولكن ألتمس منك أن تخبر الجميع بأنك عضو في هيئة تحرير الجريدة منذ قرابة شهر من الزمان، وبينغي أن تضع في اعتبارك أنك لم تعثر على القدم المبتورة، ولكن طاقم جريدة العصر هو من نجح في اكتشافها وحقق سبقاً صحفياً تمكن من تحويل مجرى الأمور، هنا يا صديقي العزيز، تتلاشى مصلحة الفرد وتذوب لكي تعلو مصلحة الجماعة".

وحينما همّ الشاب بمغادرة مكتب رئيس التحرير، استوقفه على عتبة الباب ليسأله عن اسمه، فأجاب قائلاً: "جوزيف جوزفين".

- لا أراه اسماً براقاً مناسباً، ولكن نظراً لأن المقالات لن تُذيل بتوقيعك، فكما يحلو لك، لا أعبأ بهذا الأمر.

وبين ليلة وضحاها، اتسعت دائرة علاقات وصدقات المراسل الصحفي الأمرد، فقد كان شخصاً خدوماً للجميع لا يتوانى

عن مساعدة الآخرين، يتحلى بروح الدعابة التي تخمد نيران أكثر الأشخاص غضباً، وتنزع سلاح أكثر الناس غيرة. وبين جنبات مقهى أرباب مهنة المحاماة، حيث اعتاد مراسلو الصحف بقسم الحوادث أن يلتقوا ببعضهم البعض، قبل أن يشقوا طريقهم متجهين نحو النيابة العامة أو مبنى المحافظة، سعيًا وراء كشف ملابسات الجرائم اليومية، ذاع صيت الفتى الشاب، وسرعان ما اخترقت شهرته الجدران، واجتازت الأبواب الموصدة، حتى بلغت مسامع مدير الأمن! فحينما تبرز فجأة إحدى القضايا المشوبة بالغموض التي تطلب جهداً خارقاً وعيناً نافذة متفحصة، يشير إليه رئيس التحرير بأن يطلق العنان لمواهبه المتفردة، ويشق طريقه نحو ساحة القتال، وفي أغلب الأحيان، كان روليتاي الذي عاد ليحمل لقبه الفعلي يحرز تقدماً ملحوظاً على أكثر المحققين شهرة في ذلك الوقت. توطدت أواصر علاقتنا إثر العديد من اللقاءات التي جرت في مقهى أرباب مهنة المحاماة. فهناك، المحامون والمجرمون والصحفيون تربطهم علاقات وثيقة، ولا يضمحل أحدهم العداء للآخر، فالبعض منهم يحتاجون إلى إعلانات في الجرائد لكي يذيع صيتهم وتتسع شهرتهم، والبعض الآخر يسعون جاهدين لاستقاء المعلومات من مصادر موثوقة وحيادية، تسامرنّا وتخاذبنّا أطراف الحديث، وساد علاقتنا شعور بالانسجام والتوافق والاحترام المتبادل، فقد كان روليتاي يتمتع بيقظة ذهن منقطعة النظير، وعبقريّة لا تُضاهى، ولديه أفكار إبداعية تتسم بالتميّز والتفرد عن أفكار الآخرين من أقرانه.

بعد مرور فترة من الوقت، أصبحت مسؤولاً عن الأخبار القانونية في جريدة "نبض الشارع"، لم تكن ممارستي لمهنة الصحافة سوى ذريعة لتوطيد أواصر الصداقة بيني وبين روليتاي، ولأنّ صديقي الجديد كُلف بالاطلاع على بعض المقالات القانونية التي تُذيل بتوقيعه لكي تنشر في جريدة "العصر"، لم أتوانَ في كثير من الأحيان عن تزويده بالمعلومات القانونية التي يرغب في معرفتها. مر ما يقرب من عامين على هذا النحو، وكلما توثقت عرى صداقتنا كلما أحببت هذا الشاب، فبالإضافة إلى روحه المرحّة تبين أنه يتسم بمجدية وحرفية صارمة إذا ما قورن بزملائه في نفس العمر، اعتدت أن أراه في كثير من الأحيان مرحاً مبتهجاً، لا تفارق الابتسامة شفّيته، ولكن أصابني الحيرة حين أبصرته عدة مرات غارقاً في بحر من الحزن العميق، أردت أن أطرح عليه سؤالاً بشأن تعكر صفوه وتكدر مزاجه، ولكنّه في كل مرة كان يستسلم للضحك دون أن ينبس ببنت شفة. ذات يوم طرحت عليه سؤالاً بشأن والديه الذين لم يتطرق ألبتة إليهما حينما نتجاذب أطراف الحديث، انقبضت ملامح وجهه، وتركني على الفور متظاهراً بأنه لم يعر انتباهاً لسؤالِي.

في تلك الأثناء، شتّت نيران القضية الشهيرة المعروفة باسم "الغرفة الصفراء"، والتي لم تصنفه فقط باعتباره أمهر المراسلين الصحفيين، بل وضعته في مقدمة صفوف أكثر محققي الشرطة براعة، وهذه مهارة مزدوجة تفوق التصورات وقلما يتحلى بها شخص واحد.. وهكذا، اتجهت الصحافة اليومية بخطى متسارعة نحو التحول لتصبح على ما هي عليه الآن: صحافة الجريمة. ربما لم ينل هذا التغير المفاجئ استحسان بعض الأشخاص محدودي الأفق، ولكن أظن أن الخطوة جديرة بالثناء وتستحق الإشادة، فليس بمقدور المجتمع بأسره أن يتزود بكلّ الأسلحة الضرورية ضد عالم الجريمة. تشبث ذوو الفكر المحدود بذريعة أن تناول الصحافة لهذا النوع من الأخبار يعد بمثابة مصدر إلهام للجرائم.

ها هو روليتاي يجلس في غرفتي صباح يوم 26 أكتوبر 1892، يكاد الدم المحتقن أن يمزّق وجهه ويظفر منه، جحظت عيناه في ألم، وكأنه صار فريسة لانفعال محموم، راح يلوّح بجريدة الصباح ثائراً، ثم صاح في وجهي:

- حسناً، هل طالعت صحف اليوم يا عزيزي "سينكلير"؟

- هل تقصد جريمة قصر "جلاندييه"؟

- نعم، قضية "الغرفة الصفراء"، ما رأيك؟

- سحَقاً، أظن أن أحد الأشباح أو حشرة الدعسوقة هي الفاعل الأصلي للجريمة.

- كن جاداً يا صديقي.

- حسناً، دعني أخبرك بأني لا أوّمن كثيراً بفكرة وجود قتلة يتسللون هاربين ومخترقين الجدران، فقد ارتكب الأب جاك خطأ جسيماً بترك سلاح الجريمة وراءه، وبما أنه يقطن فوق غرفة الأنسة ستانجرسون، يملكني يقين بأن عملية استكشاف الجناح التي سيجريها قاضي التحقيق اليوم ستؤتي ثمارها البانعة، ولن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، حتى يُكشف النقاب عن

حفرة متوارية عن الأنظار، أو يمر سري تسلل هذا الرجل الأحق عبره خلصة، عائداً أدراجه إلى المختبر، ليثبت للسيد ستانجرسون بأنه لم يبتعد عنه. لا أدري ماذا أقول؟ هذا مجرد تخمين!

خاص روليتابي في مقعد وثير مُشعلاً غليونه الذي يكاد ألا يفارق فمه، وظل يدخن لبضع لحظات غارقاً في صمت مهيب، لا شك أن هذه اللحظات العابرة هدأت من روعه وأسكنته تماماً، ولكنه راح يسخر مني قائلاً:

- أيها الشاب! أنت تعمل في مهنة الحمامة، ولا يساورني أي شك في براعتك التي تعكف على تبرئة الجناة، ولكن إذا عملت يوماً كقاضي تحقيق، فكم سيكون من السهل عليك إدانة الأبرياء! أنت حقاً تمتلك موهبة فريدة من نوعها أيها الشاب.

ثم راح يدخن غليونه بشراهة، وأردف:

- لن يتم العثور على باب سري أو ممر تحت أرضي، وسيتفاهم الغموض الذي يلف لغز "الغرفة الصفراء"، ولذلك تشغل القضية جل تفكيري. لقد كان قاضي التحقيق مُحققاً فيما تفوّه به: هذه القضية تُعتبر أكثر القضايا التي عرفت غموضاً وتعقيداً وغرابة.

- هل لديك أية فكرة عن ملامح الخطة اللعينة التي لجأ إليها القاتل ليتمكن من الفرار هارباً؟

- لا شيء، لم تراودني أية فكرة حتى الآن، ولكن تلح على ذهني بعض الاستنتاجات والتساؤلات بشأن المسدس، السلاح الذي لم يلجأ القاتل لاستخدامه في ارتكاب الجريمة.

- يا إلهي، إذن من الذي لجأ لاستخدام هذا السلاح؟

- حسناً.. ربما الآنسة ستانجرسون نفسها.

- لم أعد أفهم شيئاً، ومن الأفضل ألا أسعى لفهم أي شيء.

هز روليتابي كتفيه استخفافاً، ثم سألني:

- ألم يلفت انتباهك أي شيء حين قرأت المقال المنشور في جريدة الصباح؟

- لا، راودني شعور بأن ما يسرده المقال من تفاصيل مشوب بالغرابة والغموض.

- حسناً، ولكن، هل كان باب الغرفة مغلقاً بواسطة مفتاح؟

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يبدو منطقياً في هذه القضية المثيرة.

- حقاً! وماذا عن المزلاج؟

- المزلاج؟

- المزلاج الذي أغلق به الباب من الداخل؟ هذه مجرد احتياطات اتخذتها الآنسة "ستانجرسون"، فقد تنامي إلى علمي أنها

كانت تخشى من أن يقع عليها اعتداء من قبل شخص ما، ولذلك لجأت إلى هذه التدابير الاحترازية، حتى أنها أخذت

مسدس الأب جاك دون أن تحبسه، لا شك أنها سعت جاهدة ألا تثير زعر المحيطين بها ولا سيما والدها المسكين. وقع

بالفعل ما كانت تحشاه، وظلت تقاوم المجرم بضراوة، بعد أن نشب بينهما عراك عنيف بالأيدي، أمسكت المسدس ولكنها

لم تصوب بمهارة، فأصاب القاتل بجرح في يده، وهذا هو التفسير المنطقي لوجود آثار دماء وبصمات أصابع لوثت الجدران

والباب، آثار يد القاتل الذي راح يتلمس طريقه باهتياج باحثاً عن مخرج للهروب من الغرفة، ولكن لسوء الحظ، لم يكن

لديها متسع من الوقت لكي تطلق النيران، فلم تتمكن من تفادي الضربة القوية التي تلقتها على صدغها الأيمن.

- إذن، تريد القول بأن إصابة الآنسة ستانجرسون في صدغها الأيمن لم تنجم عن رصاصة أُطلقت عليها من المسدس الذي

كان في حوزة القاتل، أليس كذلك؟

- لم يشر المقال الصحفي إلى هذه النقطة، ولكن يبدو من المنطقي أن الآنسة لجأت لاستخدام المسدس ضد القاتل..

والآن، ما السلاح الذي كان في حوزة القاتل؟ يبدو أن المجرم عمد إلى إردائها قتيلة عبر توجيه ضربة وحشية إلى صدغها

الأيمن، بعد أن حاول عبثاً أن يكتم أنفاسها، أكاد أجزم بأن القاتل كان على علم بأن الأب جاك يقطن فوق غرفة الآنسة

ستانجرسون، وهذا هو أحد الأسباب التي دفعته إلى التزوّد بمسدس مكتوم الصوت، أو ربما هراوة، أو مطرقة.

- كل هذه الاستنتاجات الجديرة بالاهتمام لا تقدم تفسيراً منطقياً حول كيفية خروج القاتل من "الغرفة الصفراء".  
نُحِض روليتابي عن مقعده قائلاً: "بالطبع، ولكي أفك طلاسّم اللغز، صار لزاماً عليّ الآن أن أنطلق متوجّهاً إلى القصر،  
ولقد حضرت لأدعوك أن تأتي بصحبتيّ".

- أنا!

- نعم يا صديقي العزيز، فأنا في أمسّ الحاجة إليك، لقد كُلفت من قبل جريدة العصر بمتابعة القضية، وينبغي أن أفك  
خيوطها المتشابكة في أسرع وقت ممكن.

- ما الخدمة التي بمقدوري أن أقدمها لك؟

- السيد روبرت دارزاك لا يزال موجوداً في قصر جلاندييه، أليس كذلك؟

- بدون شك، لقد استبد به اليأس والقنوط.

- ينبغي أن أناقش معه بعض الأمور.

انطلقت هذه العبارة من بين شفتي روليتابي بنبرة أثارت دهشتي:

- ولكن، هل تظن أن نقاشي معه سيجدي نفعاً وسيؤتي ثماره؟

- بالطبع.

لم يرغب روليتابي في قول المزيد، ثم توجه إلى غرفة معيشتي ملتمساً مني ارتداء ثيابي في أسرع وقت ممكن. كانت تربطني  
علاقة وثيقة بالسيد روبرت دارزاك، فقد أسدى لي خدمة قضائية جلييلة بشأن إحدى الدعاوى المدنية، حينما كنت أعمل  
وكيل أعمال للسيد "باريه ديلا تور". كان السيد روبرت آنذاك في الأربعينيات من عمره، ويعمل أستاذاً للفيزياء في جامعة  
السوربون. ربطته علاقة صداقة وثيقة بعائلة "ستانجرسون"، لأنه بعد سبع سنوات من الإعجاب والعشق والملاحقة الدؤوبة،  
كان قاب قوسين أو أدنى من الزواج من الأنسة ستانجرسون التي كانت تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، لكنها كانت  
لا تزال تتمتع بقدر كبير من الجمال المبهّر. وبينما كنت أردي ثيابي، ناديت على روليتابي، الذي كان ينتظرني بنفاد صبر  
في غرفة المعيشة، ثم سألته:

- هل لديك أية انطباعات أو تكهنات بشأن الوضع الاجتماعي للقاتل؟

- نعم، أظن أنه ينتمي لصفوة المجتمع، هذا مجرد انطباع.

- وما الذي منحك هذا الانطباع؟

- حسناً، يمكن استنتاج ذلك عبر القبعة العصرية المتسخة، والمنديل الملطّخ بالدماء، وآثار الحذاء الضخم على الأرض.

- أظن أنه من المعتاد ألا يخلف القاتل وراءه الكثير من الآثار المعبرة عن الواقع!

- هذه مجرد افتراضات يا عزيزي سينكلير.

## الفصل الثالث

### تسلل القاتل كشبح عبر مصراعي النافذة

بعد مرور نصف ساعة، توجهنا أنا وروليتابي إلى المخططة، وظللنا واقفين على الرصيف مترقبين بفارغ الصبر انطلاق القطار الذي سيقلنا إلى بلدة "إيناي سير أوج"، لاح أمامنا ممثلو نيابة "كوربي"، السيد "دو ماركيه" وكتابه قادمان من بعيد، فقد أمضيا ليلتهما في باريس من أجل حضور العرض الأول للمسرحية التي ألّفها السيد "دو ماركيه"، والتي نُشرت في إحدى المجلات، ودُيّلت بالتوقيع المستعار "كاستيجا ريدينكو". كان السيد دو ماركيه رجلاً عجوزاً تعلو ملامح وجهه الهيبة والوقار، يتحلى دائماً بالكياسة واللباقة واللفظ. وطوال حياته لم يستهوه أي شيء سوى الفن المسرحي، وفي إطار حياته المهنية وعمله كقاضٍ، انصب جل اهتمامه على القضايا المثيرة المفعمة بالغموض، التي من الممكن أن تمدّه بأفكار وخيالات وإلهام في فريد من نوعه، وبالرغم من أدبه الجم الظاهري، إلا أنه كان يتطلع إلى أرفع المناصب القضائية، كان الطموح إلى المثالية بمثابة المحرك الأساسي الذي يدفعه لإحراز نجاح منقطع النظير، وقاده رويداً رويداً لأن يصبح في سن متأخر قاضي تحقيق في "كوربي"، وأن يذيل مؤلفاته بالاسم المستعار "كاستيجا ريدينكو".

كان من المتوقع أن تأسر قضية "الغرفة الصفراء"، بكل ما تحمله من ألغاز خادعة، لبَّ عقل هذه الموهبة الأدبية النادرة، ولذلك انكب السيد دو ماركيه على تفاصيلها، ليس باعتباره قاضياً حريصاً على فك طلاسم أحد الألغاز المحيرة، ولكن لكونه أحد هواة المسرحيات المأساوية المشوبة بالغموض ذات الحبكة المعقدة، حيث تُكرس الطاقات، وتستنفد القدرات من أجل إيجاد حل للعقدة، ولكن الأمر يستحق العناء، طالما أن الغيوم ستنتشع وستنجلي الحقائق، وتظهر كظهور الشمس في كبد السماء عندما يسدل الستار على المشهد الأخير. ولذلك، فور أن اقتربنا منا، تنهّى إلى مسامعي صوت السيد دو ماركيه متحدثاً إلى كاتبه بنبرة متنهدة:

– شريطة ألا يمحو المقاول بمعوله الفتاك آثار اللغز المثير يا عزيزي "مالين".

أجاب السيد مالين قائلاً: "لا تقلق يا سيدي، ربما سينقضون بمعاولهم على الجناح، ويهدمون عن بكرة أبيه، دون أن تمس أيديهم قضيتنا الشائكة، لقد تحسست الجدران بيدي، وتفحصت بإمعان السقف والأرضية، وحفرت صورهم في ثنايا ذاكرتي. لا تقلق، من المستحيل أن تُخدع، كما أنه ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً".

وبعد أن بثّ السيد مالين الطمأنينة في نفس رئيسه، أوماً برأسه إلى السيد دو ماركيه رامقاً إيانا بنظرات ملؤها الحيلة والحذر، تقطبت ملامح وجه السيد دو ماركيه، وعندما أبصر روليتابي متجهاً نحوه، سار بخطى مسرعة نحو بوابة القطار، ثم قفز إلى الداخل، هامساً في أذن كاتبه:

– لا أرغب في أن يقحم الصحفيون أنوفهم في شؤوننا.

– مفهوم يا سيدي.

تحجّر السيد مالين في مكانه معترضاً طريق روليتابي، وأراد أن يمنعه من ولوج مقصورة قاضي التحقيق، قائلاً:

– عفواً يا سيدي، فهذه المقصورة محجوزة.

قال صديقي الشاب بنبرة تنم عن دماثة الخلق والتقدير: "سيدي، أعمل كصحفي في جريدة العصر، وأرغب في التحدث قليلاً مع السيد دو ماركيه".

– السيد دو ماركيه منشغل الآن بتحرياته وتحقيقاته وليس لديه متسع من الوقت.

أجاب روليتابي، حيث راح يحيط شفته السفلى إلى الأمام بازدياد وعدم اكتراث: "في الواقع، أنا لا أعبأ بتحرياته وتحقيقاته على الإطلاق، فأنا لا أعمل مراسلاً صحفياً لقسم الحوادث، بل محرراً لقسم المسرح، وأنا أسعى هذا المساء لإعداد تقرير صغير حول المجلة التي يكتب فيها".

قال الكاتب وهو يتنحى جانباً: "تفضل يا سيدي، أرجو المَعذرة".

ولج روليتابي باب المقصورة، فتبعته، ثم جلست بجواره.. دخل الكاتب ثم أغلق باب المقصورة، فراح السيد دو ماركيه يتطلع إليه بحنق دون أن يتفوه بكلمة واحدة. فتح روليتابي فاه قائلاً: "سيدي، أرجو ألا يحتدم غضبك على هذا الرجل الطيب،

فإذا كنت قد خرقت الأوامر، فهذا لأنني أود أن أنال شرف تجاذب أطراف الحديث معك باعتبارك السيد كاستيجا روديندو، وليس باعتبارك السيد دو ماركيه! اسمح لي أن أقدم لك أسمى التهاني باعتباري مراسلاً صحفياً في قسم الأدب والمسرح بجريدة العصر".

قدمني روليتابي أولاً إلى السيد دو ماركيه، ثم قدّم نفسه. راح السيد دو ماركيه يداعب لحيته المدببة راقماً إيانا بنظرات تنم عن القلق والانعراج، ثم أوجز ببضع كلمات وجهها إلى روليتابي، أنه كاتب متواضع بلغ به الحد ألا يفصح عن هويته الحقيقية، كما أوصى روليتابي ألا يندفع بحماسة الصحفي وإعجابه المفرط بالعمل المسرحي، ويشيع على الملأ أن السيد كاستيجا روديندو وقاضي تحقيق "كوري" هما لشخصية واحدة. ثم أردف، بعد أن انتابته حالة من الحيرة والتردد:

- من الممكن أن تلحق مؤلفات الكاتب المسرحي الضرر بعمله كقاضي، ولا سيما في الأقاليم التي تتسم فيها الحياة بالرتابة والنمطية.

صاح روليتابي رافعاً يديه ليشهد الله: "لا تقلق يا سيدي، سيبقى هذا الأمر في طي الكتمان". انطلق القطار، فأصيب القاضي بالذهول لأننا لم نغادره، ثم قال مدهوشاً: "لقد بدأ القطار في التحرك". أجاب الصحفي مرتسمة على ثغره ابتسامة تحمل كل الود: "نعم يا سيدي، لقد تحرك القطار الآن، وها أنت في طريقك إلى قصر "جلانديه"، تنطلق نحو قضية مفعمة بالإثارة يا سيدي!".

- بل قضية مفعمة بالغموض! قضية لا يصدقها عقل، يتعذر فتح مغاليقها وسبر أغوارها، ولا أخشى سوى شيء واحد يا سيد روليتابي؛ وهو امتزاج الآراء واختلاط التفسيرات التي يطلّقها الصحفيون بين الفينة والأخرى. أصيب صديقي بصدمة لجمت لسانه وكان صاعقة وقعت على رأسه، ثم قال ببساطته المعهودة:

- نعم، من الطبيعي أن تساورك بعض المخاوف بشأنهم، فقد اعتادوا أن يقحموا أنوفهم في كل شيء، أما أنا يا سيدي القاضي، فلم ألقِ بك إلا بمحض الصدفة، وشاء القدر أن يضعني في طريقك، وفي مقصورتك لأتجاذب معك أطراف الحديث.

سأله السيد دو ماركيه بلهفة: "إذن، إلى أين أنت ذاهب؟". أجابه روليتابي دون أدنى تردد: "إلى قصر جلانديه". انتفض السيد دو ماركيه في مكانه مذعوراً، وقال بنبرة ملؤها التحدي:

- لن تتمكن من دخول القصر يا سيد روليتابي!

أجابه صديقي وكأنه يتأهب لخوض معركة ضارية: "هل ستعترض طريقي يا سيدي القاضي؟".

- لا، لم أقصد ذلك، ولكن السيد ستانجرسون أوصد الأبواب في وجه الجميع، ولم يسمح لأحد بالدخول، كما أن البوابة تخضع لحراسة مشددة، ولم يتمكن أيّ صحفي بالأمس من اجتيازها ومعاينة مسرح الجريمة.

- لقد أحسن صنعا، أدركت حقيقة الأمور الآن.

زم السيد دو ماركيه شفتيه وانتفخت أوداجه، ثم أبدى تأهبه لأن يلوذ بصمت عنيد. ولكن لم تسترخ أعصابه قليلاً إلا عندما فتح روليتابي فاه، مخبراً إياه أننا متوجهان إلى قصر جلانديه من أجل مقابلة "صديق قديم مقرب"، كان روليتابي يقصد السيد "روبرت دارزاك"، الذي ربما التقاه مرة واحدة طيلة حياته.

تابع الصحفي الشاب حديثه: "يا له من مسكين روبرت! لقد كان على أهبة الاستعداد لأن يضحي بحياته من أجل الأنسة ستانجرسون التي هام بها عشقاً وأحبها حدّ الجنون".

قال القاضي على مضض: "يعتصر قلب السيد روبرت دارزاك ألماً، ويعاني أشد معاناة".

- ولكن دعنا نأمل أن تُنقذ الأنسة ستانجرسون من بين براثن الموت.

- أتمنى ذلك، أخبرني والدها بالأمس أنها أصبحت على شفا الموت، ولن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يلحق بها والدها في قبرها، يا لها من خسارة فادحة للعلم والعلماء!

- إصابة الصدغ الأيمن بالغة الخطورة، أليس كذلك؟

- بالطبع! ولكن لحسن الحظ أنها لم تود بها إلى الموت، سددت لها الضربة بكل ما أوتي المجرم من قوة! قال روليتاي، وهو يرمقني بنظرة ملؤها زهو الانتصار: "إذن، لم تُصب الآنسة ستانجرسون بجرح نافذ إثر إطلاق النيران من المسدس، أليس كذلك؟".

علت ملامح القلق والارتباك وجهه دو ماركيه، ثم صاح قائلاً:

- أنا لم أقل شيئاً، ولا أريد أن أقول شيئاً، ولن أقول شيئاً.

ثم التفت إلى كاتبه، ولم يعرنا أدنى انتباه، ولكن يصعب على المرء أن يتملص من بين يدي روليتاي بمثل هذه البساطة، فاقترب من قاضي التحقيق، ثم أشار إلى جريدة الصباح التي أخرجها من جيب معطفه قائلاً له:

- سيدي القاضي، هناك أمر واحد أرغب في سؤالك بشأنه، وأعدك بأنني لن أرتكب أية حماقة أخرى، هل قرأت المقال الذي نشر في جريدة الصباح؟ ألا يبدو سخيلاً ومليئاً بالترهات؟

- على الإطلاق يا سيدي.

- حسناً! لا تحتوي "الغرفة الصفراء" إلا على نافذة واحدة، لم تُنزع قضبانها الحديدية، وباب أقتحم عنوة، ورغم ذلك لم يتم العثور على القاتل!

- وهكذا يا سيدي، وهكذا ينشأ السؤال الذي ترغب في طرحه، أليس كذلك؟

لم ينبس روليتاي ببنت شفة، ثم استغرق في أفكاره المجهولة، مرت ربع ساعة سادها الصمت والسكون، ولكن عندما استفاق صديقي من شروذ ذهنه، خاطب قاضي التحقيق مرة أخرى مبالغاً إياه بهذا السؤال:

- كيف صُفِّت الآنسة ستانجرسون شعرها في الليلة التي وقعت فيها الجريمة؟

- ما الغرض من سؤالك؟

- هذا سؤال جوهرى وبالغ الأهمية، كانت تضع عصا على رأسها، أليس كذلك؟ يتملكني يقين بأنها كانت تلف شعرها بعصا يوم وقوع الحادث المأساوي.

- لقد جانبك الصواب يا سيد روليتاي. في تلك الليلة المشؤومة، شرعت الآنسة ستانجرسون في تمشيط شعرها، ثم غطت رأسها بشعرها المجدول، وظلت جبهتها مكشوفة تماماً، لقد اعتادت أن تصفف شعرها بمثل هذه الطريقة، هذه معلومات مؤكدة، فقد تفحصنا جرحها الغائر لفترة طويلة من الوقت، ولم نجد أية آثار للدماء على شعرها، ومنذ أن وقع الاعتداء عليها لم تُمسّ تصفيفة شعرها.

- حقاً! هل أنت واثق بأن الآنسة ستانجرسون لم تكن معصوبة الشعر عندما تعرضت لهذا الاعتداء الغاشم؟

أجاب القاضي مبتسماً: "بالطبع يا سيدي، لأنني حين شرعت في تفحص جرحها خاطبني الطبيب قائلاً: "إنه لمن المؤسف أن الآنسة ستانجرسون اعتادت أن تغطي رأسها بشعرها المجدول، لو أن رأسها كان مُغطى بعصا لكانت الضربة التي تلقتها على صدغها أقل تأثيراً". والآن، يتوجب عليّ أن أخبرك بأنه من الغريب أن تعلق أهمية كبيرة على...".

تنهد روليتاي قائلاً: "إنه لمن المؤسف حقاً أنها لم تغط شعرها بعصا! كان من المفترض أن أتحرى الدقة وأستقي معلوماتي من مصادر موثوق بها".

ثم أصدر إيماءة ملؤها الأسف، وعاد ليمطر القاضي بسيل من الأسئلة قائلاً:

- هل الإصابة التي تعرضت لها الآنسة في صدغها خطيرة؟

- نعم، بالغة الخطورة.

- وبأي سلاح وُجهت لها الضربة؟

- هذا هو سر التحقيق يا سيدي.

- هل عُثر على السلاح المستخدم في الجريمة؟

لم ينبس قاضي التحقيق ببنت شفة.

- وماذا عن الجرح الذي أصاب عنقه؟

عندئذ، فتح قاضي التحقيق فاه ليخبرنا بأنه وفقاً لتشخيصات الأطباء، كان من المتوقع أن تموت الأنسة خنقاً لو أن القاتل استمر بالضغط على حلقها لبضع ثوانٍ أخرى. قال روليتاي بنبرة حادة تكسوها الصرامة: "وفقاً لما ذكرته جريدة الصباح، تبدو هذه القضية مشوبة بتعقيدات لا حصر لها، هل يمكنك يا سيدي القاضي أن تخبرني بموضع أبواب ونوافذ وكوى الجناح؟".

أجاب السيد دو ماركيه بعد أن سعل لعدة مرات، لكنه لم يقوَ على مقاومة رغبته الملحة في فك طلاسم قضية مثيرة للذهول، ألقيت على عاتقه مسؤولية التحقيق فيها: "هناك خمس فتحات، باب الردهة وهو المدخل الوحيد للجناح، ودائماً ما يغلق من تلقاء نفسه، وليس بمقدور أحد أن يفتحه من الداخل أو من الخارج إلا بواسطة مفتاحين خاصين لا يفارقان جيبي الأب جاك والسيد ستانجرسون. من الواضح أن الأنسة ستانجرسون لم تكن بحاجة لأي واحد منهما، لأن الأب جاك يقيم بشكل شبه دائم بين جدران الجناح، كما أنها لا تفارق والدها طيلة النهار، عندما وقعت الجريمة، وحُطّم باب الغرفة الصفراء بعد عناء طويل، بقي باب الردهة موصداً كالعادة، وظلّ مفتاحا الباب أحدهما في جيب الأب جاك، والآخر في جيب السيد ستانجرسون، أما بالنسبة للنوافذ، يبلغ عددها أربعة: النافذة الوحيدة للغرفة الصفراء، ونافذتي المختبر، وأخيراً نافذة الردهة. تطل نوافذ كل من المختبر والغرفة الصفراء على الحقول الشاسعة، أما نافذة الردهة فتطل على حديقة القصر. صاح روليتاي: "إذن، فمن المتوقع أن المجرم قد لاذ بالفرار عبر نافذة الردهة!".

تساءل السيد دو ماركيه رامقاً صديقي بنظرة متسعة مذهولة: "كيف عرفت ذلك؟!".

- سيتضح لنا لاحقاً كيف فرّ القاتل هارباً من الغرفة الصفراء، ولكنه أجبر بالفعل على مغادرة الجناح عبر نافذة الردهة.  
- للمرة الثانية أطرح عليك هذا السؤال: "كيف عرفت ذلك؟".

- يا إلهي! الأمر في غاية البساطة! طالما أن المجرم لم يستطع الفرار عبر باب الجناح الموصد بإحكام، فمن البديهي أن هـ فرّ هارباً عبر إحدى النوافذ، ولكي يبلغ هدفه المنشود كان لزاماً عليه أن ينجز مهمته عبر نافذة غير مزودة بقضبان حديدية. في الواقع، ووفقاً للتحقيقات، تبين أن نافذة الغرفة الصفراء مغطاة بقضبان حديدية لأنها تطل على الحقول، ولا شك أن نافذتي المختبر تحدّهما أيضاً القضبان الحديدية لنفس السبب، وبما أن القاتل نجح بالفعل في الهروب، يدور في مخيلتي أنه عثر على ضالته المنشودة بوجود نافذة بدون قضبان، ولا شك أنها نافذة الردهة المطلّة على حديقة القصر، أي أنه ظل بين أسوار القصر، القاتل ليس ساحراً أو بطلاً خارقاً!

- نعم، ولكن الأمر الذي غاب عن ذهنك هو أن نافذة الردهة، النافذة الوحيدة غير المزودة بأية قضبان حديدية، تتألف من مصراعين حديديين يتعذر فتحهما. في الواقع، ظل هذان المصراعان الحديديان موصدين بإحكام من الداخل بواسطة مزلاج حديدي قوي، ومع ذلك، لدينا دليل يثبت أن القاتل قد فرّ هارباً بالفعل من الجناح عبر هذه النافذة! وهذا الدليل هو آثار الدماء التي لطخت جدران الردهة والمصارع، وآثار الخطوات التي طُبعت على الأرض، وهي مماثلة تماماً لآثار الخطوات التي عُثر عليها في الغرفة الصفراء، وهذا الدليل غير القابل للدحض يدعم فكرة أن المجرم هرب بالفعل عبر هذه النافذة! ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة الآن: كيف تمكّن القاتل من الهروب بالرغم من أن مصراعي النافذة ظلاً مغلقين بإحكام من الداخل؟ لقد تسلل كشبح مخترقاً مصراعي النافذة! والأمر الأكثر إثارة للذهول، آثار دماء القاتل التي تلطخت بها الجدران والأرضية عندما فرّ هارباً من الجناح، حيث بات من المستحيل التحقق من الوسيلة التي لجأ إليها المجرم لمغادرة الغرفة الصفراء، والمرور الإلزامي عبر المختبر من أجل بلوغ الردهة! سيدي، تكاد هذه القضية أن تصيب الجميع بحالة من الهذيان، إنها قضية مثيرة بالفعل، وآمل ألا نضع أيدينا على مفاتيح أسرارها قريباً!

- إلام تطمح يا سيدي القاضي؟

ارتبك القاضي مصححاً عبارته: "آمل أن نضع أيدينا على مفاتيح أسرارها قريباً، أتمنى ذلك...".

- إذن، فقد أغلق أحد الأشخاص مصراعي النافذة من الداخل بعد أن لاذ المجرم بالفرار، أليس كذلك؟

- بالطبع، هذا ما أتصوره، طالما أننا لم نجد تفسيراً منطقياً مقنعاً حتى هذه اللحظة، لا شك أن تنفيذ هذه الجريمة يتطلب وجود شريك أو عدة شركاء؛ شركاء غير مرئيين.

ثم أردف بعد فترة صمت قصيرة:

- من الممكن أن أقوم باستجواب الأنسة ستانجرسون اليوم لو أنها استفاقت من غيبوبتها، واستردت قليلاً من عافيتها.
- وماذا عن مخزن الغلال الذي يقع أعلى غرفة الأنسة؟ هل تربطه أية فتحات بالغرفة الصفراء؟
- نعم، لقد نسيت إحصاء هذه الفتحة السادسة، فهناك نافذة صغيرة، أو بالأحرى كوة سقف تسمح بمرور الضوء، ونظراً لأنها تشكل مصدر خطورة، زودها السيد ستانجرسون أيضاً بقضبان حديدية منيعة، ظل مصراعاً الكوة مغلقين بإحكام من الداخل، كما أن القضبان الحديدية بقيت على حالها، لم تمسها يد بشرية، كما هي الحال أيضاً بالنسبة لجميع نوافذ الطابق الأرضي. فضلاً عن ذلك، لم نكتشف أي دليل يثير شكوكنا بشأن تسلل القاتل عبر مخزن الغلال.
- إذن، لا يساورك أدنى شك يا سيدي القاضي من أن المجرم تمكن من الهروب دون معرفة الوسيلة التي لجأ إليها والمكيدة التي دبرها عبر نافذة الردهة، أليس كذلك؟
- جميع الأدلة تؤكد صحة هذا الافتراض.
- أذعن روليتابي قائلاً: "وأنا أكاد أجزم بذلك".
- ساد صمت مطبق، ثم تابع روليتابي حديثه:
- لو أنكم لم تعثروا على أية آثار للقاتل في مخزن الغلال، كآثار السخام التي خلفتها خطوات المجرم على أرضية الغرفة الصفراء، فلا شك أن القاتل لم يسرق مسدس الأب جاك، بل كلف أحد المتواطئين معه بتنفيذ هذه المهمة الخطيرة.
- قال القاضي وهو يهز رأسه مؤكداً: "لم نجد أية آثار في مخزن الغلال سوى آثار الأب جاك".
- ثم قرر أن يكمل الفكرة التي طرأت في ذهنه فجأة: "كم هو محظوظ الأب جاك لأنه لم يبرح المختبر، وظل مرافقاً للسيد ستانجرسون حتى بعد منتصف الليل".
- إذن، ما الدور الذي لعبه مسدس الأب جاك في هذه المأساة المروعة؟ من الواضح أن هذا السلاح أضر بالأنسة ستانجرسون أكثر مما أضر بالمجرم.
- ودون أن يمنحه القاضي إجابة وافية شافية على سؤاله الذي لا شك أنه أثار انزعاجه، أخبره أنه عُثر على آثار رصاصتين في الغرفة الصفراء؛ إحداها في الجدار الملوّث ببصمات أصابع يد القاتل المملوطة بالدماء، والأخرى في السقف. راح روليتابي يكرر هذه الكلمات بصوت خفيض: "أوه! أوه! في السقف، حقاً.. في السقف! كم يبدو هذا الأمر محيراً ومثيراً للفضول.. في السقف!".
- راح روليتابي يدخن غليونيه في صمت محاطاً بهالة من الدخان، وعندما بلغ القطار محطة "إيناي سير أوج"، اضطرت أن أربت بقوة على كتفه مستوقفاً شرود ذهنه، ولكي أدعوه لمغادرة القطار، والنزول على الرصيف. وهناك، ألقى علينا قاضي التحقيق وكتابه تحية الوداع، ثم سرعان ما صعدوا على متن عربة مكشوفة يجرها زوج من الخيل كانت في انتظارهما. سأل روليتابي أحد موظفي محطة القطار: "كم سنستغرق من الوقت إذا توجهنا إلى قصر "جلاندييه" سيراً على الأقدام؟".
- ساعة ونصف، أو ساعتين إلا ربع لو أنكمما سرتما بخطى بطيئة متمهلة.
- تطلع روليتابي نحو السماء، وأدرك أن الجو مشمس ودافئ، ثم أحكم وضع ذراعه حول ذراعي قائلاً:
- دعنا نطلق! أنا في أمس الحاجة إلى السير في الهواء الطلق.
- حسناً! هل انقشع غيم الغموض قليلاً؟
- أوه! لا تزال الآفاق ملبدة بالغيوم، بل صارت الأمور أكثر إرباكاً وتعقيداً من ذي قبل! ولكن خطرت ببالي بعض الأفكار.
- إذن، قص تفاصيلها على مسامعي.
- أوه! لا أستطيع الإفصاح عن تفاصيلها الآن.
- هل تظن أن هناك متواطئين شاركوا في تنفيذ الجريمة؟
- لا أظن ذلك.

خيّم علينا الصمت لبرهة من الوقت، ثم أردف روليتاي:

- لقد حالفني لأنني التقيت بقاضي التحقيق والكاتب.. حسناً! ما الذي قلته لك بشأن المسدس المستخدم في الجريمة؟ رأيتّه يمشي متبخترًا مزهوًا بنفسه واضعًا يديه في جيبَي سرواله، وجبهته مائلة قليلاً نحو الأرض، ويطلق صفيراً من بين شفّتيه.. ثمّ بعد برهة قصيرة من الوقت، سمعته يهمس:

- يا لها من فتاة مسكينة!

- هل تقصد الآنسة ستانجرسون؟

- نعم، فهي فتاة تتسم بالنبل والشرف والشهامة، تتمتع بشخصية عظيمة ومتفردة، كما أن قلبي يعتصر عليها حزناً لأنها تثير شفقتي إلى أقصى حد ممكن.

- إذن أنت تعرف الآنسة ستانجرسون؟

- كلا، لا تربطني بها أية علاقة، لم أرها سوى مرة واحدة.

- إذن، لماذا تقول عنها أنها تتمتع بشخصية عظيمة ومتفردة؟

- لأنها بذلت كل ما في وسعها من أجل الصمود في وجه القاتل، لأنها دافعت ببسالة عن نفسها، وسعت لدرء الهجوم الذي شنّ عليها، وقبل أي شيء آخر، بسبب الرصاصة التي استقرت في سقف الغرفة.

رحت أتطلع بذهول إلى وجهه متسائلاً عما إذا كان يسخر ويهزأ بي، أم أنّه أصيب بمس من الجنون، لكنني أدركت أنه لم يكن لديه أدنى رغبة في الضحك، واطمأن قلبي بشأن سلامة عقله حينما أبصرت بريق الذكاء يشع من عينيه المستديرتين الصغيرتين. ثمّ أني اعتدت سماع عباراته المفعمّة بالغموض، مفعمّة بالغموض من وجهة نظري، لأنها في أغلب الأحيان تفتقر إلى الوضوح وعدم الانسجام، حتى أنه عندما يتفوه بعبارات تتسم بالإيجاز والوضوح، أراها دائماً خارج السياق، ثمّ فجأة تنجلي الغيوم وتتضح الرؤية، وأدرك أن العبارات التي تفوّه بها، والتي بدت بالنسبة لي مجردة من المعنى، تترابط وتشابك ببساطة منقطعة النظير، فأجد نفسي متفوهاً بهذه الكلمات: "كيف لم أدرك فحوى ما تفوّه به صديقي من قبل".

## الفصل الرابع في قلب الطبيعة الموحش

يُعد قصر جلاندييه واحداً من أقدم القصور التي شيدت في منطقة "إيل دو فرانس"، حيث لا يزال محتفظاً بالكثير من الأحجار الشهيرة التي تعود إلى الحقبة الاقطاعية، وقد بُني في قلب الغابات في عهد فيليب الرابع ملك فرنسا، ويقع على بعد بضعة مئات الأمتار من الطريق المؤدية إلى قرية "سانت جينييف دي بوا" التابعة لبلدية "مونتيري". يتألف القصر من مجموعة من الأبنية ذات الطرازات المعمارية المتنوعة التي يتوسطها برج رئيسي، عندما يصعد المرء درجات البرج القديم الصخرية ويبلغ قمته، يمكنه أن ييصر برج مونتيري المنتصب بشموخ فوق الوادي، والذي يقع على بعد ثلاثة فراسخ من القصر. لا يزال هذان البرجان منتصبين بشموخ منذ قرون عديدة يحدقان في بعضهما البعض، وكأتهما يتسامران ويتجاذبان أطراف الحديث على مرأى ومسمع من الغابات الخضراء والأراضي القاحلة، حول أقدم الأساطير التي شكلت تاريخ فرنسا، ترقد القديسة جينييف في أحد أقدم خنادق القصر، وعندما يحل فصل الصيف، يأتي العشاق من كل صوب وحذب ليستغرقوا في أحلامهم، ويتبادلوا الوعود أمام مقبرة القديسة، الواقع بالقرب منها بئر أشيع عنه الكثير من القصص والأساطير، حيث قيل بأنه يحوي مياه إعجازية، وفي لفظة تنم عن مشاعر العرفان بالجميل من قبل الكثير من الأمهات، نُصب هناك تمثال للقديسة جينييف، ووضعت أمام قدميه النعال الصغيرة وقبعات الأطفال الذين أنقذتهم هذه الروح المقدسة.

في هذه البقعة من الأرض، والمتأصلة في جذور التاريخ، جاء البروفيسور ستانجرسون وابنته ليقاما بين جدران القصر المهيّب المنعزل في أعماق الغابة، ولكي ترسو قواعد علم يلوح في الأفق. في الواقع، لن تؤرخ مسيرتهم وإنجازاتهم وآمالهم سوى الأحجار العتيقة وأشجار البلوط الشاهقة. استعادت هذه البقعة من الأرض جلاء إهمال قاطنيتها وهجرهم لها الجانب الموحش للطبيعة البدائية، ولم تُبرز سوى الأبنية المتوارية في أحشائها آثار التحولات المشوبة بالغرابة، لقد طبع كل قرن عليها بصماته الواضحة: قطعة معمارية ارتبطت في الأذهان بذكرى حادث مروع، أو بعض المغامرات المأساوية، وهكذا ظل هذا القصر، الذي أضحي ملاذاً آمناً للعلم، بمثابة أرض ممهدة ومسرح للألغاز المرعبة والمعقدة التي تمضي إلى الموت. وعقب سرد هذه المعلومات الهامة، جالت في خاطري هذه الفكرة: لو أنني توقفت قليلاً لأرسم لوحة نفيض ملامحها بالخرن والرعب بشأن قصر "جلاندييه"، فليس لأنني اغتنمت الفرصة ووجدتها ملائمة وسانحة لخلق أجواء تتماشى مع الأحداث المأساوية التي ستبرز شيئاً فشيئاً رويداً أمام أعين القارئ، فشغلي الشاغل، أثناء عرض هذه القضية المفعمة بالغموض، أن أكون بسيطاً قدر الإمكان، وألا أظهار بأنني مؤلف أو روائي يحمل لغز الغرفة الصفراء، وبين طياته كم هائل من الرعب الحقيقي المأساوي يؤهله للاستغناء عن الأدب، ولا أرغب سوى أن أكون شخصاً مخلصاً وأميناً في نقل المعلومة، يتمحور جلّ اهتمامي حول نقل الحدث، ووضعه في سياقه الصحيح، هذا كل شيء. من البديهي أن يكون القارئ على علم بكيفية سير الأمور.

أعود الآن للحديث عن السيد ستانجرسون، فعندما ابتاع هذا القصر منذ حوالي خمس عشرة سنة قبل وقوع الفاجعة التي ألمتنا وأقصّت مضاجعنا، لم يكن مأهولاً بالسكان منذ فترة طويلة من الوقت، ولم تنتصب بجواره سوى بعض المنازل الصغيرة التي تصطف على جانبي الطريق المؤدي إلى "كوربي"، وفندق صغير معني بتقديم ضيافة عابرة لسائقي العربات. وقع اختيار السيد ستانجرسون وابنته أخيراً على هذه المنطقة النائية شبه الخالية من الناس، والتي تعيد إلى الأذهان جوهر الحضارة المتأصلة الجذور لتكون مقرأ دائماً لهما.

كان السيد ستانجرسون آنذاك شخصاً مشهوراً وذائع الصيت، عاد للتو من أمريكا بعد أن أحدثت تجاربه دويماً هائلاً على مستوى العالم، أثار الكتاب الذي نشره في فيلادلفيا، والذي حمل عنوان "تفكك المادة بفعل التيار الكهربائي" لغطاً كبيراً بين ربوع المجتمع العلمي، ولقد كان السيد ستانجرسون مواطناً فرنسياً ذا أصول أمريكية، أجبره الخوض في بعض القضايا التي تعلّقت بميراثه على المكوث في الولايات المتحدة الأمريكية لعدة سنوات. وهناك استأنف عملاً هاماً كان قد شرع فيه حينما كان يقيم في فرنسا، ثم عاد أدراجه أخيراً لينجزه على خير وجه. وبعد أن جمع ثروة طائلة، فمن حسن حظه أن

القضاء أنصفه مسدلاً الستار على جميع دعاويه القضائية، إما بأحكام صبت في مصلحته أو من خلال المصالحات، كان بمقدوره لو أراد أن يحصد ملايين الدولارات، مستغلاً اثنين أو ثلاثة من اكتشافاته الكيميائية بشأن عمليات الصباغة، ولكنه كان دائم التردد في استغلال هذه الملكة الرائعة "الاختراع العلمي" التي منَّ بها الله عليه من أجل الربح الوفير، فقد تملكته قناعة راسخة بأن عبقريته ملك للجميع، وبالرغم من أنه لم يسع لإخفاء الشعور بالرضا الذي غمر قلبه إثر امتلاك هذه الثروة غير المتوقعة والتي هبطت عليه من السماء، والتي ستتيح له فرصة الانغماس في شغفه بالعلوم البحتة حتى تحين ساعته الأخيرة، إلا أن قلبه كان يتراقص فرحاً من أجل سبب آخر، كان يبعث البهجة والسرور كل يوم في نفسه، ألا وهو الأنسة ستانجرسون، فعندما عاد والدها من أمريكا من أجل شراء قصر "جلاندييه"، كانت تبلغ آنذاك عشرين عاماً، وبدت أكثر رقة وجمالاً مما يجول بخيال المرء، تحتفظ بالتأنق والغنج الباريسي اللذين ورثتهما عن أمها التي فارقت الحياة أثناء ولادتها، وبهاء ورونق الشباب الأمريكي المفعم بالنشاط والحيوية الموروث عن جدها لأبيها، السيد ويليام ستانجرسون، ذاك الرجل الذي كان يُعد أحد مواطني فلادلفيا، ووجد نفسه مضطراً للحصول على الجنسية الفرنسية من أجل تلبية بعض المتطلبات الأسرية. ولذلك، تزوج من امرأة فرنسية أصبحت فيما بعد والدته ستانجرسون؛ العالم ذائع الصيت.

كانت ماتيلد ستانجرسون، البالغة من العمر عشرين عاماً، شقراء مبهرة الجمال، ذات عينين زرقاوين، وبشرة صافية بيضاء كالحرير، تشع تألُقاً، وتتمتع بصحة موفورة. تعتبر ماتيلد إحدى أولئك الفتيات التي تتأصل جذورهن في قارتي أوروبا وأمريكا، وكانت تدين بالفضل والولاء لوالدها، رغم اعتصار قلبها لأمها كلما جالت في خاطرها فكرة الانفصال المتوقع المحتوم عنه؛ أي التفكير في أمر الزواج، عندما جاء بعض أصدقائهم لزيارتها في قصر "جلاندييه"، فلم يستطيعوا إخفاء دهشتهم العارمة، وانتابتهم حالة من الدهول، فكان لزاماً على البروفيسور أن يجيب على أسئلتهم الحائرة التي تُطرح بين الفينة والأخرى: "تلك هي رغبة ابنتي بأن نقيم في هذا القصر، ولا ينبغي أن ألبى طلبها، فهي التي اختارت هذا القصر". وعندما سُئِلَت الفتاة الجميلة بدورها، كانت تُجيب بنبرة ملؤها الهدوء قائلة:

– هل كان بمقدورنا أن نجد مكاناً هادئاً ومنعزلاً عن ضجيج البشر مثل هذا القصر الرائع؟

في تلك الأثناء، كانت ماتيلد بالفعل لا تألو جهداً في تقديم يد العون لوالدها، من أجل إنجاز مشروعه العلمي العملاق، ولم يحل في خاطر أي شخص أن شغفها بالعمل سيقودها إلى إحصاء الأبواب في وجوه كل الأشخاص الذين تقدموا لخطبتها خلال أكثر من خمسة عشر عاماً. وبالرغم من أنهما عاشا بمعزل عن الناس وبمناى عن أبصار الجميع، إلا أنهما كانا يظهران من حين لآخر أثناء الاحتفالات الرسمية، وفي أوقات معينة من العام، في صالونين أو ثلاثة صالونات فكرية في ضيافة أصدقائهما، حيث كانت شهرة البروفيسور وجمال ماتيلد الأخاذ يثيران ضجة منقطعة النظير. في بداية الأمر، لم يُبْطِ عدم اكتراث الفتاة من عزيمة الهائمين عشقاً ولم يُفْتَر هتتهم، ولكنهم بعد بضعة سنوات أصابهم الضجر والسأم، باستثناء شخص واحد ثابر متشبثاً بالأمل عازماً أن يحقق مأربه، فنال أخيراً عن جدارة هذا اللقب "الخطيب الأبدي"، وقد كان هذا العاشق الوهان يُدعى روبرت دارزاك. في تلك الأثناء، أدركت الأنسة ستانجرسون أنها لم تعد صغيرة، ولم تسع للتذرع بحجج أخرى واهية للهروب من الزواج، فقد تقدّم بها قطار العمر وبلغت خمسة وثلاثين عاماً.

وفجأة، قبل بضعة أسابيع من وقوع الأحداث التي شغلت حيزاً كبيراً من تفكيرنا، اندلعت الشائعات في باريس، لم تلتف الانتباه كثيراً في بداية الأمر نظراً لعدم إمكانية تصديقها أو الاقتناع بها، ثم أبدت الأنسة ستانجرسون أخيراً موافقتها على "تتويج الشعلة التي لا تحبوا للسيد روبرت دارزاك"، وكان لزاماً على السيد روبرت دارزاك وقتئذ ألا ينكر الأقاويل المتروكة بشأن الزواج المرتقب، حتى يدرك الجميع أن هناك بصيص من الحقيقة يشق أخيراً دياجير ظلام شائعة مذهلة لا يصدقها العقل. ذات يوم، وعقب مغادرة أكاديمية العلوم، أعلن السيد ستانجرسون أخيراً أن الاحتفال بزواج ابنته من السيد روبرت دارزاك سيُقام، وسط حضور الأقرباء والأصدقاء، في قصر "جلاندييه" فور الانتهاء من وضع اللمسات الأخيرة للتقرير الذي يلخص النتائج التي أسفرت عنها تجاربهما حول "تفكيك المادة واختلالها". ستستقر الأسرة الجديدة في قصر "جلاندييه"، وسيتعاون روبرت دارزاك مع صهره وزوجته من أجل إنجاز المشروع الذي كرسا حياتهما من أجله. لم يكن لدى المجتمع العلمي متسع من الوقت للتعافي من صدمة خبر الاعتداء على الأنسة ستانجرسون في ظل الظروف الغامضة

التي ذكرناها، والتي ربما سيُكشف عنها النقاب فور أن تطأ أقدامنا القصر.  
لم ينتابني أي تردّد بشأن تزويد القارىء بشتى التفاصيل الاستراتيجية التي زودتني بها علاقة العمل التي جمعتني بالسيد دارزك، والتي ستمنحني فرصة اجتياز عتبة الغرفة الصفراء.

## الفصل الخامس

### عبارة كسهم مسموم جراح تنطلق من فم روليتاي صوب السيد روبرت دارزاك

سرنا أنا وروليتاي لبضع دقائق بمحاذاة السور الذي يحد ممتلكات السيد ستانجرسون الشاسعة، ثم أبصرنا أخيراً بوابة مدخل القصر، في نفس اللحظة التي توجهت فيها أنظارنا نحو شخص شبه منحني نحو الأرض ومستغرق في إنجاز مهمة غير واضحة المعالم، لم يعرفنا أدنى انتباه، تارة نراه منحنيًا، ثم شبه منبسط على الأرض، وتارة أخرى يقف منتصبًا ويحدق بإمعان في السور، في بعض الأحيان، يخلق هذا الرجل غريب الطباع في باطن يده، ثم يخطو خطوات واسعة، ويشرع في الركض معنًا النظر مرة أخرى في باطن يده اليمني، أوقفني روليتاي بإي مائة من يده قائلاً:

- صه! فريدريك لارسان يمارس عمله ببراعة، ينبغي ألا نذكر صفوه!

كان جوزيف روليتاي من أكثر المعجبين بهذا الشرطي ذائع الصيت. لم تسنح لي الفرصة لأراه من قبل، ولكنني عرفته لأنه حقق في الآونة الأخيرة شهرة واسعة النطاق، من منا لا يتذكر جريمة سرقة السبائك الذهبية التي ارتكبت في فندق "دو لا مونييه"، حيث نجح هذا الشرطي المخضرم في إزالة الغموض الذي اكتنف القضية برمتها، عندما أعلن الجميع عجزهم عن فك طلاسم اللغز المحير، كما أبلى بلاء حسنًا، حينما تمكن من إلقاء القبض على عصابة سارقي خزائن أحد المصارف الشهيرة، والكثير من القضايا الأخرى التي أذاعت صيته وجعلت نجمه يسطع عاليًا في جميع أنحاء العالم. كانت شرطة لندن وبرلين، وشرطة أمريكا أيضًا، تلتبس منه في كثير من الأحيان، أن يمد لها يد العون فور أن تخور قوى المفتشين والمحققين الوطنيين، وتستنفد طاقتهم إثر تجرع مرارة الهزائم واحدة تلو الأخرى. كان من البديهي والمتوقع إثر تشابك خيوط لغز الغرفة الصفراء، أن يُرسل مدير الأمن برقية إلى مروسه عظيم الشأن وكبير القدر السيد "فريدريك لارسان"، أمرًا بإياه أن يعود بأقصى سرعة ممكنة، حتى لو لم يمهله الوقت لإنجاز المهمة السرية في لندن لجمع التحريات بشأن قضية الوثائق الشهيرة المسروقة. عاد فريدريك، والذي يُطلق عليه أقرانه في جهاز الشرطة اسم "فريد العظيم"، مهزولاً مقدراً حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، وموقناً بأن تفاقم الأمور تطلب دون أدنى شك تدخلاً حاسماً وفورياً من قبله، وهكذا شاء القدر أن نلتقي هذا الصباح رجل عظيم القدر منكب على عمله، وسرعان ما أدركنا فحوى إيماءاته وأفعاله المشوبة بالغموض.

تقدمنا بضع خطوات أخرى، أدركنا أن ما يحدق فيه فريدريك بإمعان في باطن يده اليمني لم يكن سوى ساعته، رأيناه منهمكاً في إحصاء الدقائق. ثم عاد خطوة إلى الوراء، وراح يستأنف السير مرة أخرى، ولم يعوقه عن استكمال سيره سوى بوابة القصر.. أخذ يمعن النظر في ساعته مرة أخرى، ويهز كتفيه مصدراً إيماءة تنم عن اليأس والإحباط. دفع بوابة القصر، وبعد أن وطئت قدماه الحديقة أغلق البوابة بإحكام بواسطة مفتاح، رفع نظريه عن الأرض، ثم راح يتطلع إلينا عبر القضبان الحديدية.. ركض روليتاي مهزولاً نحوه، فتبعته على الفور، ولاحظنا أن السيد فريدريك لارسان متمسراً في مكانه ومنتظراً إيانا. قال روليتاي مفصلاً عن اسمه ومبدئاً كل علامات الاحترام العميق والإعجاب المفرط بالمحقق الشهير: "سيد فريد، هل بمقدورك أن تخبرنا ما إذا كان السيد روبرت دارزاك في القصر أم أنه غادر؟ ها هو أحد أصدقائه المقربين، يعمل محامياً في باريس، ويرغب في تجاذب أطراف الحديث معه قليلاً".

قال فريد مصافحاً صديقي الذي أتاحت له الفرصة مراراً وتكراراً ليلتقي وجهاً لوجه مع هذا المحقق المخضرم: "لا أدري يا سيد روليتاي، لم أره اليوم".

أجاب روليتاي مشيراً إلى غرفة صغيرة مبنية بالطوب أوصدت جميع نوافذها وبابها الوحيد، ولا شك أنها تأوي الحارس وزوجته المخلصين المكلفين برعاية ومراقبة أملاك السيد ستانجرسون: "لا شك أن الحارسين سيجيبان على سؤالي".

- ليس بمقدورهما أن يجيبا على سؤالك يا سيد روليتاي.

- لماذا؟

- لأنه أُلقي القبض عليهما منذ نصف ساعة!

صاح روليتاي قائلاً: "ألقي القبض عليهما! هل تبين أنهما شريكا مرتكب الجريمة؟".

هز لارسان كتفيه استخفافاً، ثم استطرد بنبذة يكسوها التهكم والسخرية: "عندما نعجز عن إلقاء القبض على القاتل، تتجه

الأنظار مباشرة نحو المتواطئين".

- هل أمرت بإلقاء القبض عليهما يا سيد فريد؟  
- أوه! لا، لم أصدر أية أوامر بإلقاء القبض عليهما، أولاً لأنه تتملكني قناعة راسخة بأنهما أبرياء ولم يتورطا في هذه القضية، وثانياً لأن...

سأل روليتابي بنبرة متلهفة: "لأن ماذا يا سيدي؟".

أجاب لارسان وهو يهز رأسه: "لأن... لا شيء...".

قال روليتابي هامساً: "لأنه لا يوجد متواطئون في القضية".

انعقد لسان فريدريك عن الكلام لبرهة من الوقت، وظل يرمق المراسل الصحفي الشاب بنظرات متفحصة تجوب أنحاء جسده:

- إذن، يبدو أنه لديك فكرة عن القضية أيها الشاب، رغم أنك لم تعين مسرح الجريمة ولم تبصر شيئاً.

- سأفعل ذلك حتماً.

- تساورني الشكوك بشأن هذا الأمر، فالتعليمات صريحة وواضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار.

- يمكنني تحقيق غايتي المنشودة لو أنك سمحت لي برؤية السيد دارزاك، يمكنك فعل هذا إكراماً لنا، تربطني بك صداقة قديمة يا سيد فريد، وأنت تعرفني جيداً، هل تذكر المقال الرائع الذي كتبته عنك بشأن "سبائك الذهب"، أرجو أن تمنحني الفرصة لأتحدث قليلاً مع السيد دارزاك يا سيدي.

اعتلت وجه روليتابي في تلك الأثناء ملامح مثيرة للضحك، فقد أبدى رغبة جارفة لا تقاوم في عبور هذه العتبة التي شهدت أحداثاً مذهلة يكتنفها غموض هائل، فانفجرت ضحكاً فور رؤية قسمات وجهه المتوسلة وأنظاره الراجية، وافتر ثغر السيد لارسان عن ضحكة مكتومة أفسدت وقاره وهيبته ونبرته الجادة. ومع ذلك، أبصرناه من وراء القضبان الحديدية للبوابة، يضع المفتاح بحدوء بالغ في جيب معطفه، كان السيد لارسان رجلاً يبلغ من العمر خمسين عاماً تقريباً، اشتعل رأسه شيئاً، وهو ذو بشرة داكنة وصارم الملامح، وجبهة بارزة، حليق اللحية والشارب، ولديه عينان صغيرتان قليلاً ومستديرتان تحدقان باستمرار في وجوه الناس سابرة أغوارهم، ومنهالة عليهم بسيل من النظرات المتفحصة المدهوشة المثيرة للارتباك والقلق. كان أيضاً متوسط القامة وممشوق القوام، أنيق الملبس، وخفيف الروح، فناناً فريداً من نوعه، وهو يعرف ذلك يقيناً، ولذلك فهو دائم الفخر والزهو بنفسه. اتسمت نبرة كلامه دائماً بالتشكك والتفزز، وقادته مهنته المشوبة بالمخاطر إلى الخوض في غمار الجرائم والوقائع الوحشية التي كان من المتعذر عليه تفسيرها لو لم يكن يتمتع "بمشاعر متحجرة"، على حد قول روليتابي.

أدار لارسان رأسه فور سماع ضجيج منبعث من عربة تتقدم بسرعة للخروج من البوابة، إنها نفس العربة التي كانت تقل قاضي التحقيق وكتابه، والتي أبصرناها منتظرة إياها في محطة "إييناي".

قال فريدريك لارسان: "حسناً! ترغب في التحدث إلى السيد روبرت دارزاك، أليس كذلك؟ ها هو يا روليتابي!".

كانت العربة المكشوفة التي يجريها زوج من الخيل قد توقفت بالفعل أمام البوابة، والتمس دارزاك من السيد لارسان عندما لمحني بطرف عينه أن يفتح البوابة، وأخبره أنه في عجلة من أمره، وأنه يصارع الوقت من أجل الوصول إلى محطة "إييناي" لكي يلحق بالقطار الذي سينطلق قريباً إلى باريس، وبينما كان السيد لارسان منهمكاً في فتح البوابة، سألتني دارزاك عن الدافع وراء قدومي إلى قصر "جلاندييه" في ظل هذه الظروف المأساوية. عندئذ، أدركت أن وجهه غارقاً في شحوب صارخ، وملامح الألم والحزن ترسم على قسماته.

سألته على الفور قائلاً: "هل تحسنت حالة الأنسة ستانجرسون؟".

- نعم، نأمل أن تنجو بحياتها، علينا إنقاذها من بين براثن الموت.

لم يردف متفوهاً بهاتين الكلمتين المعتادتين: "وإلا سأموت من أجلها"، ولكن تملكننا شعور بأن نهاية الجملة التي نطق بها ترتعش حزناً بين شفتيه الذابلتين.

حينئذ تدخل روليتابي قائلاً: "سيدي، يبدو أنك في عجلة من أمرك، ولكن ينبغي أن أتحدث معك قليلاً، أود أن أطلعك على أمر بالغ الأهمية".

قاطعته لارسان مخاطباً روبرت دارزاك: "سأتوجه إلى القصر الآن، هل لديك مفتاح أم تود أن أترك لك مفتاحي؟".

- شكراً لك، لدي مفتاح، وسأتولى أمر إغلاق البوابة.

سار لارسان بخطى مسرعة نحو القصر الذي لاح على بعد بضعة مئات الأمتار ككتلة ضخمة مهيبة تنتصب بشموح وعزة. اكتست ملامح روبرت دارزاك عبوساً، وراح يصدر إيماءات تنم عن نفاد صبره. اغتنمت الفرصة وقدمت إليه روليتابي باعتباره صديقي الصدوق، ولكن فور أن علم بأن روليتابي يعمل كمحرر صحفي، راح يرمقني بسيل من نظرات التوبيخ، وقدم خالص اعتذاره لنا متذرعاً بحجة ضرورة الوصول إلى محطة "إيناي" في غضون عشرين دقيقة، ألقى علينا تحية الوداع منهالاً بالسوط على ظهر جواده، بيد أنني أصبت بدهشة وصدمة بالغتين حين أبصرت روليتابي، يُحكم قبضته القوية على لجام الجواد متفوهاً بعبارة مبهمة، بدت من وجهة نظري، عديمة المعنى:

- لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل.

وفور أن انطلقت هذه الكلمات المشوبة بالغموض من بين شفتي روليتابي، أبصرت روبرت دارزاك يتمايل مترنخاً ويسعي للسيطرة على توازن جسده، ازداد صُفرة، وتفاقم شحوبه، ثم أخذ يحدق مدعوراً في ملامح روليتابي.. ترجل في لمح البصر من عربته غارقاً في لجة عميقة من الاضطراب الذهني، ثم قال متلعثماً: "حسناً، هيا، هيا".

ثم أردف فجأة مستشيطاً غضباً: "هيا يا سيدي! فلتأتِ برفقتي!".

عاد روبرت أدراجه قاطعاً نفس الطريق المؤدي إلى القصر دون أن ينبس ببنت شفة، بينما تبعه روليتابي وهو لا يزال مُحكماً قبضته على لجام الجواد، قمت بتوجيهه بضع عبارات إلى السيد دارزاك، بيد أنه لم يجب بكلمة واحدة، ورحت أرمق روليتابي بنظرات متعجبة متسائلة، ولكنه لم يرني وكأن عينيه مغشيتان.

## الفصل السادس

### في أغوار غابة البلوط

صرنا قاب قوسين أو أدنى من القصر، حيث تتأخم البرج الرئيسي العتيق بناية من الطراز القوطي أُعيد تجديدها بالكامل في عهد الملك لويس الرابع عشر ويتوسطها المدخل الرئيسي. لم تبصر عيناى قط شيئاً بمثل هذا التفرد والإبداع، وربما بمثل هذا القبح والبشاعة، فقد بدت التصميم المعمارية غاية في الغرابة تمتاز فيها الطرز المتباينة. عندما دنونا من القصر، وقعت أنظارنا على اثنين من رجال الشرطة يتمشيان جيئة وذهاباً أمام باب صغير يتوسط الطابق الأرضي للبرج الرئيسي، وسرعان ما تبين لنا أن هذا الطابق، الذي كان فيما مضى سجنًا، ويُستغل الآن كغرفة تخزين، يحتجز بين جدران حارس العقار السيد بيرنييه وزوجته. ولجنا بصحبة السيد دارزاك باب المبنى العتيق المشيد على الطراز الحديث. لم يرفع روليتاي الذي ترك لجام الجواد وعهد بالعربة إلى أحد الخدام عينيه عن السيد دارزاك لحظة واحدة، وظل يتبعه بنظراته الحادة، فأدركت أن نظرات صديقي الثاقبة تكاد تخترق القفازين اللذين يرتديهما أستاذ جامعة السوربون. وعندما توجهنا إلى غرفة معيشة صغيرة مزودة بأثاث قديم، التفت دارزاك إلى روليتاي، وطرح عليه هذا السؤال بغتة:

- تكلم! ماذا تريد أن تقول؟

أجاب روليتاي بنفس النبرة المبالغية: "أرغب في مصافحتك".

ارتد دارزاك إلى الوراء مدهوشاً ومتسائلاً: "ماذا تقصد؟".

من الواضح أن السيد دارزاك أدرك فحوى ما فهمته للتو، فصديقي يشتهه بضلوعه في الاعتداء الوحشي، ولا شك أن آثار وبصمات اليدين الملطختين بالدماء على جدران الغرفة الصفراء ستبرز ما خفي، رحت أطلع إلى هذا الرجل متعجرف الملامح والذي زاد اضطرابه وتصاعدت ضربات قلبه حتى كادت أن تُسمع، وأرمقه بنظرات ثاقبة مترقبة. في نهاية المطاف، مد يده اليمنى، وأشار إليّ بيده قائلاً:

- سيدي، أنت الصديق الصدوق للسيد سانكلير الذي أسدى إليّ خدمة جليلة في إحدى القضايا بالغة الأهمية، ولا أرى سبباً يدفعني لرفض مصافحتك.

لم يمد روليتاي يده لكي يصافح السيد دارزاك، بل اختلق أكذوبة على الفور، وقال بجراحة لا مثيل لها:

- سيدي، لقد قضيت بضع سنوات في روسيا، وتأصلت في أعماقي جذور عادة عدم مصافحة الأشخاص الذين يرتدون قفازات.

جال في خاطري أن أستاذ جامعة السوربون سيطلق العنان لموجة من الغضب العارم، ولكنه على النقيض من ذلك، بذل بوضوح كل ما في وسعه ليتمالك أعصابه ويهدئ من روعه مستعيداً رباطة جأشه، ثم خلع قفازيه ماداً يديه الخاليتين من أية ندوب إلى الأمام، قائلاً:

- هل أنت راضٍ الآن؟

أجاب روليتاي ملتفتاً نحوي: "لا، صديقي العزيز سانكلير، ألتمس منك أن تتركنا لبضع لحظات فلدي سر أود أن أبوح به للسيد دارزاك".

ألقيت تحية الوداع منسحباً من ساحة القتال، ومدهوشاً مما أبصرته عيناى وما سمعته أذناى للتو، بيد أنني لم أدرك الدافع وراء تحلي السيد دارزاك بالهدوء، وعدم طرده لصديقي الوقح السفیه مغيب العقل، لأنه في تلك الأثناء اتقدت نيران غضبي، وألقيت اللوم على روليتاي جزاء ما ساوره من شكوك قادته إلى هذا المشهد المثير للذهول. رحت أتمشى جيئة وذهاباً لمدة عشرين دقيقة أمام القصر، باذلاً قصارى جهدي لربط الأحداث المتنوعة التي وقعت هذا الصباح ببعضها البعض، بيد أن جهودي لم تسفر عن أي تقدم واضح. ما الفكرة التي خطرت ببال روليتاي؟ هل جال في خاطره أن السيد دارزاك هو الفاعل الأصلي للجريمة؟ كيف تساوره الشكوك بشأن شخص كان من المقرر أن يصبح زوجاً للآنسة ستانجرسون في غضون أيام قليلة، ويلصق به تهمة التسلل خلسة إلى "الغرفة الصفراء" من أجل إنهاء حياة خطيبته؟ كما أن التحقيقات لم تسفر عن أية نتائج ملموسة تفسر كيفية خروج القاتل من الغرفة الصفراء، وطالما أن اللغز، الذي يبدو من

وجهة نظري غير قابل للحل لم تفك طلاسمه حتى الآن، فليس من حق أحد أن تساوره الشكوك في تورط أي شخص آخر. ثم ماذا تعني هذه العبارة الحمقاء التي لاتزال أصدائها ترن في أذني: "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل". أتحرق شوقاً لطرح هذا السؤال المحير على روليتاي.

في تلك الأثناء، غادر الصحفي الشاب القصر بصحبة السيد روبرت دارزاك، وقعت عيناى على شيء مباغت مثير للدهشة وللفضول، أصبح الخصمان صديقين صدوقين لا تفصل بينهما أي حواجز.

صاح روليتاي منادياً إياي: "سنتوجه إلى الغرفة الصفراء، هل ترغب في المجيء معنا؟ صديقي العزيز، أعلم أنني أبقىتك برفقتي طوال اليوم، لا تقلق، سنتناول وجبة الغداء في أحد الأماكن القريبة".

- سنتناولان طعام الغداء هنا في القصر بصحبتى أيها السيدان.

- شكراً لك يا سيدي، سنتناول الغداء في فندق "البرج".

- هذا الفندق سيء للغاية، ولن تجدا هناك ما يسركما.

تساءل روليتاي: "هل تظن ذلك؟ ربما سننعم هناك ببعض الراحة والهدوء، سوف أستأنف عملي الدؤوب عقب تناول الغداء، سأكتب مقالتي، وألتمس منك يا صديقي سانكلير أن تسدي إليّ معروفاً وتحملها إلى هيئة التحرير".

- وماذا عنك؟ ألن تغادر برفقتي؟

- لا، سوف أبيت هنا.

التفت إليّ روليتاي وأدركت أنه يتحدث بنبرة ملؤها الجدية، في حين أن السيد روبرت دارزاك لم يبدُ متفاجئاً على الإطلاق. مررنا أمام البرج الرئيسي، وعندئذ، تناهى إلى مسامعنا صوت أنين وتأوهات وصراخ مكتوم، فتساءل روليتاي:

- لماذا ألقى القبض على هؤلاء الناس؟

أجاب السيد دارزاك قائلاً: "هذا خطأي، أشرت بالأمس إلى قاضي التحقيق أنه من غير المنطقي أن يتناهى صوت دوي طلقات الرصاص إلى مسامع حارس العقار وزوجته، ثم يرتديا ملابسهما، ويجتازا المسافة الفاصلة بين حجرتهما الصغيرة والجناح خلال دقيقتين فقط. كان بالفعل قد مضى أكثر من دقيقتين بين اللحظة التي انطلق فيها دوي الرصاص والوقت الذي صادفا فيه الأب جاك في طريقهما".

أصدر روليتاي إيماءة تعرب عن تأييده لوجهة نظر السيد دارزاك، ثم قال: "بالطبع، يبدو هذا مريباً. وهل كانا حقاً مرتدين كامل ملابسهما؟

- أمر لا يصدقه العقل بالفعل، كان الحارس وزوجته مرتدين كامل ملابسهما، لم ينقص زيهما أي شيء، انتعلت المرأة قبقاباً، وارتدى الرجل حذاء مربوطاً، ولكنهما أوضحا أنهما خلدا إلى الفراش في الساعة التاسعة كعادة كل ليلة. فور وصول قاضي التحقيق صباحاً، أمر كتابه بأن يطلق من مسدس مماثل لذلك المستخدم في الجريمة (لأنه لم يرغب في لمس المسدس الأصلي باعتباره دليل إثبات) رصاصتين مدويتين بين جدران الغرفة الصفراء، بعد أن يغلق نافذتها ويوصد بابها بإحكام، في تلك الأثناء مكثت بصحبته في حجرة الحارس مرهفي السمع، ولم يتناهى إلى مسامعنا أي ضجيج، لم نسمع شيئاً على الإطلاق، من الواضح أن حارس القصر وزوجته اختلعا أكذوبة حمقاء، وظلاً بالفعل خارج حجرتهما على مقربة من الجناح، وهما على أهبة الاستعداد مترقبان بفارغ الصبر وقوع شيء ما. لا شك أنهما ليسا الفاعلين الأصليين للجريمة، ولكن هناك شبهة تواطؤ تحوم حولهما، أمر السيد دو ماركيه باحتجازهما فوراً.

قال روليتاي: "لو أنهما متواطئان حقاً في ارتكاب الجريمة، فكان من المفترض أنهما سيصلان محتلي الهندام وأشعني الشعر، أو بالأحرى كان من المتوقع أن يلوذا بالفرار، عندما يلقى بالمرء في أحضان العدالة، مع تكديس الأدلة المشيرة إلى التواطؤ، فهو لا يغدو شريكاً في الجريمة، ينتابني شعور بعدم وجود أية شبهة تواطؤ في هذه القضية".

- إذن، لماذا ظلاً خارج حجرتهما في منتصف الليل؟ كيف سيرران فعلتهما الحمقاء؟

- أظن أنه من مصلحتهما أن يلوذا بالصمت، فالمسألة بالغة الخطورة، حتى لو لم يثبت تواطؤهما في ارتكاب الجريمة، فإن ردة فعلهما تثار حولها العديد من التساؤلات المحيرة، وكل ما وقع أثناء هذه الليلة المشؤومة يحمل قدراً كبيراً من الأهمية.

اجتئزنا جسراً قديماً يمتد فوق نهر "دوف"، ثم توغلنا في أغوار جزء من الحديقة واسعة الأرجاء يُطلق عليه اسم "غابة البلوط"، لاحت أمامنا أشجار البلوط الشاهقة التي يبلغ عمرها أكثر من مائة عام، أذبل الخريف أوراقها، وبدت فروعها السوداء الممتدة والمتعرجة كشعر أشعث يبعث على الرعب والخوف، اعتادت الأنسة ستانجرسون أن تقضي صيفها في هذه البقعة الموحشة، فقد ارتأت أنّ المكان يغمر أعماقها ببهجة لا تضاهي، بيد أننا رأينا الآن في فصل الخريف باعث على الكآبة والحزن، فقد أوحلت الأرض المتشحة بالسواد جراء هطول الأمطار، وتناثرت فوقها الأوراق الذابلة كتناثر العبرات، واكتست جذوع الأشجار بالسواد، حتى أن السماء الممتدة فوق رؤوسنا والمبلدة بالغيوم الكثيفة بدت وكأنها في حالة حداد مثقلة، وفي نهاية هذا الملاذ المقفر الغارق في ظلام مريع، برزت جدران بيضاء اللون لجناح ذي تصميم متسم بالغرابة، حيث لم يبرز منه سوى باب صغير، يبدو وكأنه مدخل مقبرة، أو ضريح شاسع قابع في أعماق غابة مهجورة، تقدمنا بضع خطوات نحوه، أضحي من السهل تخمين أبعاده، فقد ضُمم هذا المبنى المطل على الحقول مترامية الأطراف ليُغمر بضوء كثيف أثناء فترة الظهيرة، وبعد أن يوصد بابه الصغير المطل على حديقة القصر بإحكام، يوفر للبروفيسور والأنسة ستانجرسون ملاذاً مثالياً يتيح لهما فرصة الاستغراق في عملهما الدؤوب وأحلامهما المحلقة في دروب السماء.

سأرسم مخططاً لهذا الجناح الذي لا يتألف سوى من طابق أرضي يمكن بلوغه عبر صعود بضع درجات، ويعلو سقفه مخزن غلال لا يشغل الآن أي حيز من تفكيرنا. أرغب في عرض مخطط الطابق الأرضي والذي رُسم بمهارة بواسطة روليتابي، لكي أضع النقاط على الحروف بكل بساطة أمام القارئ العزيز. عندما تقع أعين القراء على هذا الرسم المصغر، سيسعون جاهدين لكي يفكوا طلاس اللغز الخير، وبلوغ الحقيقة التي أدركها روليتابي فور أن وطأت قدماه الجناح للمرة الأولى، ولا شك أن هذا السؤال سيظل يتردد على ألسنتهم: "كيف تمكن القاتل من مغادرة الغرفة الصفراء عقب ارتكاب الجريمة المروعة؟".

- 1 - الغرفة الصفراء، بنافذتها الوحيدة المزودة بقضبان حديدية، وبابها الوحيد المؤدي إلى المختبر.
  - 2 - المختبر، ذو النافذتين الكبيرتين المزودتين بقضبان حديدية، والبابين اللذين يؤدي أحدهما إلى الردهة، والآخر يؤدي إلى الغرفة الصفراء.
  - 3 - الردهة، بنافذتها غير المزودة بقضبان حديدية، وباب مدخلها المطل على الحديقة.
  - 4 - المرحاض.
  - 5 - الدرج المؤدي إلى صومعة الغلال.
  - 6 - مدفأة الجناح الضخمة والفريدة من نوعها والتي يتم استغلالها في التجارب المعملية.
- وقبل أن نصعد الدرجات الثلاث التي تنتصب أمام باب مدخل الجناح، طرح روليتابي سؤالاً مباغتاً على مسامع السيد دارزاك:

- حسناً! ترى ماذا يكون الدافع وراء هذه الجريمة؟  
تنهد خطيب الأنسة ستانجرسون بحزن قائلاً: "هذا السؤال لايزال يؤرق فكري ويقض مضجعي، فأثار أظافر الأصابع والخدوش العميقة التي برزت على رقبة وصدر الأنسة تمنح انطباعاً بأن القاتل الحقير الذي نجح في التسلل إلى الغرفة الصفراء حاول أن يشن هجوماً عنيفاً، كما أن الطبيب الشرعي، الذي فحص هذه الآثار بالأمس، أكد أن الجريمة الشنعاء ارتكبت بنفس اليد التي لطخت الجدار بالدماء". ثم ابتسم مردفاً بنبرة تكسوها مرارة مبهمة: "يد تتسم بالضخامة ولا يسعها قفازي يا سيدي".

قاطعته قائلاً: "هل من الممكن أن تعود هذه الآثار التي عُثر عليها ولطخت الجدار بالدماء لأصابع الأنسة ستانجرسون، وربما أثناء استنادها إلى الجدار متأوهة من فرط الإعياء والألم طُبعت صورة مكبرة لبصمات يدها النازفة قبل أن تنهار ساقطة على الأرض؟".

أجاب دارزاك: "عندما وُجدت الأنسة ستانجرسون ملقاة على الأرض، لم نَر قطرة دماء واحدة تلتطخ يدها".  
- إذن، يُمكن الجزم بأن الأنسة ستانجرسون تزوّدت بمسدس الأب جاك، طالما أنها أصابت يد المجرم بجرح غائر، هل كانت

تخشى شيئاً ما، أو أن يقع عليها اعتداء من قبل شخص ما؟  
- من المحتمل.

- هل تساورك الشكوك بشأن شخص ما؟

أجاب السيد دارزاك ملتفتاً إلى روليتابي: "في الواقع، لا".

فالتفت إلى روليتابي قائلاً:

- صديقي العزيز، يجب أن تضع في اعتبارك أن التحقيقات أحرزت تقدماً ملموساً مقارنة بالأسرار الصغيرة التي باح لنا بها المتكلم المدعو السيد "دو ماركيه"، فبالإضافة إلى التيقن من نوع السلاح الذي لجأت الأنسة لاستخدامه من أجل الدفاع عن نفسها، أسفرت التحقيقات أيضاً عن تحديد نوع السلاح المستخدم في الهجوم الذي شُنَّ ضدها، أخبرني السيد دارزاك بأن السلاح هو عبارة عن "عظمة خروف"، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: لماذا أحاط السيد "دو ماركيه" هذه التفصيلة الصغيرة بمالة من الغموض؟ هل أخفى هذا السر لكيلا يصطدم رجال الشرطة بعراقيل تعطل مسيرة تحرياتهم الدؤوبة؟ بدون أدنى شك، ربما جال في خاطره أنه باستطاعتنا كشف النقاب عن هوية المجرم والتعرف عليه من بين فئة اللصوص الضالة التي تقطن باريس، نظراً لأنه لجأ لاستخدام أداة تفوق ما ابتكرته الطبيعة بشاعة ورعباً.

ثم أردف بنبرة ساخرة ملؤها الاحتقار والازدراء: "ومن ثم، هل بمقدور المرء أن يسير أغوار نفس قاضي التحقيق ويكشف ما يجول فيها؟".

تساءلت مدهوشاً: "إذن، فقد عُثر على عظمة الخروف بين جدران الغرفة الصفراء، أليس كذلك؟".

أجاب دارزاك: "نعم يا سيدي، عُثر عليها ملقاة على الأرض بجوار حافة الفراش، ولكن أرجو ألا تبوح بهذا السر لأي شخص مهما علا شأنه، أمرنا السيد "دو ماركيه" بأن نبقي الأمر سراً، ولكني أبديت احتجاجي. إنها عظمة خروف ضخمة، كانت مقدمتها لاتزال ملطخة بالدماء التي سألت من جرح الأنسة ستانجرسون الغائر، عظمة خروف يبدو أنه مرت عليها سنون غابرة، ومن المحتمل أنها استخدمت في ارتكاب العديد من الجرائم الأخرى، هذا وفقاً لاستنتاجات السيد دو ماركيه الذي أمر بنقل أداة الجريمة إلى أحد مختبرات البلدية من أجل فحصها وتحليلها. في الواقع، تساوره الشكوك في أن هذه العظمة طُبعت عليها أيضاً آثار ضاربة إلى الصهبة تشكل بقع دم جاف، وهذا دليل قاطع وجازم يثبت استخدامها في جرائم أخرى سابقة.

قال روليتابي: "عظمة خروف في يد سفاح ستغدو دون شك بمثابة سلاح فناك، سلاح أكثر نفعاً وضماناً من أية مطرقة ضخمة ثقيلة".

أجاب دارزاك محققن الملامح شاعراً بأن الألم يكاد يعتصر قلبه: "من الواضح أن عظمة الخروف أصابت السيدة ستانجرسون إصابة بالغة أيضاً في جبهتها، وأظن أنّ هذا الجرح كان سيودي بحياتها، لو لم يتراجع القاتل إلى الخلف مذعوراً إثر الرصاصة التي وُجِّهت إليه من مسدس الأنسة ستانجرسون. أُصيب المجرم بجرح في يده، ولذلك ترك عظمة الخروف على الفور وفراً هارباً. كانت السيد فاقدة الوعي تقريباً، كادت أن تحتنق، ولو أنها نجحت في إصابة القاتل بأول رصاصة أطلقت من مسدسها، لكان من المؤكد أنها ستتفادى الضربة التي وجهت إليها بعد ذلك بواسطة عظمة الخروف، ولكن لسوء الحظ، نجحت في إحكام إصبعها على الزناد بعد فوات الأوان، فانحرفت أول رصاصة، أطلقت بعيداً لتستقر في سقف الغرفة، بيد أن الرصاصة الثانية هي التي أصابت المجرم بجرح في يده".

ما أن أنهى دارزاك كلماته حتى راح يطرق باب الجناح طرْقاً ناعماً. فُتح الباب أخيراً، برز رجلٌ واقفاً على عتبة الباب منحنٍ ملامحه انطباعاً بأنه الأب جاك. يبدو أنه قد بلغ الستين عاماً، وكان ذا لحية بيضاء طويلة وشعر مشعل شيباً، تعلوه قبة مستديرة ناعمة ذات قمة مسطحة، يرتدي بذلة بنية مخملية قديمة وشبه بالية، وينتعل قبقاباً، عبرت قسماً وجهه عن الامتعاض والغضب والتجهم، بيد أن ملامحه تهللت سروراً فور رؤية السيد روبرت دارزاك. سأله مرشدنا بنبرة يكسوها الهدوء: "هل يوجد أحد في الجناح أيها الأب جاك؟".

- أُلقيت على عاتقي مسؤولية عدم السماح لأي شخص بالدخول يا سيد روبرت، ولكن لا شك أن هذه التعليمات

والأوامر لا تسري عليك. لماذا يجيئون بين الفينة والأخرى ويتسللون إلى الداخل؟ لقد رأى السادة رجال القضاء كل ما يمكن رؤيته وتفتح صوا كل شبر في الجناح، لقد أجروا كما هائلاً من التحقيقات والمحاضر والرسومات التخطيطية. قال روليتاي: "عذراً أيها الأب جاك، أود أن أطرح عليك سؤالاً صغيراً قبل أي شيء آخر".

- قل أيها الشاب، وأتمنى أن تكون لدي إجابة.

- هل رأيت سيدتك تغطي شعرها بعصابة في تلك الليلة التي وقع فيها الحادث المأساوي؟

- لا يا سيدي، لم تعتد سيدي تصفيف شعرها بمثل هذه الطريقة، ولم أرها قط تضع عصابة على شعرها، ولكنها كالعادة غطت رأسها بشعرها المجدول، ورفعته لثبرز جبهتها الجميلة ناصعة البياض كنور الشمس، والتي تبدو كجبهة طفل ولد للتو!

دمدم روليتاي بصوت خفيض، ثم شرع على الفور في تفحص باب المدخل الذي تبين أنه يغلق من تلقاء نفسه، وأدرك أنه من المستحيل أن يظل الباب مفتوحاً، ولا بد من اللجوء لاستخدام مفتاح من أجل دخول الجناح، وطأت أقدامنا أخيراً أرضية الردهة، والتي كانت عبارة عن غرفة صغيرة تغمرها الأضواء ومزودة بالبلاط الأحمر.

صاح روليتاي قائلاً: "آه! ها هي النافذة التي هرب من خلالها القاتل".

- هذه مجرد تخمينات وأقاويل مستبعدة يا سيدي! لو كان القاتل قد لاذ بالفرار عبر هذه النافذة لكان من البديهي أن نراه ونلقي القبض عليه! نحن لسنا بعميان! لا السيد ستانجرسون، ولا أنا ولا الحارس وزوجته اللذان زج بهما في السجن! لماذا لم يُلقي بي في السجن بسبب مسدسي؟

كان روليتاي قد فتح النافذة بالفعل، وراح يتفحص مصراعيها متسائلاً:

- هل كانت النافذة مغلقة وقت وقوع الجريمة؟

أجاب الأب جاك: "بواسطة مزلاج حديدي مغلق بإحكام من الداخل، ولدي يقين أن القاتل قد لاذ بالفرار عبر...".

- هل لحت أية آثار للدماء؟

- نعم، هنا، على الأحجار من الخارج، ولكن إلى من تعود آثار الدماء؟

- آه! يمكنني أن أرى آثار أقدام، هناك، على الطريق، لقد كانت الأرض مبللة بالماء، سأتحقق من هذا الأمر لاحقاً.

قاطع الأب جاك قائلاً: "هذه مجرد هراءات! لم يفر القاتل هارباً عبر هذه الطريق".

- حسناً، إذن من أية طريق لاذ المجرم بالفرار؟

- وكيف لي أن أعلم!

تفحص روليتاي شتى أرجاء الردهة، ثم ركع على ركبتيه ممعناً النظر في البلاط الملطخ بالبقع، فأردف الأب جاك مدهوشاً: "لن نعثر على أي شيء يا سيدي، فالبلاط متسخ للغاية، وطقته أقدام الكثيرين من رجال القضاء، وأصدروا إليّ تعليمات مشددة بالآلا أنظفه بالماء. يوم وقوع الجريمة، بذلت قصارى جهدي لكي يبدو نظيفاً ولا معاً، لو أن القاتل كان قد تسلل هارباً عبر هذه النافذة لكان من السهل أن نرى بوضوح آثار حذائه التي عثر عليها في غرفة الأنسة".

نحس روليتاي عن مكانه محققاً في وجه الأب جاك بعينين مدعورتين ومتسائلاً: "متى كانت آخر مرة نُظف فيها هذا البلاط؟".

- يوم وقوع الجريمة كما أخبرتك، في الساعة الخامسة والنصف تقريباً، بينما كانت الأنسة تنتزه برفقة والدها قبل تناول العشاء هنا في المختبر. في اليوم التالي، عندما جاء قاضي التحقيق، كان بمقدوره أن يكتشف بكل سهولة ممكنة آثار الأقدام على الأرض، كما لو كانت حبراً على ورق أبيض، يمكنني القول بأن أرضيتي المختبر والردهة كانتا لامعتين ونظيفتين مثل عملة معدنية صُكت للتو، ولم نجد أثراً لأية أقدام، ونظراً لأننا عثرنا أخيراً على آثار أقدام بالقرب من النافذة، من الخارج، فرمنا لجأ القاتل إلى عمل فتحة في سقف الغرفة الصفراء، ثم تسلل عبر مخزن الغلال، ونجح أخيراً في الهبوط، من الخارج، بواسطة حبل مروراً بنافذة الردهة. حسناً، ولكن حتى الآن لم نعثر على أية فتحات سواء في سقف الغرفة الصفراء، أو في سقف مخزن الغلال! ولذلك، كاد أن يجن جنوننا، سيظل اللغز الشيطاني مطموراً في غياهب المجهول.

ركع روليتاني فجأة على ركبتيه مقابل باب مرحاض صغير يقع في نهاية الردهة، ظل متحجراً ككتلة من الرصاص على الأرض ولم يتحرك قيد أنملة لمدة لا تقل عن دقيقة، وعندما نهض عن مكانه، سأله مدهوشاً: "ما الأمر؟".

- أوه! لا شيء على الإطلاق، مجرد بقعة دم صغيرة.

ثم التفت الصحفي الشاب إلى الأب جاك سائلاً إياه: "عندما شرعت في تنظيف المختبر والردهة وغسل أرضيتهما بالماء، هل كانت نافذة الردهة مفتوحة؟".

- نعم، كنت قد فتحتها للتو لأنني أشعلت بعض الفحم لسيدي بواسطة أواق الصحف على موقد المختبر، مما نجم عنه امتلاء الجناح بالدخان الكثيف، فركضت مهولاً وفتحت نوافذ المختبر الردهة لأسمح بمرور الهواء، ثم بعد فترة قصيرة من الوقت، أغلقت نافذتي المختبر، وتركت نافذة الردهة مفتوحة على مصراعيها، غادرت الجناح لبضع دقائق باحثاً عن ممسحة في القصر، ثم عدت أدراجي مسرعاً في حوالي الساعة الخامسة والنصف تقريباً كما أخبرتك، وشرعت في تنظيف البلاط ومسحه بالماء، وبعد أن أنجزت مهمتي على خير وجه، غادرت تاركاً نافذة الردهة مفتوحة كالعادة. في نهاية المطاف، عدت إلى الجناح، ولاحظت أن النافذة مغلقة بإحكام وأن السيد ستانجرسون والآنسة استأنفا بالفعل عملهما في المختبر.

- إذن، فمن المنطقي أن أحدهما هو من أغلق النافذة فور وصولهما، أليس كذلك؟

- بلا شك.

- ألم تسألهما؟

- لا، يا سيدي!

ألقى روليتاني والذي ظهر وكأنه لا يشعر بوجود أي شخص حوله نظرة متفحصة على المرحاض الصغير وبيت الدرج المؤدي إلى مخزن الغلال. أعترف بأني ظللت أراقب المشهد عن كثب مدهوشاً، كما أن السيد روبرت ظل مثبتاً عينيه على صديقي، ولم تبرح عنه لوهلة. في نهاية المطاف، أدركت أن عينيّ تتجهان رُغمًا عني نحو باب "الغرفة الصفراء" المغلق، أو بالأحرى نصف المحطم وغير الصالح للاستعمال. راح صديقي الشاب، الذي مارس مهمته بشكل منهجي ودون أن ينبس ببنت شفة، يتفحص الغرفة التي نقف بين جدرانها، فهي غرفة مترامية الأطراف يغمرها الضوء، ذات نافذتين كبيرتين مزودتين بقضبان حديدية وتطلان على الحقول الشاسعة، غرفة تشكل فرجة في قلب غابة شاسعة، وتنتصب بشموخ فوق الوادي بأكمله لتشرف على المدينة الكبيرة التي تلوح في الأفق في الأيام المشمسة، بيد أنها اليوم محاطة بالأرض الموحلة وتعلوها سماء ملبدة بغيوم، وقد تلطخت أرضيتها بالدماء.

أبصرت في أحد جوانب المختبر مدخنة ضخمة تصطف عليها بوتقات، وجوارها لاحظت عدة أفران مخصصة تُستخدم في إجراء التجارب الكيميائية.. رأيت أيضاً أفران تقطير، وأدوات مخبرية فيزيائية تنتشر في كل ركن، وطاولات محملة بالقوارير والأوراق والملفات والآلات الكهربائية والبطاريات، وجهازاً غريب الشكل أخبرني السيد روبرت بأن البروفيسور يجري عليه تجاربه "لإثبات تحلل وتفكك المادة بفعل تأثير ضوء الشمس"... إلخ. وبامتداد الجدران، اصطفت مجموعة من الخزائن الممتلئة بالمجاهر، وأجهزة التصوير، وكم هائل من البلور.. أخذ روليتاني يتفحص بعينه الأشياء الموضوعة فوق المدفأة، ويفتش بطرف إصبعه بين البوتقات.. وفجأة، انتصب واقفاً وممسكاً بقصاصة من الورق نصف محترقة.. اندفع نحونا مهولاً بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث بالقرب من النافذة، ثم قال: "سيد درزاك، أرجو أن تحتفظ بهذه الورقة".

انحنيت قليلاً لألقي نظرة على طرف الورقة نصف المحترقة التي أخذها السيد دارزاك من روليتاني للتو، ووقعت عيني على هذه الكلمات، كانت لا تزال واضحة ويسهل قراءتها: "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل". وفي الأسفل، دُون هذا التاريخ: "23 أكتوبر". لقد أثارت هذه الكلمات المثيرة للفرع والمغلفة بغموض مريب ذهولي مرتين متتاليتين منذ بزوغ أضواء الشمس، وأدركت هذه المرة أنها تركت نفس الانطباع المرعب لدى أستاذ جامعة السوربون الواقف بجواري، والذي لم تبدر عنه أية إيماءة سوى أنه أدار رأسه ملتفتاً نحو الأب جاك غير المنتبه إلينا والمنشغل بالتطلع عبر النافذة الأخرى.. حينئذ، أخرج خطيب الأنسة ستانجرسون حافظة نقوده مرتجفاً، ثم أدخل الورقة في أحد جيوبها متنهداً: "يا إلهي!".

في تلك الأثناء، صعد روليتابي فوق أحد الأفران، وأخذ يتفحص بإمعان المدخنة التي تضيق بشكل تدريجي وتتقلص كلما ارتفعت فوهتها إلى الأعلى، ثم تُغلق بالكامل على ارتفاع خمسين سنتيمتراً فوق رأسه بواسطة ألواح حديدية مثبتة بقوة في الطوب، وتسمح بمرور ثلاث أنابيب يبلغ قطر كل منها حوالي خمسة عشر سنتيمتراً.

قال الشاب وهو يقفز على أرضية الغرفة: "من المستحيل أن يتسلل أي شخص عبر مدفأة ضيقة محكمة الغلق، بالإضافة إلى أنه لو كُلت مهمته بالنجاح، فمن المتوقع أن هذه النفائات الحديدية كانت ستتبعثر حتماً على الأرضية... لا، أظن أننا لا نسير على الدرب الصحيح".

راح روليتابي يتفحص الأثاث ويفتح أبواب الخزانات الواحدة تلو الأخرى، ثم جاء دور النافذتين اللتين قيل عنهما أنه يتعذر اختراقهما.. حينما توجه روليتابي نحو النافذة الثانية، أبصر الأب جاك يتطلع عبرها مستغرقاً في حالة تأمل، فسأله قائلاً:

- حسناً، ما الذي يسترعي انتباهك هكذا أيها الأب جاك؟

- أطلع إلى رجل شرطة لا يكف عن الدوران حول البركة، يبدو أنه يتمتع بذلكاء منقطع النظير.

قال روليتابي وهو يهز رأسه حزناً وأسفاً: "ألا تعرف فردريك لارسان أيها الأب جاك؟ إنه الشخص الوحيد القادر على إحضار القاتل مكبلاً بالأغلال، ثق فيما أقوله لك". ثم أطلق تنهيدة عميقة.

أجابه الأب جاك بنبرة ملؤها العناد والإصرار: "ولكن قبل أن نلقي القبض عليه، ينبغي أولاً أن نعرف كيف نجح في الإفلات من بين أيدينا".

توجهناً أخيراً نحو باب الغرفة الصفراء، فقال روليتابي بنبرة تفخيمية تبجيلية، يمكن اعتبارها في أي ظرف آخر تهكمية أو هزلية: "هذا هو الباب الذي دار خلفه أمر لا يزال في طي المجهول!".

## الفصل السابع

### روليتاي يتفقد أسفل الفراش

دفع روليتاي باب الغرفة الصفراء، ثم تسمرت قدماه على العتبة، وقال بنبرة مؤثرة لم أدرك فحواها إلا في وقت لاحق: "أوه! أشتّم الآن أريج عطر السيدة ذات الرداء الأسود!"، بدت الغرفة غارقة في ظلام دامس، فأراد الأب جاك أن يفتح مصراعي النافذة، بيد أن روليتاي اعترضه متسائلاً:

- هل وقعت الجريمة عندما كانت الغرفة غارقة في مثل هذا الظلام الدامس؟
- لا أظن ذلك سيدي الشاب، فالآنسة حريصة على ترك المصباح مضاءً طوال الليل على طاولتها، وأنا من يتولى مسؤولية إشعاله بشكل يومي قبل أن تخلد إلى فراشها.. وبحلول المساء، أقوم بترتيب غرفتها، فخادمتها لا تأتي إلا في فترة الصباح. اعتادت الآنسة أن تعمل حتى وقت متأخر من الليل!
- أين تقع الطاولة الموضوع عليها المصباح الليلي؟ هل هي بالقرب من الفراش؟
- لا، ليست بالقرب من الفراش.
- هلا تكرمتم وأشعلت المصباح الليلي الآن؟
- لقد تحطم يا سيدي وانسكب الزيت فور سقوطه من فوق الطاولة. ولكن، بقي كل شيء آخر على حاله، ويمكنك أن ترى ذلك بنفسك بمجرد أن تُفتح النافذة.
- تريث قليلاً!

عاد روليتاي إلى المختبر، ثم أغلق مصاريع النافذتين وباب الردهة، وعندما حل ظلام دامس لا يبيح للعين قدرة الرؤية، أشعل عود ثقاب، ثم أعطاه للأب جاك ملتصقاً منه أن يتقدم للأمام حتى يبلغ منتصف الغرفة الصفراء، ويقف في نفس المكان الذي اعتاد أن يشعل فيه المصباح الليلي.. ولج الأب جاك، والذي ينتعل دائماً قبقاباً (اعتاد أن يتركه في الردهة)، باب الغرفة حاملاً عود الثقاب المشتعل، واستطعنا أن نميز بصعوبة بالغة إثر الإضاءة الباهتة المنبعثة من اللهب المحتضر، بعض الأثاث المقلوب على الأرض، وفراشاً يقبع في أحد أركان الغرفة، وفي مواجهتنا، إلى اليسار قليلاً، انعكس الضوء على مرآة معلقة في الجدار بالقرب من الفراش.. أدركنا كل شيء في لمح البصر.

قال روليتاي: "هذا يكفي! يمكنك الآن فتح مصراعي النافذة".

- ولكن يا سيدي، ألتمس منك أن تحرص كل الحرص على عدم ترك أي أثر لحذائك فوق أرضية الغرفة، ينبغي أن يظل كل شيء على حاله، هذه أوامر القاضي، وينبغي أن أخضع لها.

دفع الأب جاك مصراعي النافذة، فغزا ضوء النهار الشاحب الغرفة الصفراء الغارقة في فوضى عارمة.. غُطيت أرضيتها ببساط أصفر يتألف من قطعة واحدة تملأ الغرفة بأكملها تقريباً، ممتدة أسفل الفراش، ومنضدة الزينة... قُلبت المنضدة المستديرة التي توسطت الغرفة، وطاولة أخرى صغيرة، ومقعدين رأساً على عقب، ولم تشكل كل هذه الفوضى العارمة عائقاً يحول دون رؤية بقعة كبيرة من الدماء نجمت - كما أخبرنا الأب جاك - عن الجرح الغائر الذي أصيبت به الآنسة ستانجرسون في جبهتها، فضلاً عن ذلك، تناثرت قطرات صغيرة من الدماء في شتى الأنحاء، تتبعها آثار أقدام واضحة للعيان، آثار سوداء خلفها نعلي القاتل، تشير كل الأدلة إلى أن بقع الدماء المتناثرة نجمت بالفعل عن جرح المجرم الذي لطم الجدار بالدماء، يبدو أن هناك آثاراً أخرى ليده المملوطة بالدماء والمتسمة بالخشونة والغلظة، ولكنها أقل وضوحاً.

لم أستطع كبح جماح ارتجاعي، وصحت قائلاً:

- انظروا، آثار الدماء على الجدار، جال في مخيلة القاتل أنه يدفع الباب للخارج بكل ما أوتي من قوة لكي يفر هارباً، بينما في تلك الأثناء، لوثت أصابعه النازفة الجدار المستند إليه فور غرق الغرفة في ظلام دامس. ولذلك راح يضغط بقوة على الجدار الأصفر متوهماً أنه باب الغرفة وتاركاً دليل إدانته جلياً للعيان، تاركاً آثار يد تُعد هي الأكثر ضخامة في العالم، ويبدو أنها طويلة وتتسم بالقوة، وذات أصابع متقاربة الطول! أما بالنسبة لإصبع الإبهام، فيتضح أنه مبتور! ولو أننا تتبعنا آثار اليد المملوطة بالدماء، سنلاحظ على الفور أنه عقب استناده إلى الجدار، راحت تتلمسه باحثة عن الباب، فعثرت

عليه أخيراً، وأخذت تبحث عن المزلاج....  
قاطعته روليتابي بنبرة ساخرة: "لا شك، ولكن لا يمكننا رؤية أية آثار للدماء على القفل أو المزلاج".  
أجبتة برجاجة عقل أضرمت في قلبي شعوراً بالزهو والفخر: "ولماذا يسعى الجاني لإثبات ذلك؟ لا شك أنه لجأ لفتح القفل والمزلاج بواسطة يده اليسرى، ولا سيما بعد أن أصيبت اليد الأخرى بجرح خطير".  
صاح الأب جاك مرة أخرى: "لم يتمكن من فتح أي شيء! ربما لم تُصَب بمس من الجنون بعد، لقد كنا أربعة أشخاص حينما حُطم الباب!".

تابعت حديثي قائلاً: "يا لها من يد غريبة الشكل! لم أر مثلاً طيلة حياتي!"  
أجاب روليتابي بهدوء: "بل هي يد طبيعية للغاية، ولكن تشوهت ملامحها إثر انزلاقها على الجدار، قام القاتل بمسح يده الملطخة بالدماء في الجدار، ولكن من الواضح أن القاتل طويل القامة، ويبلغ طوله مئة وثمانين سنتيمتراً تقريباً".

- وكيف عرفت ذلك؟

- من ارتفاع آثار يد القاتل على الجدار.

راح صديقي يتفحص بإمعان أثر الرصاصة التي صوبت نحو الجدار، والتي شكلت ثقباً مستديراً، ثم قال: "صوبت الرصاصة بشكل مباشر من الأمام، وليس من الأعلى أو من الأسفل".

ثم لفت انتباهنا إلى أن أثر الرصاصة يقع أسفل بصمات الدماء التي لوّث الجدار ببضع سنتيمترات.. عاد روليتابي نحو الباب لكي يتفقد حالة القفل والمزلاج، ثم أوضح لنا أن الباب حُطم من الخارج، وأن القفل والمزلاج كانا لا يزال أحدهما مُغلَقاً والآخر مفتوحاً، شبه منزوعين، ومعلقين بالجدار بواسطة مسمار ملولب. ظل مراسل جريدة العصر يرمقهما بنظرات متفحصة، ثم أمسك بالباب، وأخذ يمعن النظر فيه من كلا الجانبين متيقناً من عدم إمكانية غلق أو فتح القفل من الخارج، عُثر على مفتاح في القفل من الداخل، واتضح جلياً أنه من المستحيل أن يُفتح القفل من الداخل بواسطة أي مفتاح آخر. في نهاية المطاف، وبعد التحقق من أن الباب لا يُغلق بشكل تلقائي، باختصار، مُصمم مثل جميع الأبواب الأخرى، ومزود بقفل ومزلاج متينين للغاية مُحكمي الغلق، راح يتفوه بهذه الكلمات: "الأمور تسير على ما يرام"، ثم جلس على الأرض، وخلع حذاءه وهو في عجلة من أمره.

عاد روليتابي أدراجه مندفعاً نحو الغرفة الصفراء ومرتدياً جواربه، ثم انحنى بهدوء وهو غارق في لجة من الصمت المريع، متفحصاً بإمعان شديد الأثاث المقلوب، فقال الأب جاك بنبرة مشوبة قليلاً بالتهكم والسخرية:

- أوه! يا صغيري الشاب، كم من مشقات ومتاعب سوف تتكبدنها دون جدوى!

بيد أن روليتابي رفع رأسه ملتفتاً نحوه وقائلاً: "بالصواب أجبت أيها الأب جاك، لم تكن سيدتك معصوبة الشعر في ليلة وقوع الجريمة، كم كنت أحمق كبيراً حينما راودتني الفكرة".

انزلق روليتابي بمرونة كتبوعان أسفل فراش الضحية، فواصل الأب جاك حديثه:

- هيا يا سيدي، أخبرني بأن القاتل ظل مختبئاً هنا أسفل الفراش كي يستريح قلبي! لقد بقي هنا متوارياً عن الأنظار حينما ولجت الغرفة في الساعة العاشرة من أجل إغلاق مصراعي النافذة وإشعال المصباح الليلي، حيث لم يغادر أحد منا - لا أنا ولا الأنسة ماتيلد ولا السيد السيد ستانجرسون - المختبر حتى لحظة وقوع الجريمة.

تناهى إلى مسامعنا صوت روليتابي منبعثاً من أسفل الفراش ومتسائلاً:

- سيد جاك، متى وصل البروفيسور وابنته إلى المختبر، ولم يغادراه ألبتة؟

- في الساعة السادسة.

استأنف روليتابي كلامه: "نعم، لقد اختبأ المجرم هنا، هذا أمر مؤكد لا يقبل الجدل، فضلاً عن أنه لا يوجد أي مكان آخر يمكن أن يتوارى فيه عن الأنظار، عندما اقتحمت باب هذه الغرفة عنوة، هل تفحصتم جيداً أسفل الفراش؟".

- على الفور يا سيدي، لقد أزعنا الفراش ودفعناه بعيداً، ثم أعدناه إلى موضعه الأصلي.

- وهل تفحصتم ما بين حشيات الفراش؟

- لم يكون فوق الفراش سوى حشية واحدة ترقد عليها الأنسة ماتيلد، وقد نقلها السيد ستانجرسون وحارس القصر إلى المختبر على الفور، ولم يكن أسفل الحشية سوى فراش حديدي من المستحيل أن يُخفي أي شخص أو أي شيء آخر. وأخيراً، يا سيدي، ينبغي ألا تنس أننا كنا أربعة أشخاص، ومن المنطقي ألا يتوارى أي شيء عن أبصارنا، فالغرفة صغيرة للغاية، ومزودة بالقليل من الأثاث، وكل أبواب الجناح موصدة بإحكام من خلفنا. يمكنني أن أجرو على الافتراض بأن القاتل ربما غادر الغرفة برفقة الحشية! ربما بين طياتها، جميع الافتراضات ممكنة ومقبولة إزاء لغز معقد ومحير يتسم بالغموض! ربما في غمرة انزعاجهما واضطراب قلبيهما، لم يلاحظا - السيد ستانجرسون وحارس العقار - أنهما يحملان وزناً مضاعفاً، ثم إن التحقيقات أثبتت أن الحارس متواطئ في ارتكاب الجريمة! أظن أن افتراضي يبدو جديراً بالاهتمام وينبغي أن يؤخذ في الحساب، فهو يمنح تفسيراً منطقياً وواضحاً للعديد من الأشياء، ولا سيما أن المختبر والردهة ظلا خاليين من آثار الأقدام التي عُثر عليها في الغرفة الصفراء، عندما نُقلت الأنسة إلى القصر، ظلت الحشية موضوعة بالقرب من نافذة المختبر، ولا شك أن المجرم اغتتم الفرصة ولاذ بالفرار.

قال روليتاي وهو يطلق العنان لضحكاته أسفل الفراش: "وماذا أيضاً؟ وماذا أيضاً؟".

أجبت بنبرة تنم عن استيائي: "لا تزال الحقيقة قابضة تحت نقاب المجهول، فكل الاستنتاجات تبدو ممكنة حتى الآن!". فتح الأب جاك فاه قائلاً: "نعم يا سيدي، لقد راودت هذه الفكرة أيضاً ذهن قاضي التحقيق، ولم يأل جهداً في تفحص حشية الفراش باهتمام بالغ. بيد أنه كان مضطراً لأن ينفجر ضحكاً ويهزأ من الفكرة التي خطرت في باله، مثلما يفعل صديقك الآن، لأن الحشية لا تحوي جيباً سحرياً! ثم لو أن هناك رجلاً توارى بالفعل داخل الحشية لكان من السهل أن نراه!".

كُنت مضطراً بدوري أن أنفجر ضحكاً وأسخر من نفسي مثلما فعل قاضي التحقيق. في الواقع، تملكني اليقين، في تلك اللحظة، بأنني لم أكف عن التفوه بأمور عبثية تتسم بالسخافة، ولكن من أين تنبع وإلام ستؤول عبثية هذه القضية المشوبة بالغموض؟ لا شك أن صديقي وحده هو القادر على تقديم إجابة شافية لهذا السؤال المحير. صاح المراسل الصحفي وهو لا يزال قابلاً أسفل الفراش قائلاً: "هل رُفع هذا البساط عن الأرض، وتفحصت الأرضية بإمعان أيها الأب جاك؟".

- نعم، حينما باءت جهودنا بالفشل الذريع، وتوارى القاتل عن الأنظار وكأنه فص ملح وذاب! تساءلنا عما إذا كان هناك فتحة في أرضية الغرفة.

- لا يوجد أية فتحات، هل يحتوي الجناح على قبو؟

- لا يا سيدي، لا يوجد قبو، ولكن هذا الأمر لم يعرقل جهودنا الحثيثة، ولم نكف عن البحث في شتى الأنحاء، حتى أن قاضي التحقيق، ولا سيما كاتبه، لم يألوا جهداً في تفحص الأرضية الخشبية لوحاً تلو الآخر، آخذين في الاعتبار احتمالية وجود قبو أسفل الغرفة.

عندئذ، انتصب الصحفي الشاب مرة أمامنا وعيناه تلمعان ببريق ساطع، وأنفه يختلج كأنه حيوان صغير عاد للتو من مرصد صيد. في الواقع، لم أستطع تخيله، في تلك الأثناء، إلا وحشاً خارقاً يتسم بمهارة لا تضاهي يسعى لتعقب فريسته وينصب لها كميناً.. راح يفتش بتمعن في زوايا الغرفة الأربع، يشتم كل شيء، ويدور كمنحلة مجنونة مثبّتاً عينيه على كل شيء، كل شيء بدا كبيراً وقعت عليه أعيننا، وحتى ما دق من الأشياء. كانت منضدة الزينة عبارة عن لوح خشبي بسيط يستند على أربعة أرجل، ومن المستحيل أن تغدو بمثابة مخبأ سري عابر، لم نجد خزانة ملابس، فقد آثرت الأنسة ستانجرسون أن تظل خزانة ملابسها في القصر.. أخذ روليتاي يتحسس بأصابعه الجدران المشيدة من الطوب السميك، ثم مرر أصابعه الرشيقة على سطح أوراق الجدران الصفراء حتى بلغ السقف ملاسماً إياه بأطراف أصابعه، عقب وقوفه فوق المقعد الموضوع أمام منضدة الزينة.. شرع روليتاي في تحريك المقعد المبتكر متنقلاً من مكان لآخر بين جدران الغرفة ومتفحصاً السقف باهتمام بالغ... وأخيراً، أنجز مهمته، ثم راح يدقق النظر في أثر الرصاصة الأخرى.. اقترب من نافذة الغرفة لكي يتفحص القضبان الحديدية والمصاريع مرة أخرى ويتحقق من متانتها وصلابتها، في نهاية المطاف، أطلق تنهيدة تنم عن الشعور

بالارتياح والرضا، وتفوه قائلاً: "لا زالت الأمور تسير على خير ما يرام".  
تأوه الأب جاك والألم يعتصر قلبه قائلاً: "حسناً، هل تعتقد أن سيدتي العزيزة المسكينة كانت حبيسة الغرفة عندما حاول القاتل أن ينهي حياتها؟ وعندما التمتست منا أن نهب لنجدتها؟".  
أجاب الصحفي الشاب وهو يسمح جبينه المتصبب عرقاً: "أقسم لك أن الغرفة الصفراء ظلت مغلقة بإحكام مثل خزانة مصنوعة من الفولاذ. في الواقع، يبدو أننا نقف أمام لغز مثير وغريب وغير قابل للتفسير".  
تمتم الأب جاك قائلاً: "لو أن الدعسوقة نفسها هي من اقترفت هذه الجريمة الحمقاء لما تمكنت من الفرار، أصغ بانتباه! هل يتناهى صوتها إلى مسامعك؟ اصمتوا جميعاً!".

ثم أشار إلينا بيده أن نلتزم الصمت، بينما كانت ذراعه الأخرى ممدودة نحو الجدار، باتجاه الغابة المجاورة، لابد أنه ينصت لسماع شيء لم نستطع سماعه، ثم أردف أخيراً قائلاً:  
- لقد رحلت، كان من الواجب أن أقتلها، إنها حشرة الدعسوقة التي تجلب الشؤم والأذى، تذهب للصلاة كل ليلة أمام مقبرة القديسة جينييف، ولم يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء خشية ألا تُلقي الأم "أجينو" تعويذتها السحرية.  
- كم يبلغ حجم حشرة الدعسوقة؟

صاح الأب جاك وهو يشير بيده إلى أثر اليد التي لطخت الجدار بالدماء: "مثل كلب صيد ضخّم الحجم تقريباً، تبدو كوحش كاسر كما أخبرتك، تساءلت مراراً وتكراراً عما إذا كانت هي التي نشبت محالبها المسنونة في عنق سيدتي المسكينة، ولكن حشرة الدعسوقة لا ترتدي نعالاً، ولا تطلق الرصاص من السلاح الناري، كما أنها لا تمتلك يدين ضخمتين.

صحت قائلاً: "حقاً، قبل أن أرى الغرفة الصفراء وأتفحص جدرانها بعيني، جال في خاطري أن قطة الأم "أجينو" هي من اقترفت هذه الجريمة".  
صاح روليتابي: "وأنا أيضاً!".  
سألته بنبرة متلهفة: "وأنت أيضاً؟".

- وأنا، لم تراودني هذه الفكرة مطلقاً، فمنذ أن قرأت بتمعن المقال المنشور في جريدة الصباح، أيقنت للوهلة الأولى أن الأمر لا يتعلق بمجرد حشرة! أقسم أن ما وقع بين جدران هذه الغرفة يُعد مأساة رهيبة ومروعة، ولكنك لم تمنحني أيها الأب جاك أية معلومة بشأن القبة والمنديل اللذين عثر عليهما؟  
أجاب الأب جاك دون أن يُيدي أي تردد: "بالطبع، فقد تحفظ القاضي عليهما على الفور".  
قال الصحفي الشاب بنبرة ملؤها الرصانة والهدوء: "لم أر المنديل أو القبة، ولكن بإمكانني أن أخبرك بأوصافهما".  
سعل الأب جاك، وبدا منزعجاً قليلاً، ثم قال: "يا لك من داهية!".

تابع روليتابي كلامه: "المنديل لونه أزرق وذو خطوط حمراء، أما القبة فهي قديمة ومستديرة وناعمة ذات قمة مسطحة مثل التي ترتديها أيها الأب جاك".  
- هذا صحيح، هل أنت ساحر أم عراف؟  
حاول الأب جاهداً أن يبتسم لكنه لم يستطع، فقد أصابته حالة من الصدمة والذهول: "كيف عرفت أن المنديل أزرق وبه خطوط حمراء؟".

- لأنه لو لم يكن أزرق وبه خطوط حمراء، لكان من المستحيل أن نعثر عليه.  
ويدون أن يُعير الأب جاك مزيداً من الاهتمام، أخرج صديقي من جيبه ورقة بيضاء، ثم فتح مقصاً، وانحنى نحو آثار الأقدام.. وضع ورقته على أثر إحدى الخطوات، وراح يقص الورقة البيضاء، وهكذا، أصبح لديه الآن نعل ورقي ذو أبعاد واضحة.. أعطاني روليتابي الورقة ملتصقاً مني ألا أضيعها، ثم استدار نحو النافذة مشيراً بإصبعه نحو فريدريك لارسان الذي لم يرح من جوار بركة الماء، وسائلاً الأب جاك عما إذا كان الشرطي المخضرم قد جاء ليتفحص بدوره الغرفة الصفراء.  
أجاب روبرت دارزاك الذي لم يتفوه بكلمة واحدة منذ أن أعطاه روليتابي قصاصة الورق نصف المحترقة، قائلاً: "لا، لم يأت،

فقد زعم أنه ليس بحاجة لرؤية أو تفحص الغرفة الصفراء، وأن القاتل غادر مسرح الجريمة بطريقة طبيعية للغاية، وسيكشف هذا المساء عن السر الخطير".

وفور أن تناهت هذه العبارات إلى مسامع روليتاي، اكتست ملامح وجهه بالشحوب، وتمتم قائلاً:  
- هل يمتلك فريدريك لارسان الحقيقة التي شرعت في استشعار ملامحها؟ فريدريك لارسان المتفرد من نوعه وأكثر المحققين المثيرين لإعجابي، ولكن القضية تفوق الآن إمكانات وتوقعات وجهود رجال الشرطة، تفوق ما اكتسبناه من خبرات طوال الحياة. الأمر يتعلق بالخضوع للمنطق القائم.

اندفع المراسل الصحفي إلى الخارج مستطار اللب، يمتلكه الدهول والحيرة من فكرة أن يفك رجل الشرطة ذائع الصيت فريدريك طلاس لغز الغرفة الصفراء. تمكنت من اللحاق به على عتبة باب مدخل الجناح، وسألته قائلاً: "حسناً، عليك أن تتحلى بالهدوء يا صديقي. هل أنت منزعج؟".

أجابني بتهيدة عميقة: "كلا، يكاد قلبي يذوب من فرط السعادة، فقد تجلت ملامح العديد من الأشياء التي لم تكن في الحسبان".

- أشياء معنوية أم مادية وملموسة؟

- بعضها معنوي، وشيء واحد مادي وملموس، انظر، هنا، على سبيل المثال.  
وسرعان ما أخرج من جيب صدرته قصاصة من الورق، لا شك أنه التقطها أثناء جولته الاستكشافية بتفحصه المتأن أسفل الفراش، تحمل بين طياتها شعرة لامرأة شقراء.

## الفصل الثامن

### قاضي التحقيق يستجوب الأنسة ستانجرسون

بعد مرور خمس دقائق، رأيت روليتابي منحنياً نحو الأرض ومستغراً في تفحص آثار الأقدام التي عُثر عليها في الحديقة، أمام نافذة الردهة من الخارج... عندئذ، أبصرنا رجلاً يهرول قادماً نحونا، فأدركنا أنه أحد خدام القصر، ثم رفع صوته منادياً السيد روبرت دارزاك الذي غادر الجناح للتو قائلاً:

- سيد روبرت، أود أن أخبرك بأن قاضي التحقيق شرع في استجواب الأنسة ستانجرسون. تذرع السيد روبرت على الفور بحجة واهية للتملص من بين أيدينا، ثم شرع في الركض باتجاه القصر، والخدام يتبعه. تفوهت قائلاً: "كم يبدو أمراً مثيراً وشيقاً أن ييوح شخص ينازع سكرات الموت بأسراره!". أجنبي صديقي: "إذن، هيا بنا إلى القصر، ينبغي ألا يفوتنا شيء".

توجهنا على الفور إلى القصر، بيد أن رجل شرطة كُلف بحراسة الردهة اعترض طريقنا ولم يسمح لنا بالوصول إلى درج الطابق الأول، لم يكن بأيدينا حيلة أخرى سوى أن ننتظر قليلاً. في تلك الأثناء، إليكم ما جرى في غرفة الضحية: لاحظ طبيب العائلة أن صحة الأنسة ستانجرسون قد تحسنت كثيراً، ولكنه خشي أن تتعرض لانتكاسة تؤدي بحياتها وتسد كل الطرق أمام استجوابها، فرأى أن واجبه يحتم عليه تحذير قاضي التحقيق، ولكن قاضي التحقيق لم يعبأ بكلامه وعزم على المضي قدماً، وبشكل عاجل، في إجراء استجواب قصير بحضور كل من الكاتب والطبيب والسيد ستانجرسون، ولقد تمكنت من الحصول في وقت لاحق على نص الاستجواب الذي أجراه القاضي بكل ما يحمل بين طياته من فجاجة يتسم بها الأسلوب القضائي:

سؤال: آنستي العزيزة، لا أود أن أجهدك بأسئلتني، ولكن هل تستطيعين أن تزوديني ببعض التفاصيل المحورية بشأن الهجوم الضاري الذي شنّه المجرم عليك؟

جواب: أشعر بتحسّن كبير يا سيدي، وسوف أخبرك حتماً بما أذكره وما أعرفه. عندما وطئت قدمي أرضية غرفتي، لم ألاحظ أي شيء غير مألوف أو لافت للانتباه.

سؤال: أستمحك عذراً يا آنستي، هل تسمحين لي بطرح بضع أسئلة، وسوف تمنحيني إجابة قصيرة، بدلاً من إجهاد نفسك بالجوء إلى سرد كافة التفاصيل الصغيرة.

الجواب: يُمكنك طرح ما شئت من أسئلة يا سيدي.

سؤال: كيف أمضيت نهار يوم وقوع الحادث المشؤوم؟ أود أن تمنحيني جواباً دقيقاً وواضحاً قدر الإمكان، أرجو ألا تستهيني بأية معلومة، ولو بدت غير مهمة بالنسبة لك.

الجواب: استيقظت متأخرة، في الساعة العاشرة تقريباً، لأنني عدت إلى القصر برفقة والدي في ساعة متأخرة من الليل، عقب حضور مأدبة العشاء وحفل الاستقبال اللذين أقامهما السيد رئيس الجمهورية، على شرف وفد من أكاديمية فيلادلفيا للعلوم، عندما غادرت غرفتي في الساعة العاشرة والنصف صباحاً، كان والدي يُجري بعض التجارب في المختبر، انهمكنا في العمل حتى الظهر، وتحولنا في حديقة القصر لمدة نصف ساعة، ثم تناولنا طعام الغداء في القصر، تمشينا كالعادة لمدة نصف ساعة، ثم توجهنا إلى المختبر بحلول الساعة الواحدة والنصف ظهراً. وهناك التقيت بخادمتي التي كانت قد حضرت للتو من أجل تنظيف غرفتي.. توجهت إلى "الغرفة الصفراء" لإعطاء بعض الأوامر المعتادة إلى خادمتي التي غادرت الجناح على الفور، ثم عدت إلى المختبر من أجل استئناف العمل مع والدي. وبحلول الساعة الخامسة، غادرنا الجناح من أجل التنزه قليلاً واحتساء الشاي.

سؤال: أثناء التأهب لمغادرة الجناح في الساعة الخامسة، هل دخلت غرفتك؟

جواب: لا يا سيدي، توجه والدي فقط إلى غرفتي لأنني التمسيت منه أن يجلب لي قبعتي.

سؤال: ألم تقع عينا السيد ستانجرسون على أي شيء مثير للشبهة أو غير مألوف؟

السيد ستانجرسون: لا يا سيدي، أوكد لك ذلك.

سؤال: استناداً إلى ما خلصت إليه نتائج التحقيق، يبدو من المؤكد أن الجاني لم يكن مختبئاً أسفل الفراش في تلك الأثناء، عندما غادرتما الجناح، ألم يكن باب الغرفة مقفلاً؟

الآنسة ستانجرسون: لم يكن هناك أي داعٍ لإغلاقه.

سؤال: كم من الوقت قضيتما خارج الجناح؟

جواب: ما يقارب الساعة.

سؤال: لا شك أن المجرم نجح في التسلل إلى داخل الجناح خلال هذه الفترة من الوقت، ولكن كيف بلغ غايته المنشودة؟ تبقى الإجابة غائبة عنا حتى الآن، لوحظت بالفعل آثار أقدام في حديقة القصر لشخص فر هارباً عبر نافذة الردهة، ولكن

لا نعلم حتى الآن من أين جاء. هل رأيت نافذة الردهة مفتوحة على مصراعيها عندما غادرت الجناح برفقة أبيك؟

جواب: لا أتذكر يا سيدي.

السيد ستانجرسون: أظن أن النافذة كانت موصدة بإحكام.

سؤال: وعندما عدتما أدراجكما، هل كانت لاتزال مغلقة يا آنستي؟

جواب: لم أعر هذا الأمر اهتماماً.

السيد ستانجرسون: كانت لاتزال موصدة بإحكام، يمكنني تذكر ذلك جيداً، لأنه حينما عدت أدراجي، صحت قائلاً: "كان ينبغي على الأب جاك أن يفتح النافذة أثناء غيابنا".

سؤال: يا للعجب! أرجو أن تعتصر ذهنك وذاكرتك يا سيد ستانجرسون، تنامي إلى علمي أن الأب جاك قام بفتح النافذة أثناء غيابك وقبل أن تغادر المكان. آنسة ستانجرسون، إذن، عدت إلى المختبر في تمام السادسة من أجل استئناف عملك، أليس كذلك؟

جواب: نعم يا سيدي.

سؤال: ولم تغادري المختبر منذ لحظة وصولك وحتى ولوج غرفتك لكي تخلدي إلى النوم، أليس كذلك؟

السيد ستانجرسون: لم تغادر المختبر مطلقاً يا سيدي. استغرقنا في عمل دؤوب لم يمهلنا أن نستريح دقيقة واحدة، حتى أننا لم نضع أي شيء آخر في حسابنا.

سؤال: هل تناولتما طعام العشاء في المختبر؟

جواب: نعم، نظراً لأنهما كنا في العمل.

سؤال: هل اعتدتما تناول العشاء بين جدران المختبر؟

جواب: من النادر أن نتناول العشاء هناك.

سؤال: هل تظنان أن الجاني كان على علم بأنكما تنويان تناول عشاء تلك الليلة في المختبر؟

السيد ستانجرسون: يا إلهي! لا أعتقد ذلك يا سيدي، عندما عدنا أدراجنا، في حوالي الساعة السادسة مساءً، إلى الجناح، قررت فجأة أن نتناول العشاء معاً في المختبر. في تلك الأثناء، جاءني الحارس وظل يرفقتي بضع دقائق، ثم التمس مني أن أرافقه في جولة عاجلة في أنحاء الغابة التي عزم أن أقلم أشجارها، كانت قواي خائرة، فلم أستطع استكمال المهمة وأرجأتها إلى اليوم التالي، ثم التمس من حارس القصر أن يبلغ رئيس الخدام بأننا سنتناول العشاء في المختبر.. غادر الحارس منصاعاً لأوامري، ثم لحقت بابنتي التي أعطيتها مفتاح الجناح، والذي عثرت عليه في الباب من الخارج.

سؤال: آنستي العزيزة، متى غادرت المختبر، وولجت غرفتك بينما كان والدك منهمكاً في العمل؟

جواب: في منتصف الليل.

سؤال: ولج الأب جاك "الغرفة الصفراء" في هذه الليلة، أليس كذلك؟

جواب: نعم، من أجل إغلاق مصراعي النافذة، وإشعال المصباح الليلي، مثلما اعتاد أن يفعل كل مساء.

سؤال: ألم يلاحظ أي شيء غير مألوف أو مثير للشبهة؟

جواب: لو أن الشكوك ساورتها بشأن شيء ما، لكان من البديهي أنه سيلفت أنظارنا على الفور، الأب جاك رجل طيب

ويكّن لي حباً جمّاً.

سؤال: سيد ستانجرسون، هل أنت واثق من أن الأب جاك لم يبرح المختبر، وظل برفقتك طوال الوقت؟ السيد ستانجرسون: واثق تمام الثقة، ولا ينتابني أي شك بشأن هذا الأمر.

سؤال: آنستي العزيزة، عندما ولجت غرفتك، هل أغلقت الباب بالمفتاح والمزلاج على الفور؟ يبدو أنك معتادة على اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة، علماً بأن والدك وخادمك الأمين كانا لا يزالان جالسين بين جدران المختبر، هل كنت تحشين من وقوع أمر ما؟

جواب: كان من المتوقع أن والدي سيعود في وقت متأخر إلى القصر، كما أن الأب جاك كان سيخلد إلى الفراش دون أدنى شك. في الواقع، انتابني الخوف من وقوع شيء ما.

سؤال: انتابك الخوف من وقوع شيء ما لدرجة أنك تجرأت على أخذ مسدس الأب جاك دون أن تخبريه؟

جواب: هذا صحيح يا سيدي، لم أرغب بأي شكل من الأشكال في بث الذعر والقلق في قلب أحد من المحيطين بي، ولا سيما أن مخاوفي ربما لا تعدو كونها شطحات طفولية.

سؤال: وما الشيء الذي أثار مخاوفك وفزعك يا آنستي؟

جواب: لا أدري، كيف أفسر لك ذلك، ولكن لعدة ليالٍ متتالية، تملكني شعوراً بأن جلبة مبهمة وغير واضحة المعالم تنبعث من الحديقة، ومن خارج الأسوار، ومن حول الجناح في بعض الأحيان، يتناهى إلى مسامعي صوت وقع أقدام، وطفقة فروع أشجار، في الليلة التي سبقت الاعتداء الذي وقع عليّ نذ النوم عن أجفاني، ولم أخلد إلى النوم إلا بحلول الساعة الثالثة صباحاً، فعندما عدنا من القصر الرئاسي، بقيت لبضع لحظات أتطلع من نافذتي، وراودني شعور بأنني أبصرت ظلال أشخاص.

- كم يبلغ عددهم؟

- ظلال يدوران حول البركة، ثم تواريا عن الأنظار فور أن خفت ضوء القمر، في هذا الوقت من كل عام، اعتدت المكوث بين جدران شقتي الواقعة في القصر من أجل استئناف عاداتي التي أمارسها طوال شهر الشتاء، ولكنني هذا العام، قررت ألا أبرح الجناح حتى ينتهي والدي من إعداد ملخص لتجاربه حول "انحلال المادة" ويسلمه إلى أكاديمية العلوم، تملكنتني رغبة عارمة في عدم تعطيل مسيرة المشروع الضخم الذي كان من المقرر الانتهاء منه في غضون أيام قليلة، جراء بعض التغيرات التي ربما ستطرأ على عاداتنا اليومية، ولذلك، لم أرغب في البوح لوالدي بمخاوفي الطفولية التي يمكن اعتبارها واهية، وأخفيها أيضاً عن الأب جاك الذي لن يتمكن من كتم السر بين ضلوعه. على أية حال، عندما لاحظت أن الأب جاك يضع مسدساً في درج منضدة تقع بجوار فراشه، انتهزت فرصة غيابه طوال النهار، وصعدت الدرج في لمح البصر، ثم ولجت غرفته وجلبت سلاحه إلى المخبأ هناك.

سؤال: هل لديك أعداء؟

جواب: ليس لدي أي أعداء.

سؤال: ولكن على حد علمي يا آنستي أن الاحتياطات الاستثنائية طرأت بشكل سريع ومفاجيء، أليس كذلك؟

جواب: لا يا سيدي، لقد أخبرتك أن القلق كاد أن ينهش قلبي وينخر عظامي لمدة ليلتين متتاليتين.

السيد ستانجرسون: كان من الواجب أن تبوح لي بكل مخاوفك يا ابنتي العزيزة، لقد ارتكبت خطأ جسيماً لا يغتفر. كان من الممكن أن نتجنب وقوع هذه الكارثة!

سؤال: هل كان باب الغرفة الصفراء موصداً من الداخل عندما خلدت إلى الفراش يا آنستي؟

جواب: نعم، كان التعب والإرهاق قد أضنياني، ولذلك استغرقت في سبات عميق على الفور.

سؤال: هل كان المصباح الليلي لا يزال مضاءً؟

جواب: نعم، ولكن كان ينبعث منه ضوء خافت للغاية.

سؤال: إذن يا آنستي، هل يمكنك أن تقصي على مسامعي تفاصيل الهجوم؟

جواب: لا أدري ما إذا كنت قد استغرقت في النوم لفترة طويلة أم لا، لكنني استيقظت مذعورة فجأة وصحت بأعلى صوتي.

السيد ستانجرسون: نعم، تناهى إلى مسامعي صوت صرخة مدوية، صرخة ألم مرعبة، أمسكوا بالقاتل! لاتزال أصداؤها تطن في أذني.

سؤال: إذن، أطلقت صرخة مدوية يا آنستي، أليس كذلك؟

جواب: أبصرت رجلاً في غرفتي، اندفع نحوي كسهم خرج من قوسه، ثم أحكم قبضته على رقبتي محاولاً أن يخنق أنفاسي، كادت أنفاسي أن تحتنق بالفعل، ولكن تمكنت فجأة من الإمساك بالمسدس الموضوع في درج طاولتي نصف المفتوح، متأهبة لإطلاق النار.. في تلك الأثناء رفعتي المجرم عن الفراش بعنف، وراح يلوح أمامي بشيء ضخم يبدو كمطرقة كمن يلوح بمندبل الوداع، ولكنني تمكنت من إطلاق النار عليه. شعرت على الفور بضربة قوية موجعة تلقيتها على رأسي. حدث هذا الأمر في لمح البصر يا سيدي القاضي، ولم أشعر بشيء بعد ذلك.

سؤال: لا شيء.. أليس لديك أية فكرة عن كيفية هروب المجرم من غرفتك؟

جواب: ليس لدي أدنى فكرة، سقطت مغشياً عليّ، لا يدرك المرء ما يدور حوله عندما يكون على شفا حفرة من الموت!

سؤال: هل كان الجاني طويلاً أم قصيراً؟

جواب: لم أبصر سوى ظله الذي كان يبدو ضخماً ومرعباً.

سؤال: ألا يمكنك أن تعطينا أية أوصاف له؟

جواب: سيدي، ليس لدي شيء لكي أخفيه عنك، انقض عليّ شخص ما، فأطلقت الرصاص عليه، هذا كل شيء. وعندئذ، انتهى القاضي من استجواب الأنسة ستانجرسون.. كان روليتابي ينتظر بفارغ الصبر قدوم روبرت دارزاك الذي ظهر خلال بضع دقائق، والذي ظل ماكثاً في غرفة تقع بجوار غرفة الأنسة ستانجرسون منصتاً بإصغاء للاستجواب، ثم جاء مهرولاً ليخبر صديقي بأدق التفاصيل بنبرة مدعنة كانت لاتزال تثير ذهولي، نحج روليتابي في إعادة صياغة الأسئلة والأجوبة بحرفية لا تضاهي بفضل الملاحظات السريعة التي دونها بالقلم الرصاص.

في الواقع، تملكنتي دهشة عارمة، فقد بدا السيد دارزاك وكأنه وكيل أعمال صديقي الشاب، وكان يتصرف بأدب جم وينصاع لأوامره بشكل يدعو للاستغراب، والأدهى من ذلك بدا روبرت وكأنه "يعمل لصالحه". أثارت مسألة "النافذة المغلقة" صدمة وذهول كل من المراسل الصحفي وقاضي التحقيق. فضلاً عن ذلك، طلب روليتابي من السيد دارزاك أن يكرر على مسامعه ما أخبره به آنفاً بشأن الجدول اليومي لكل من الأنسة ستانجرسون ووالدها قبل وقوع المأساة، تمحور جل تفكير روليتابي حول القرار المبالغت الذي اتخذته البروفيسور بشأن تناول طعام العشاء في المختبر، هل كان الحارس على علم بهذا القرار المفاجيء؟ وما الذي يخفيه بين ضلوعه من أسرار؟ عندما لاذ السيد دارزاك بصمت مبهم، تفوهت قائلاً: "ها هو استجواب آخر ربما يزيد قضيتنا تشابكاً وتعقيداً".

أجاب السيد دارزاك بنبرة مدعنة: "وربما سِيرْجَعْنَا إِلَى نقطة الصفر".

قال روليتابي شارد الفكر: "بل سيفك خيوطها المعقدة والمتشابكة مع بعضها البعض".

## الفصل التاسع

### مراسل صحفي ورجل شرطة

عدنا أدراجنا نحن الثلاثة منطلقين نحو الجناح، فأوقفنا المراسل الشاب على بعد حوالي مئة متر من المبنى فجأة مشيراً بإصبعه إلى غيضة صغيرة تقع إلى اليمين، قائلاً:

- تسلل المجرم من هنا متجهاً نحو الجناح.

ونظراً لوجود غياض أخرى صغيرة تتخلل أشجار البلوط الشاهقة، وتتشابه ملامحها مع بعضها البعض، تساءلت مدهوشاً لماذا لجأ المجرم لاختيار هذه البقعة من الأرض دون غيرها، فأجابني روليتاني مشيراً بإصبعه نحو ممر ضيق للغاية يقع بجوار الغيضة ويؤدي إلى باب الجناح، ثم فتح فاه قائلاً:

- كما ترون، هذا الممر الضيق مفروش بالحصى، وطالما أنه يتعذر علينا اقتفاء أثر قدمي الجاني على الأرض الرخوة، فلا شك أنه تسلل عبره لكي يبلغ باب الجناح مقترفاً جريمة الشنعاء. من المنطقي أن القاتل لا يمتلك جناحين يطير بهما، ولكنه سار فوق الأرض المفروشة بالحصى المتدرج والمتبعثر أسفل نعليه، ولذلك لم تنطبع عليها آثار قدميه. في الواقع، تبعثر الحصى وتدرج أيضاً بفعل أقدام العديد من الأشخاص الآخرين القادمين والذاهبين الذين اتخذوا هذا المسار الطبيعي، والذي يربط بشكل مباشر بين القصر والجناح. أما فيما يتعلق بالغيضة الصغيرة، والتي تتألف من أشجار ونباتات لا تدبل بحلول فصل الشتاء، كأشجار الغار والمغزل، فقد وفرت للمجرم ملاذاً آمناً، وراح يتربص للحظة المواتية لينطلق مسرعاً كالبرق نحو الجناح، ظل الرجل محتبئاً وراء الأشجار المتلاحمة منتظراً مغادرة الأنسة ستانجرسون وأبيها، والأب جاك، لقد تناثر الحصى حتى بلغ نافذة الردهة تقريباً. وفقاً لآثار الأقدام التي وجدت بمحاذاة الجدار، وآثار الأقدام التي أبصرناها للتو، يتضح جلياً أن المجرم ظل رابضاً كوحش كاسر متأهباً لأن يقفز خطوة واحدة إلى الأمام، حتى يغدو في مواجهة غرفة الدهليز المفتوحة على مصراعيها بواسطة الأب جاك، وبعد أن كُلت مهمته بالنجاح، تسلق النافذة، متسللاً إلى داخل الردهة.

قلت بنبرة ملؤها الهدوء: "قد يبدو ما تقوله صحيحاً!".

صاح روليتاني بغتة، بعد أن تملكته ثورة من الغضب العارم: "ماذا تقصد بعبارة قد يبدو ما تقوله صحيحاً؟!".

توسلت إليه ألا يستشيط غضباً، بيد أنه انفجر في وجهي كبركان نائر، وصم أذنيه عن سماعي، ثم أوضح أن أكثر ما يثير دهشته هو أن بعض الأشخاص (وأنا أحدهم بالطبع) تساورهم الشكوك الحذرة إزاء أبسط المسائل غير المشوبة بالتعقيد، ولا يجرؤون على قول: "هذا يكون..."، أو "هذا لا يكون..."، حيث تفودهم عبقريتهم الفذة إلى استخلاص نفس النتائج والأهداف التي كان من السهل بلوغها لو أن الله من عليهم بقليل من المادة الرمادية التي تملأ جماجمهم والتي تحدد مستوى ذكائهم، عندما أبدت استيائي وامتعاضي، أحكم قبضته على ذراعي مخبراً إياي بأنه لم يقصد أية إهانة، وأن ما تفوه به من عبارات لم يكن موجهاً لي، فهو يكتن لي احتراماً وتقديراً كبيراً.

أردف روليتاني قائلاً: "أخيراً وليس آخراً! في بعض الأحيان، نرنكب خطأ جسيماً حينما لا نغوص في بحور أفكارنا ونتخذ قراراتنا بقناعة تامة، بالرغم من أنه بمقدورنا فعل ذلك! لو لم تراودني بعض الأفكار، مثلما فعلت بشأن تبعثر الحصى، لجال في مخيلتي أن المجرم بلغ نافذة الردهة على متن منطاد طائر. عزيزي، لا تقل عن أي شيء قد يبدو صحيحاً، طالما أنه يتعذر عليك التفوه بحلول أخرى، وليس بيدك أية حيلة، نحن الآن على دراية بالمخطط الجهنمي الذي رسمه القاتل ليتسلل عبر النافذة، ونحن أيضاً على علم بوقت إنجاز المهمة المحفوفة بالمخاطر، نجح المجرم في ولوج الجناح فور أن غادره السيد ستانجرسون والأنسة بحلول الساعة الخامسة للتنزه قليلاً، واحتساء الشاي، من الواضح أن المجرم لم يكن محتبئاً في الغرفة الصفراء أو متوارياً أسفل الفراش حينما جاءت الخادمة لتنظف وترتب الغرفة بعد أن عاد البروفيسور وابنته في تمام الساعة الواحدة والنصف ظهراً، ما لم يكن هناك تواطؤ من قبل هذه الخادمة، تحذوني الرغبة في سماع وجهة نظرك يا سيد دارزاك؟

هز السيد دارزاك رأسه مصرحاً بأن خادمة السيدة ستانجرسون تتسم بالشرف والأمانة والإخلاص والتفاني في العمل، ثم أردف قائلاً:

- كما أن السيد ستانجرسون وُلج بدوره الغرفة الصفراء في الساعة الخامسة ليُجلب قبعة الأنسة!  
قال روليتاي: "إذن، في تلك الأثناء، كان المجرم مختبئاً بين جدران الغرفة!".  
قلت مذهوشاً: "أوافق الرأي، نجح القاتل في دخول الغرفة في اللحظة التي أشرت إليها، ولكن لماذا أقدم على إغلاق النافذة؟ من المفترض أن تصرفاً أحمق وطائشاً كهذا سيثير ريبة الشخص الذي فتح النافذة وسيلفت الانتباه.  
أجاب المراسل الشاب بهدوء: "من المتحمل أنه لم يسع لإغلاق النافذة فور دخول الجناح، ولو أنه أوصدها بإحكام على الفور، فربما لجأ لهذه الخطوة واضعاً في حسابه أشجار البلوط الثلاث المنتصبة بجوار بعضها هناك، وانعطاف الممر الضيق المفروش بالحصى، والواقع على بعد خمسة وعشرين متراً من الجناح".  
سأله السيد دارزاك، الذي ظل يتبعنا خطوة بخطوة، مصغياً بإمعان واهتمام بالغ لكل كلمة ينطق بها روليتاي: "ماذا تقصد؟".

- سأوضح لك كل شيء لاحقاً يا سيدي، عندما يحين الوقت المناسب، بالرغم من أنني منذ اندلاع هذه القضية المثيرة لم أتفوه بأي هراء، ولم أصغ سوى لفرضيات لها ما يبررها.  
- وما فرضيتك؟

- لن أفصح عن تفاصيلها طالما أنها لم تغد حقيقة غير قابلة للجدل والتأويل.  
- من المرجح أنه لديك فكرة عن هوية مرتكب الجريمة، أليس كذلك؟  
- لسوء الحظ، لم أتمكن من كشف هويته حتى الآن يا سيد روبرت، ولكن أرجو ألا ينتابك القلق، سيتساقط بفخاخي إن أجلاً أم عاجلاً.

تملكني شعور بأن ملامح السيد روبرت دارزاك اكتست بتعابير الارتباك والتشوش، وراودتني شكوك بأن نبرة روليتاي التي تنم عن التحدي والإصرار أثارت انزعاجه، فكرت سائلاً نفسي: "لو أن روبرت دارزاك يخشى حقاً الإفصاح عن هوية القاتل، فلماذا لم يتوان عن تقديم يد العون إلى المراسل الصحفي ليتمكن من العثور عليه؟" يبدو أن صديقي الشاب قد تملكه نفس الانطباع الذي راود ذهني، فطرح هذا السؤال فجأة، وببرة تكسوها الفظاظ قليلاً:

- هل تمنع يا سيد روبرت في أن أنصب كميناً للإيقاع بالقاتل؟  
صاح خطيب الأنسة ستانجرسون ببرة مندفعة ومتهورة أثارت ذهولي: "أود أن أمزقه إرباً إرباً بيدي".  
أجاب روليتاي برصانة: "أصدق ما تقوله يا سيدي، ولكنك لم تحب عن سؤال".

مررنا بجوار الغيضة الصغيرة التي أشار إليها المراسل الشاب منذ بضع دقائق.. توغلت بمفردي بين الأشجار، فلاحظت للتو الآثار الجلية للعيان لأقدام شخص لا شك أنه ظل لوقت طويل متوارٍ عن الأنظار، للمرة الثانية، تملكني يقين بأن روليتاي قد أصاب كبد الحقيقة. صمت روليتاي لبرهة من الوقت، ثم قال: "حسناً، نحن نسعى لاقتفاء أثر شخص حقيقي مثلنا من لحم ودم، لا يتفرد بأية صفات أخرى سوى تلك التي تتمتع بها، ولا يمتلك قوة خارقة، لذلك، فمن المفترض أنه أعد العدة لتحقيق بغيته وتنفيذ فعلته الشنعاء متأهباً لكل الاحتمالات".

التفت إليّ روليتاي ملتمساً مني أن أعطيه الورقة البيضاء التي سلمني إياها، والتي تُعد بمثابة نعل ورقي ذي أبعاد واضحة لأثر إحدى قدمي المجرم، ثم نهض عن مكانه قائلاً: "هذا أمر لا ريب فيه".

راودني اعتقاد بأنه سيتتبع، على الفور، آثار أقدام المجرم بعد أن لاذ بالفرار عبر نافذة الدهليز، بيد أنه قادنا بعيداً إلى جهة اليسار، معلناً أنه لا جدوى من الاستمرار في دفن رؤوسنا في الرمال، فقد بات المسار الذي اتخذ المجرم ليفر هارباً واضحاً كوضوح الشمس في كبد السماء. انطلق مسرعاً نحو نهاية الجدار، والتي تقع على بعد خمسين متراً من البقعة التي تركزنا فيها، ثم تسلق السياج، وتوقف فجأة أمام الممر الضيق المؤدي إلى بركة الماء، فتح فاه قائلاً: "هذا هو أكثر الطرق المختصرة للهروب والانطلاق نحو بركة الماء".

- وكيف أدركت أن المجرم هرولاً راكضاً باتجاه بركة الماء؟  
- لأن فريدريك لارسان لم يبرح جوارها منذ بزوغ فجر اليوم. لاشك أنه عثر هناك على قرائن مثيرة للاهتمام.

بعد مرور بضع دقائق، سرنا بخطى سريعة نحو بركة الماء التي كانت عبارة عن مستنقع سبخي محاط بنبات البوص، ولاتزال تطفو فوق سطح مائه أوراق زنبق الماء الأبيض الذابلة، يبدو أن السيد فريد قد لحنا بطرف عينيه بيد أنه لم يعرنا أدنى انتباه، بل ظل منهمكاً في تحريك شيء، لم تبصره أعيننا، بطرف عصاه.

قال روليتاي: "انظروا، ها هي آثار خطوات المجرم تظهر بوضوح مرة أخرى، لقد دار حول البركة، ثم عاد أدراجه متوارياً عن الأنظار، مجتازاً هذا الممر الضيق المؤدي إلى الطريق الرئيسة ليغادر البلدة، وأخيراً انطلق متوجهاً إلى باريس بعد أن لاذ بالفرار".

قاطعته قائلاً: "ما الذي يجعلك تظن بأن المجرم عاد أدراجه مجتازاً الممر الضيق؟".

صاح مشيراً إلى أثر واضح لحذاء عصري أنيق: "ما الذي جعلني أظن بأنه اجتاز هذا الممر؟ تأمل بإمعان آثار الأقدام تلك التي لطالما تحرقت شوقاً لرؤيتها! انظر جيداً".

ثم دنا بضع خطوات من السيد لارسان سائلاً إياه:

- سيد لارسان، هل آثار الحذاء العصري الأنيق عُثر عليها هنا منذ وقوع الجريمة؟

أجاب فريد دون أن يرفع رأسه: "نعم أيها الشاب، فكما ترى بوضوح، هناك آثار أقدام تتجه نحو الجناح، والأخرى في الاتجاه المعاكس نحو الطريق الرئيسة".

صاح المراسل الشاب قائلاً: "ويبدو أيضاً أن المجرم كان يسير بجوار دراجة!".

عندئذ، وفور تفحص آثار دراجة طُبعت على الأرض ذهاباً وإياباً، وبجوارها آثار الحذاء العصري الأنيق، أدركت أنه قد حان الوقت لأدلو بدلوي، فتفوهت قائلاً:

- اختفت آثار الحذاء الضخم فور ظهور آثار الدراجة، وهذا يعني أن المجرم لاذ بالفرار ثم استقل دراجته، وأن شريكه صاحب الحذاء العصري الأنيق ظل منتظراً إياه عند حافة البركة ممسكاً بالدراجة، من المفترض أن المجرم يعمل تحت إمرة الرجل الذي كان ينتعل حذاءً عصرياً أنيقاً وخلف وراءه آثاراً غير بارزة، أليس كذلك؟

أجاب روليتاي مرتسمة على ثغره ابتسامة مشوبة بالاستغراب: "لا، لا، لقد تحرقت شوقاً لتفحص هذه الخطوات منذ وقوع الجريمة، ولأزالت متشبهاً برأيي، آثار الأقدام هذه تعود إلى المجرم".

- وماذا عن آثار الأقدام الأخرى التي خلفها وراءه الحذاء الضخم وتبرز في الأرض؟

- إنها آثار أقدام القاتل أيضاً يا عزيزي.

- إذن، هناك اثنان، القاتل وشخص آخر متورط معه؟

- لا، مقترف الجريمة هو شخص واحد ولم يكن برفقته أي شريك آخر.

صاح فريدريك لارسان من مكانه قائلاً: "رائع! أنت تبلي بلاء حسناً أيها الشاب وتحرز تقدماً كبيراً".

تابع المراسل الشاب حديثه مشيراً إلى آثار كعبي الحذاء الضخم: "جلس الرجل قليلاً هنا، ثم خلع حذاءه عازماً أن يضلل العدالة، ومن المرجح أنه حمل الحذاء، وسار حافي القدمين بخطى وثيدة، عائداً أدراجه إلى الطريق الرئيسة بجوار دراجته. في الواقع، لم يجازف بقيادة الدراجة في هذا الممر الضيق المحفوف بالمخاطر، علاوة على ذلك يتضح جلياً أن الآثار التي تركتها الدراجة تبدو باهتة وغير غائرة في الأرض بالرغم من رخاوتها، لو أن المجرم كان قد استقل دراجته بالفعل، لانغرزت عجلاً في الأرض الموحلة. لا، لا، لم يقترب الجريمة سوى شخص واحد: المجرم الملعون الذي تسلل إلى الداخل، ثم غادر سيراً على الأقدام".

صاح فريد العظيم مرة أخرى بصوت عالٍ: "مرحى أيها الشاب، يا لها من استنتاجات رائعة!".

وفجأة، تقدم السيد فريد نحونا، ثم تسمراً واقفاً أمام السيد روبرت دارزاك سائلاً إياه:

- بمقدورنا أن نثبت صحة منطق هذا الشاب المثير للإعجاب يا سيد روبرت لو أنك أحضرت لنا دراجة، ألا تعلم ما إذا كانت هناك واحدة في القصر؟

- لا يا سيدي، لا توجد دراجة هنا، من المؤسف أنني نقلت دراجتي قبل أربعة أيام إلى باريس، منذ آخر مرة أتيت فيها

إلى القصر قبل وقوع الجريمة.

أجاب فريد بنبرة ملؤها البرودة: "كم هو أمر مؤسف حقاً"، ثم التفت إلى روليتاي قائلاً:

- لو أنك واصلت بحثك الدؤوب، ستدرك حتماً أننا سننتهي إلى نفس الاستنتاجات، هل لديك أدنى فكرة عن كيفية هروب القاتل من الغرفة الصفراء؟

- نعم، لقد خطرت ببالي فكرة.

- لا شك أنها نفس الفكرة التي جالت بخاطري، لا تحمل هذه القضية المعقدة سوى وجهة نظر واحدة، انتظر حتى أطرح فكريتي أمام القاضي فور وصول مدير الأمن.

- هل هو قادم بالفعل؟

- نعم، سيجيء بعد ظهر اليوم، وسيشهد المختبر مواجهة مثيرة - بحضور قاضي التحقيق - بين أولئك الذين تورطوا أو من يشبهه في تورطهم في هذه الفاجعة، كم سيبدو المشهد مثيراً، من المؤسف أنك لن تتمكن من الحضور.

أجاب روليتاي بنبرة ملؤها الثقة: "لا، سوف أحضر".

أجاب الشرطي الشهير بنبرة لا تخلو من الازدراء: "حقاً، كم تبدو غريب الأطوار بالنسبة لشخص يمثل عمرك! من الممكن أن تصبح شرطياً بارعاً، لو أنك تسير وفقاً لمنهجية واضحة وأسس منطقية، لو أنك تنصاع لفطرتك وتطلق العنان لأهوائك، لقد لاحظت هذا الأمر مراراً وتكراراً يا سيد روليتاي: أنت ممن يستغرقون في تفكير عميق، لا تدع ملاحظاتك تتحكم في لجام أفكارك، ما رأيك في المنديل الملطخ بالدماء وآثار البصمات على الجدار؟ أعلم أنك رأيت آثار اليد الملطخة بالدماء على الجدار، بيد أنني لم أر سوى المنديل، هيا أخبرني ما انطباعاتك بشأن هذا الأمر؟

قال روليتاي مدهوشاً: "عجباً، لا شك أن المجرم أصيب بجرح في يده فور إطلاق النار عليه من مسدس الأنسة ستانجرسون".

- أوه! يا لها من ملاحظة مباشرة فطرية تنم عن سذاجة وتسرع. كن حذراً يا سيد روليتاي، ففرضياتك تُصاغ بشكل مباشر في حدود العقل والمنطق، ولذلك كن حريصاً ألا تقع تحت وطأة التضليل والخداع، هنالك بعض الأمور التي ينبغي أن تتعامل معها بمرونة وسلاسة. سيد روليتاي، لم يجانبك الصواب حين أشرت إلى مسدس الأنسة ستانجرسون، فمن البديهي أن الضحية لم يكن بوسعها سوى إطلاق النار، بيد أنك اقترفت خطأ جسيماً حينما زعمت أن الرصاصة أصابت يد القاتل!

صاح روليتاي: "ولكنني أثق تمام الثقة أن الأنسة...".

قاطعها فريد بنبرة متهورة: "ملاحظة مشوبة بالخطأ، ملاحظة مشوبة بالخطأ، لقد تفحصت المنديل بإمعان، وأمعنت النظر في بقع الدماء المتناثرة هنا وهناك والتي ظهرت بوضوح فور تتبع آثار الأقدام، فتبين جلياً أن المجرم لم يُصب بأي جرح، وأن هذه البقع، يا سيد روليتاي، ناجمة عن حدوث نزيف من الأنف!

كانت ملامح الجدية ترسم على وجه فريد العظيم حينما أوضح وجهة نظره، ولذلك لم أقوَ على كبح جماح دهشتي العامة.. راح المراسل الصحفي وفريد العظيم يتبادلان النظرات الحائرة متسائلين في صمت، ثم خلص الشرطي الشهير إلى هذا الاستنتاج المثير:

- مسح المجرم أنفه النازفة بيده، ثم بالمنديل الذي يُمسك به، وفي نهاية المطاف، مسح يده الملطخة بالدماء في الجدار، هذه حقيقة لا ينبغي إغفالها، لأنه ليس بالضرورة أن يُصاب المجرم في يده لكي تُلصق به تهمة القتل.

بدا روليتاي مستغرقاً في تفكير عميق، ثم قال:

- ولكن يا سيد فريديك لارسان هناك أمر يُعد أكثر خطورة من صياغة الفرضيات بشكل مباشر في حدود العقل والمنطق، ألا وهو الحضور الذهني الذي يتسم به بعض رجال الشرطة، والذي يدفعهم، بحسن نية إلى إخضاع المنطق بمرونة لتصوراتهم وأفكارهم الخاصة، لا شك أنه تشكلت في ذهنك فكرة محددة وواضحة المعالم بشأن المجرم يا سيد فريد، أرجو ألا تنكر ذلك، وليس بالضرورة أن يكون المجرم قد أصيب في يده، وإلا ستتهاوى الفكرة وتتلاشى من تلقاء نفسها، أنت تتبع

منهجية أراها في غاية الخطورة يا سيد فريد، منهجية تنطلق من فكرة صاغها العقل بشأن المجرم من أجل بلوغ براهين يحتاجها العقل! هذه المنهجية ستقود أفكارك حتماً إلى التحليق بعيداً، احذر من أن تجهض العدالة وتقودها إلى الإخفاق يا سيد فريد، فهي تقف لك بالمرصاد.

تحللت عبارات روليتابي بعض القهقهات المتهمكة، فقد تثبتت عيناه الصغيرتان الماكرتان على وجه فريد العظيم وظل واقفاً في مواجهته واضعاً يديه في جيبي سرواله. راح فريدريك لارسان يتأمل في صمت قسما وجه الشاب الزاعم أنه يفوقه قوة ومهارة، ثم هز كتفيه استخفافاً.. ألقى التحية مودعاً إيانا، ثم أنطلق بخطى وثيدة ضارباً حجارة الطريق بعصاه الكبيرة الغربية. ظل روليتابي يتطلع إليه حتى توارى عن الأنظار، ثم استدار نحونا، ووجهه متهلل فرحاً بما أحرزه من نصر عظيم... راح يرمقنا بنظرات ملؤها التفاؤل والأمل، ثم قال بصوت حماسي:

- سأهزمه شر هزيمة، سأهزم فريد العظيم، مهما بلغت قوته وعظمته، سألحق بهم جميعاً هزيمة نكراء، روليتابي يفوقهم مهارة وبراعة، ها هو فريد العظيم والشهير، ذائع الصيت، والذي يُضرب به المثل في الذكاء والدهاء يفكر كشخص أحمق. اتجهت أنظاري نحو ما تبصره عيناه، فقد راح روليتابي يتطلع إلى السيد دارزاك الناظر بعينين زائغتين إلى آثار أقدامه البارزة بجوار آثار الحذاء العصري الأنيق في الممر الضيق... لم يكن هناك أي فرق! تملكنا شعور بأن دارزاك يترنح وسيسقط مغشياً عليه، فقد اتسعت عيناه هلعاً وجحظت بذهول، وتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، بينما راح يقبض بيده اليمنى على لحيته التي تطوق وجهه جميل القسما المفعم بالصدق والغارق في اليأس. في نهاية المطاف، استعاد رباطة جأشه، ولملم شتات قواه وأفكاره المبعثرة، ثم ألقى علينا تحية الوداع مخبراً إيانا بنبرة شاحبة بضرورة العودة إلى القصر، ثم غادر على الفور. قال روليتابي: "يا له من شيطان ماكر!"

كسا الوجوم ملامح وجه المراسل الشاب، ثم أخرج من حافظة نقوده قطعة ورق بيضاء، مثلما فعل من قبل، وراح يصنع بمقصه نعلًا ورقياً آخر يتطابق مع آثار أقدام القاتل ذي الحذاء العصري الأنيق.. نهض عن مكانه، وضع النعل الورقي الجديد فوق آثار أقدام السيد روبرت دارزاك، ثم أدرك أنها تتطابق تماماً، فكرر قائلاً: "يا له من شيطان ماكر". لم أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة، وتيقنت على الفور أن نبرة روليتابي تحمل بين طياتها الكثير من التهديد والوعيد، بيد أنه التفت إليّ قائلاً: "ولكنني أعتقد أن روبرت دارزاك شخص يتسم بالصدق والنزاهة". انطلقنا متجهين نحو فندق "دنجون"، والذي لاح أمام أعيننا على بعد كيلو متر واحد منتصباً بجوار مجموعة من الأشجار.

## الفصل العاشر

### آن الأوان لتناول اللحم المضهّب

أدركت على الفور أن فندق "دونجون" شُيد منذ قرنين من الزمان وربما أكثر من ذلك، فقد برزت الشقوق لتفصل بين هيكله الخشبي القوي والحجارة الصغيرة وبقايا الجص المتناثرة هنا وهناك، كان سقفه المتداعي لا يزال مرتكزاً على عارضتين خشبيتين تشكّلان حرفي "X"، و"V"، ومائلاً قليلاً على دعاماته، مثل قبة منزلقة على جبهة رجل سكير، برزت لافتة حديدية فوق الباب الرئيسي تتأوه وترزح تحت وطأة رياح الخريف، ويجلس أسفلها أمام عتبة الفندق، رجل ذو ملامح متجهمة يبدو وكأنه غارق في دوامة من الأفكار السوداوية المظلمة، عندما دنونا بضع خطوات منه، تهلل لرؤيتنا وسألني عما إذا كنت بحاجة إلى شيء ما. ولكن عندما أبدينا رغبتنا في تناول طعام الغداء بين جدران فندقه العتيق، اعترف لنا أنه ليس لديه ما يكفي من المؤونة، وأن الحرج يتملكه لأنه سيعجز حتماً عن تقديم ما تشتهيهِ أنفسنا، ولذلك راح يرمقنا بنظرات ملؤها الحيلة والحذر يتعذر فهم فحواها.

قال له روليتابي: "أليس بمقدورك أن تستضيفنا، فنحن لا ننتمي إلى جهاز الشرطة يا سيدي".

- لا أخشى الشرطة، ولا يخيفني أي شخص على وجه الأرض.

أومأت إلى صديقي بعيني ملتصقةً منه ألا يلح في طلبه، بيد أن صديقي العنيد المتشبث دائماً بما يتبادر إلى ذهنه من أفكار، تسلل من تحت ذراع الرجل منطلقاً نحو البهو، وناداني قائلاً: "تعال، الجو جميل هنا ورائع للغاية". توجه الحطب المشتعل في قلب المدفأة المشعة حرارتها بين جدران غرفة واسعة ذات سقف عالٍ، وثلاث نوافذ تطل على الطريق، توسطت الغرفة طاولتان خشبيتان سميكتان، وعدد قليل من المقاعد، ومنضدة عريضة تصطف عليها زجاجات متنوعة من المشروبات الروحية والعصائر، تصدرت الجدار صورة إعلانية لافتة ذات ملامح باريسية ترفع كأسها بازدرأ ووقاحة، وتزين رف المدفأة الرخامي بعدد كبير من الأواني الفخارية والأباريق الخزفية.

صاح روليتابي قائلاً: "يُمكن استغلال هذه المدفأة كمشواة للدجاج".

أجاب صاحب الفندق بجدّة: "ليس لدينا دجاج، أو حتى أرانب بريّة".

قال صديقي بنبرة تكسوها السخرية أثارت ذهولي: "أعلم أنه سيتعين علينا الآن تناول اللحم المضهّب".

أعترف أنني لم أدرك فحوى عبارة روليتابي المثيرة للدهشة، لماذا تفوه بهذه الكلمات المبهمة مخاطباً صاحب الفندق: "سيتعين علينا الآن تناول اللحم المضهّب"، ولماذا أطلق الرجل، فور أن تناهت إلى مسامعه هذه العبارة، سباباً، ثم امتمثل صاعراً لأوامرنا مثلما فعل السيد روبرت دارزاك بمجرد سماع هذه الكلمات المنذرة بالسوء، والتي تبدو كتعويذة سحرية: "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل". لا شك أن صديقي قد حباه الله بملكة التواصل مع الغرباء بعبارات يكسوها الغموض يتعذر فهمها. أبديت له ملاحظتي، فأجابني بابتسامة ساحرة، تحرقت شوقاً لأن يتكرم بإعطائي بعض التفسيرات والإيضاحات، بيد أنه آثر أن يضع إصبعه على شفثيه معلناً رغبته في التزام الصمت المطبق. في تلك الأثناء، دفع الرجل باباً صغيراً، آمراً إحدى السيدات بإحضار نصف دزينة من البيض، وشرائح لحم الخاصرة. وسرعان ما أُنجزت المهمة ولاحت أمام أعيننا فتاة فاتنة تأسر الأبواب بحسنها وجمالها الأخاذ، ذات شعر أشقر، وراحت ترمقنا بفضول بعينيها الساحرتين الواسعتين وفمها الرقيق.

صاح صاحب الفندق في وجهها بنبرة تكسوها الفظاظة قائلاً: "أعربي عن وجهي الآن، وإذا حضر الرجل الأخضر، تواري عن الأنظار".

توارت الفتاة بالفعل عن الأنظار، فأمسك روليتابي بالوعاء الخزفي الذي يحتوي على نصف دزينة من البيض، وبطبق كبير يحمل شرائح من لحم الخاصرة، ثم وضعهما بحذر بجواره أمام المدفأة، تناول مقلاة، ثم أحضر مشواة رآها معلقة في الموقد، وشرع في إعداد عجة البيض ريثما تنضج شرائح اللحم.. استدار روليتابي فجأة ملتفتاً نحو صاحب الفندق ملتصقاً منه أن يحضر لنا زجاجتين من عصير التفاح المخمر، وقد تبادلا الاثنان نظرات تنم عن الود والترحاب والاحترام. ولكن من المثير للدهشة أن الرجل، تارة، يطيل النظر إلى صديقي متفحصاً ملامحه بإمعان، وتارة أخرى يرمقه بنظرات ملؤها القلق التي

يحاول عبثاً إخفاءها.. وأخيراً، تركنا الرجل وشأننا لتتولى أمور المطبخ، ثم شرع في وضع وترتيب أدوات المائدة بالقرب من إحدى النوافذ.

تناهى إلى مسامعي فجأة صوته متمماً: "أوه! ها هو قد أتى!".

تبدلت ملامح وجه الرجل إلى التجهم كما لو أنه رأى شبحاً، واكتست بقسوة مفرطة وحقد بغيض، فتحرك للأمام قليلاً، واتكأ بمرفقيه على حافة النافذة، ثم راح يتطلع إلى الطريق، لم أقدم على تنبيه روليتابي ولفت ناظره إلى ما يدور، فقد ترك الشاب عجة البيض، ونحس عن مكانه مصطحباً إياي لتتفحص الأمر عن كثب. أبصرنا عبر النافذة رجلاً يرتدي ثياباً مخملية خضراء اللون، ورأسه مغطى بقبعة مستديرة من نفس اللون، يسير بخطى متباطئة على طول الطريق مدخناً غليونه، وحاملاً بنديقة على كتفه. من الواضح أن هذا الرجل ذا الشعر والشارب الرمادي اللون لم يتخط الخامسة والأربعين من عمره، ويتسم بوسامة لافتة للنظر، ويرتدي نظارة أنفية تتماشى مع مظهره الأرستقراطي.. عندما مر من أمام الفندق تردد قليلاً، متسائلاً - وهو يسحب بضع أنفاس من غليونه مستأنفاً سيره بنفس الخطى المتلكئة اللامبالية - عما إذا كان بمقدورنا أن نستضيفه لبضع دقائق من أجل إلقاء نظرة عابرة على الفندق من الداخل. التفتنا أنا وروليتابي على الفور إلى صاحب الفندق، فأفصحت نظراته القادحة شرراً، وقبضته المشدودتان، وطرف فمه المرتعش، عن غضب عارم يتأجج في غور أعماقه.

همس صاحب الفندق قائلاً: "لقد أحسن صنْعاً ألا يأتي اليوم!".

تساءل روليتابي مستأنفاً إعداد الطعام: "من يكون ذلك الرجل؟".

زجر صاحب الفندق: "إنه الرجل الأخضر، ألا تعرفه؟ حسناً فعلت، من الأفضل ألا تربطك به أية صلة، إنه حارس بوابة قصر السيد ستانجرسون".

تابع المراسل الصحفي، وهو يصب مزيج عجة البيض في المقلاة، متسائلاً: "يبدو أنك تكن له كرهاً دينياً، أليس كذلك؟".

- جميع سكان البلدة بمقتونه يا سيدي، فهو رجل متغطر ومتعجرف، يبدو أنه كان يوماً أحد ذوي النفوذ الذين يتمتعون بثروات طائلة، ولكن دوام الحال من المحال، فقد غدرت به الأيام بعد صفائها، وأجبرته تقلبات الدهر على العيش كخادم، ونظراً لأنه يعمل كحارس للسيد ستانجرسون، فمن المفترض أنه خادم كأى خادم آخر، أليس كذلك؟ يُقال بأنه كان المالك الرئيسي لقصر جلاندييه، والمتحكم الأوحده في جميع الممتلكات والأراضي والغابات، ولم يسمح لرجل فقير بأن يتناول قطعة خبز جالساً على العشب "على عشب غاباته وممتلكاته الشاسعة".

- هل يأتي إلى هنا من حين لآخر؟

- يتردد كثيراً على فندقي، ولكنني سأخبره قريباً بأن وجوده لم يعد مرغوباً فيه. لم يكن شيء يزعجني أو يكدر صفوي منذ شهر واحد! لم يُشيد فندقي من أجل شخص أحق! شخص رأى نفسه مجبراً على التودد إلى صاحبة فندق "الزنابق الثلاث" الواقع في "سان ميشيل"، ولكن عقب وقوع مشاجرة غرامية، سعى لأن يقضي وقته في أي مكان آخر، الجميع يعرفون أنه زير نساء، ورجل سيء الطباع، لا يُمكن لأي شخص متسم بالنزاهة والشرف أن يتحمل مثل هذا الكائن البغيض. هل تعلم يا سيدي أن حارس القصر وزوجته أعربا عن اشتمازهما تجاه الرجل الأخضر، ولم يستطيعا أن يحتملاه.

- إذن، يُمكن الجزم بأن حارس القصر وزوجته شخصان متسمان بالنزاهة والشرف يا سيدي، أليس كذلك؟

- يُمكنك أن تناديني الأب ماتيو، فهذا اسمي، حقاً، ادعى ماتيو، نعم يا سيدي، أعتقد أنهما من أناس شرفاء.

- ولكن، ألقى القبض عليهما.

- وما الدلائل التي استند القضاء إليها؟ لا أرغب في إقحام أنفي في شؤون من شأنها أن تورطني مستقبلاً في هذه القضية.

- وما رأيك في محاولة القتل التي باءت بالفشل؟

- قتل الأنسة ستانجرسون المسكينة؟ فتاة تتحلى بالطيبة ومقربة إلى قلوب جميع سكان البلدة، هذا هو ما أتصوره.

- نعم، ولكن ما وجهة نظرك بشأن الجريمة الغاشمة؟

- لا أدري، هناك شائعات تتناثر من هنا وهناك طوال الوقت، ولكن الجميع لا يلتفتون إليها. أجابه روليتاي بنبرة متلهفة: "وهل ينبغي عليّ أنا أيضاً ألا أعبأ بمثل هذه الشائعات؟". رmqه صاحب الفندق بطرف عينيه، ثم دمدم قائلاً: "نعم، وأنت أيضاً".
- جُهِزَت عجة البيض، فجلسنا على إحدى الطاولات وتناولنا الطعام يخيم علينا صمت مريع، وفور أن فُتِح الباب الرئيسي للفندق، ظهرت فجأة امرأة عجوز ترتدي ثياباً بالية ومتكئة على عصا، يترنح رأسها يمنة ويسرة، ويتدلى شعرها الأبيض على جبهتها المتسخة في هيئة خصلات متموجة فوضوية.
- قال صاحب الفندق: "مرحى بك أيتها الأم (جينو)، لقد أطلت الغيبة".
- أصابني وباء لعين، وكنت قاب قوسين أو أدنى من الموت، هلا أقرضتني بقايا الطعام لأطعم بها الدعسوقة؟ ولجت المرأة العجوز الفندق العتيق تتبعها قطعة ضخمة الحجم، فأصابني الدهول لأنني لم أر ألبتة، طيلة حياتي، قطعة بمثل هذا الحجم، تطلعت القطعة إلينا بنظرات مثيرة للهلع، ثم تناهى إلى مسامعنا صوت موائها الغاضب، فسرت في جسدي رعشة خفيفة مربعة، لم يتناهَ إلى مسامعي، طيلة حياتي، مواء مفعم بالكآبة مثل هذا الصوت الذي بلغ أذنيّ. برز، خلف المرأة العجوز، أحد الأشخاص وكأنه جاء على إثر صوت المواء المرعب.. لاح أمامنا الرجل الأخضر بشحمه ولحمه.. رفع قبعته ملقياً علينا التحية، ثم جلس على الطاولة المجاورة لنا، وصاح قائلاً:
- أعطني كأساً من التفاح المخمر أيها الأب ماتيو.
- وفور أن وطأت قدمي الرجل الأخضر أرضية البهو شاسع الأرجاء، تشنجت عضلات وجه الأب ماتيو، فضمّ قبضتيه بغضب جارف، ولكن من الواضح أنه نجح في تمالك أعصابه، وكبح جماح ردة فعله الهائجة، فأجاب قائلاً:
- لم يعد هناك المزيد من عصير التفاح المخمر، لقد تجرّع هذان السيدان آخر زجاجتين.
- قال الرجل الأخضر، دون أن يبدي أدنى علامة دهشة أو انزعاج: "إذن، أعطني كأساً من النبيذ الأبيض".
- كرر الأب ماتيو بصوت أجوف بارد: "لم يعد هناك المزيد من النبيذ الأبيض، لم يتبقَّ شيء".
- كيف حال السيدة ماتيو؟
- شد صاحب الفندق قبضتيه بعنف، واستدار مقطب الملامح وعابس القسمات، ملتفتاً نحو الرجل سليط اللسان، فتملكني يقين بأنه سيرحه ضرباً حتى الموت، ولكن انتابني دهشة عارمة حين رأيته يقول له بنبرة ملؤها الهدوء:
- السيدة ماتيو بخير، شكراً لك.
- أدركت للتو أن المرأة الحسنة ذات العينين الساحرتين الواسعتين التي رأيناها منذ برهة من الوقت هي زوجة هذا الشخص فظ الملامح، وحاد الطباع، والذي يبدو أنه يغلب على شخصيته طابع الغيرة. صفق صاحب الفندق الباب وراءه بغضب مغادراً البهو، كانت الأم أجيно لاتزال متسمة في مكانها متكئة على عصاها، والقطعة تداعب هدب ثوبها، فتطلع إليها الرجل الأخضر متسائلاً:
- لم نركِ منذ ما يقرب من أسبوع أيتها الأم أجيно، هل كنتِ مريضة؟
- نعم يا سيدي الحارس، ظللت طوال الوقت مستلقية على فراشي، ولم أنحض عنه سوى ثلاث مرات متوجهة للصلاة أمام تمثال القديسة جينييف، شفيعتنا الطاهرة. لم يعتني بي أحد سوى الدعسوقة.
- ألم تتركك؟
- ظلت بجواري ليلاً ونهاراً.
- هل أنت واثقة مما تقولينه لي؟
- واثقة تمام الثقة.
- ولكننا يا أم أجيно، طوال ليلة وقوع الجريمة، لم يتناهَ إلى مسامعنا سوى صرخة الدعسوقة؟
- تقدمت الأم أجيно بضع خطوات إلى الأمام، ثم وقفت متسمة أمام الحارس، وضربت الأرض بعصاها قائلة:
- لا أعلم شيئاً عن هذه الصرخة. ولكن، هل ترغب في أن أجييك عما سألت؟ حسناً، لا يوجد حيوانان في العالم يطلقان

نفس الصرخة. دعني أخبرك بأنه ليلة وقوع الجريمة تناهى إلى مسامعي صوت صرخة الدعسوقة منبعثاً من الخارج، بالرغم من أنها كانت رابضة في حضني يا سيدي الحارس، أقسم لك أنها لم تطلق صيحة واحدة، رسمت إشارة الصليب فور سماع هذا الصوت، وكأنني سمعت صيحة الشيطان.

كانت عيناى مثبتتين على الحارس حينما طرح هذا السؤال الأخير، وتراءى لي أنني أبصر ابتسامة يكسوها الاستهزاء السخيف مرتسمة على شفتيه. في تلك الأثناء، تناهى إلى مسامعنا ضجيج شجار حاد، وكأن شخصاً ما يتعرض لضربات مكتومة الصوت.. نهض الرجل الأخضر عن مكانه وهول راكضاً باتجاه الباب الواقع بجوار الموقد، ولكن الباب فُتح على الفور، ولاح صاحب الفندق قائلاً للحارس:

- لا تقلق يا سيدي الحارس، تعاني زوجتي من ألم في أسنانها، ثم ضحك هازئاً:

- أيتها الأم أجينو، خذي رئة الذبيحة لتطعمي بها قطنتك.

انزعجت المرأة العجوز بلهفة من بين يديه صرة صغيرة، ثم غادرت، تتبعها قطتها ضخمة الحجم، فسأله الرجل الأخضر قائلاً:

- ألا تود أن تقدم لي شيئاً؟

لم يقوَ الأب ماتيو على كبح جماح تعابير وجهه العابسة المكسوة بالسخط، والتي تنم عن حقد دفين، فأجابه قائلاً:

- لا يوجد أي شيء لك! ارحل ودعنا وشأننا!

ملأ الرجل الأخضر غليونه بحدوء، ثم أشعله ملقياً علينا تحية الوداع، وغادر الفندق. لم تكد قدماه تطأ عتبة الفندق حتى أغلق الأب ماتيو الباب وراءه بسرعة، ثم استدار متوجهاً نحونا، وحدقتا عينيه محتقتان بالدماء، ويرغي ويزيد، ثم مد ذراعه نحو الباب المغلق للتو وراء خصمه الشرس العنيد، وزجر قائلاً:

- لا أعلم من أنتم، وأنت يا سيدي جئت لتتلو على مسامعي هذه العبارة: "سيتعين علينا الآن تناول اللحم المضهب"، ولم تفصح لي عن هويتك، ولكن لو أنكما توليان حقاً اهتماماً بالغاً بالقضية التي أثارت الرأي العام، دعوني أخبركما أن الرجل الأخضر هو من اقترف الجريمة.

غادر الأب ماتيو، ثم تقدم روليتابي نحو الموقد، وصاح قائلاً:

- آن الأوان لشواء شرائح اللحم. ما رأيك في عصير التفاح المخمر؟ يتمتع بمذاق حار ولاذع يثير شهيتي.

في ذلك اليوم، لم نر ماتيو مرة أخرى، وخيم صمت مطبق في شتى أرجاء الفندق حينما غادرناه، بعد أن ترك روليتابي خمسة فرنكات على الطاولة، نظير الوجبة الشهية التي تناولناها. أخذني روليتابي على الفور في جولة متأنية حول ممتلكات البروفيسور ستانجرسون.. توقف صديقي لمدة عشر دقائق في إحدى زوايا طريق قصير مغطى بالسخام الأسود، يقع على مقربة من أكواخ الفخّامين الممتدة على أطراف غابة القديسة جينيفيف، ويربط بين إيبناي وكوري، أخبرني بأن المجرم قد اجتاز هذا الطريق قبل أن يتوغل في الأراضي المملوكة للبروفيسور ستانجرسون، ويتوارى خلف إحدى الخمائيل.

قاطعته قائلاً: "يبدو أنك غير مقتنع بأن حارس بوابة القصر متورط في القضية؟".

- سأتحقق من الأمر لاحقاً. أما الآن فأنا لا أعبأ بما تفوه به صاحب الفندق بشأن الرجل الأخضر، لقد ألصق به التهمة بدافع الانتقام والكراهية.

سرنا بحذر بالغ حتى تمكنا من بلوغ الغرفة الصغيرة المشيدة بالطوب، الواقعة بالقرب من البوابة، والتي استغلت كمأوى للحارس وزوجته اللذين ألقى القبض عليهما، تسلل روليتابي إلى الداخل بمهارة فائقة وحيلة ماهرة أثارت ذهولي، عبر كوة تقع في الخلف ظلت مفتوحة على مصراعها، ثم أبصرته خارجاً بعد مرور عشر دقائق، ومتفوهاً بهذه الكلمة التي تحمل بين طياتها معاني كثيرة: "اللعنة!".

وبينما نتأهب لاستئناف الطريق المؤدي إلى القصر، تناهى إلى مسامعنا صوت ضجيج منبعث من ناحية البوابة. رفعنا أعيننا قليلاً، فأبصرنا سيارة قادمة نحونا، وبعض الأشخاص قد غادروا القصر مهولين لاستقبالها. أشار روليتابي إلى شخص يترجل عن السيارة قائلاً:

- هذا هو رئيس الأمن، سنرى ماذا يخفي لنا لارسان في جعبته، وهل هو حقاً أشد مكرّاً من الثعلب وأكثر دهاء من الذئب!

برزت ثلاث سيارات أخرى مكتظة بالصحفيين الذين سعوا جاهدين أن يتسللوا إلى الداخل. ولكن اثنين من رجال الشرطة تمركزا أمام البوابة، ولم يسمحا لأحد بالمرور، هذا مدير الأمن روعهم متعهداً بأن يبوح لهم، مساء اليوم، بأكبر قدر من المعلومات، بما لا يؤثر على سير التحقيقات.

## الفصل الحادي عشر

### فريدريك لارسان يفضح خطة

### هروب القاتل من الغرفة الصفراء

وإليكم ما دونه كاتب المحكمة من وقائع تُعد جزءاً من كتاب لم ينشر بعد، ومن المفترض أنه حمل عنوان: "استجواباتي"، وقع هذا الكتاب بين يدي عقب إزاحة الستار عن لغز الغرفة الصفراء، ولا شك أن الكاتب نجح في إضفاء لمساته الخاصة على الأسلوب السردى:

"منذ قرابة الساعة، توجهنا إلى الغرفة الصفراء بصحبة المقاتل الذي شيد الجناح بناء على تعليمات وأوامر السيد ستانجرسون. جاء المقاتل في الموعد المحدد برفقة أحد العمال، أمر السيد "دو ماركيه" العامل أن يزيل جميع الأوراق التي تزين الجدران، وأعطت ضربات المعاول والفؤوس في شتى أرجاء الغرفة برهاناً واضحاً على عدم وجود أية فتحات أو ممرات سرية، فُحصت الأرضية والسقف بإمعان وتدقيق شديدين، ولكننا لم نعثر على أي شيء غير مألوف أو لافت للانتباه. تهللت أسارير السيد دو ماركيه، واهتز قلبه طرباً، ثم راح يكرر:

- يا لها من قضية مثيرة أيها المقاتل! ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبدياً؟ تراودني الظنون بأننا لن نحز أي تقدم واضح، وستظل خطة هروب القاتل من الغرفة في طي المجهول.

تذكر قاضي التحقيق، طلق الوجه، ومبتهج الملامح، فجأة، أن الواجب يحتم عليه السعي لاستقصاء الأمور، وفك طلاسم اللغز المحير، فاستدعى عميد الشرطة على الفور.

جاء العميد مهولاً، فأمره قاضي التحقيق قائلاً: "سنذهب إلى الجناح، وأرجو أن تطلب من السيدين ستانجرسون وروبرت دارزاك والأب جاك أن يلحقا بنا في المختبر، كما ألتمس منك أن تصدر أمراً لرجالك بإحضار حارس القصر وزوجته".

بعد مرور خمس دقائق، اجتمع كل هؤلاء الأشخاص في المختبر، ومن بينهم رئيس الأمن الذي حضر للتو، كنت جالساً أمام مكتب السيد ستانجرسون، متأهباً لإنجاز عملي، بينما شرع السيد دو ماركيه في إلقاء خطبة قصيرة فريدة من نوعها لم تكن في الحسبان، حيث فتح فاه قائلاً:

- أيها السادة، طالما أن الاستجوابات لم تسفر عن أية نتائج ملموسة، فألتمس منكم، ولو لمرة، أن نغض الطرف عن هذا الأسلوب العقيم الذي لا يجدي نفعاً. لا أود أن يمثل أمامي كل واحد منكم بصفته الشخصية، ولكننا سنجلس جميعاً هنا كإخوة متحابين، أرجو من السيد حارس القصر وزوجته أن يتناسيا ولو لبرهة من الوقت أنه ألقى القبض عليهما، لن نفعل شيئاً سوى أن نتجاذب أطراف الحديث، سنثرثر معاً، ونتشاطر الآراء، نحن نجلس الآن بين جدران مسرح الجريمة. حسناً، من الواضح أن حديثنا سيتمحور فقط حول الجريمة، أليس كذلك؟ ولذلك، فليدُل كل واحد منكم بدلوه. إذن، دعونا نتحدث باستفاضة، وببراعة أو ربما ببلاهة، فلتبوحوا بما يخالج نفوسكم، وما يتبادر إلى أذهانكم، تحدثوا بطريقة عشوائية، فالمنهجية المتبعة لم تُجد نفعاً، أدعو الله أن تتلاقى أفكارنا، ولو بمحض الصدفة! دعونا نبدأ المهمة!

عندئذ، مر القاضي أمامي، وقال لي بصوت خفيض: "حسناً، يا له من مشهد مثير وبديع! هل راود مخيلتك يوماً ما؟ سأؤدي مشهداً صغيراً من إحدى المسرحيات الهزلية لاذعة النقد"، فرك يديه ابتهاجاً، ثم التفت إلى السيد ستانجرسون قائلاً بنبرة يشوبها عدم الاكتراث قليلاً:

- حسناً يا سيد ستانجرسون، ألا تكرمت وقصصت على مسامعنا تفاصيل الأحداث بدءاً من انفصال الأنسة ستانجرسون عنك وولوجها غرفتها؟".

نفض السيد ستانجرسون عن مكانه، ثم وقف على بعد خمسين سنتيمتراً من باب الغرفة الصفراء، وقال بنبرة غير واضحة المعالم، لا لون لها ولا طعم، نبرة يكسوها شحوب الموتى:

- في حوالي الساعة الحادية عشر مساءً، وقفت هنا عقب إجراء تجربة كيميائية بسيطة فوق أحد أفران المختبر، كنت قد أحضرت مكتبي الخشبي إلى هنا، لأنني أبصرت الأب جاك منهمكاً، طوال المساء، في تنظيف بعض أجهزتي، كما أنني

كنت بحاجة إلى كل هذه المساحة الشاسعة ورائي، كانت ابنتي منكبة على العمل أمام مكتبي أيضاً، وعندما نهضت عن مقعدها لتخلد إلى النوم، طبعت قبلة على وجنتي، وتمنت للأب جاك ليلة هائلة، وكان لزاماً عليها أن تشق طريقها بقدر قليل من الصعوبة بين مكتبي والباب لكي تبلغ غرفتها، وهذا يعني أنني كنت على مقربة من المكان الذي وقعت بين جدرانها الجريمة.

قاطعته مذعناً لأوامر سيدي، الذي حثني على المشاركة في الحوار، متسائلاً: "وفور أن تناهت إلى مسامعك صرخات السيدة ستانجرسون: أمسكوا بالقاتل، وصوت طلقات الرصاص.. ما الذي حل بهذا المكتب؟".

أجاب الأب جاك قائلاً: "دفعناه قليلاً تجاه الجدار لنتمكن من المرور عبر الباب بسهولة يا سيدي الكاتب".

تبعته استدلالاً، بالرغم مني أنني لم أعلق عليها أهمية كبيرة، مستأنفاً أسئلتي:

- هل كان المكتب قريباً للغاية من غرفة النوم للدرجة التي تسمح بتسلل شخص، مخنئ الظهر، والاختباء أسفله دون أن يلاحظه أحدكم؟

قاطعتني السيد ستانجرسون بضجر قائلاً:

- تنسون دائماً أن ابنتي التعيسة أغلقت باب غرفتها بالمفتاح والمزلاج، وأن الباب ظل مغلقاً، ورحنا نهال عليه بضربات قوية متلاحقة منذ أن اشتعل الشجار الضاري بين المجرم وبينها، وأن الضجيج المنبعث من هذا الصراع المحتدم ظل يتناهى إلى مسامعنا ممتزجاً بأنين وتأوه، حيث كادت أنفاسها أن تحتنق إثر إحكام القاتل قبضته على رقبتها، ولأن الهجوم وقع بشكل مباغت انطلقنا مهولين بسرعة البرق، لنجد أنفسنا بشكل تلقائي وفي لمح البصر أمام الباب الخشبي الذي يفصلنا عن مأساة ينفطر لها القلب، وتذرف لها العين.

نهضت عن مقعدي متوجهاً ناحية الباب، ثم رحت أتفحصه مرة أخرى بإمعان، ولكنني انتصبت واقفاً يتملكني الإحباط واليأس، لاحت في خاطري فكرة عابرة، فقلت:

- ربما تسلل المجرم إلى الداخل عبر اللوح الخشبي السفلي دون أن يكون بحاجة لفتح الباب.

ولكن لسوء الحظ، افتقرت فرضيتي إلى العقل والمنطق، فقد اتضح أن الباب السميكة المصنوع من خشب البلوط صُنع وشكل ككتلة واحدة متماسكة لا تنقسم عن بعضها البعض، هذا أمر جلي للعيان، بالرغم من التلف الذي لحق به جراء الضربات القوية المتتالية.

قال الأب جاك: "إنه أحد أبواب القصر العتيقة المتميزة بالقوة والصلابة، نُقل إلى هنا بصعوبة بالغة، ولم يعد يُصنع مثله، لقد تولى مهمة انتزاع هذه الكتلة الضخمة ونقلها من مكانها أربعة أشخاص، دعني أخبرك بأن هذه المرأة المتسمة بالجرأة والشجاعة، زوجة حارس القصر، شاركت في إنجاز المهمة العسيرة، سيدي القاضي، من المؤسف أن يزج بهذه المرأة المسكينة وزوجها في السجن!".

لم يكد الأب جاك ينهي عبارته المشوبة بنبرة الاحتجاج والشفقة حتى انهمرت الدموع من أعين الحارس وزوجته، وبالرغم من قناعتي ببراءتهما، إلا أنه تملكني دهشة عارمة إزاء فتور عزمتهما في مواجهة الصعاب والحن، انتابني شعور بأن هذه الدموع المنسابة بغزارة، تبدو في أغلب الأحيان، زائفة ومصطنعة. صاح السيد دو ماركيه مرة أخرى قائلاً لهما: "مهلاً! كفاكما صياحاً وأخبراني ماذا كنتما تفعلان أثناء وقوع الجريمة، يتضح أنكما كنتما على مقربة من الجناح حينما التقى بكما الأب جاك".

راحا ينوحان قائلين: "ركضنا مهولين لنمد إليهم يد العون". ثم صاحت المرأة بين شهقتين: "آه! لو أن القاتل كان قد وقع بين أيدينا لمزقناه إرباً إرباً".

لم ننجح، مرة أخرى، في استخلاص أو انتزاع جملتين واضحتين من بين شفاههما. أصرّاً على الإنكار، ثم رفعاً أيديهما ليشهدا الله وجميع القديسين أنهما كانا في فراشهما عندما تناهى إلى مسامعهما صوت طلق ناري.

- لم تكن طلقة نارية واحدة، ولكن أطلقت رصاصتان، من الواضح أنكما تنفوهان بالكاذب، لو أنكما سمعتما الطلقة النارية الأولى، فمن البديهي أن دوي الثانية قد تناهى إلى مسامعكما.

- سيدي القاضي، نقسم لك أنه لم يتناه إلى مسامعنا سوى صوت الطلقة النارية الثانية، لا شك أننا كنا نغط في سبات عميق أثناء إطلاق الرصاصة الأولى.

قال الأب جاك: "أؤكد لكم جميعاً أنه أُطلقت رصاصتان، أثق تمام الثقة بأن حشو مسدسي لم يمس، كما أنه عثر على رصاصتين فارغتين، وتناهى إلى مسامعنا صوت انطلاق رصاصتين من وراء الباب، أليس كذلك يا سيد ستانجرسون؟

- نعم، طلقتان، إحداها مكتومة الصوت، والأخرى مدوية.

صاح السيد دو ماركيه ملتفتاً إلى الحارس وزوجته: "لماذا تصران على التفوه بالكاذب؟ هل تظنان بأن رجال الشرطة بلهاء وحققى مثلكما! جميع الدلائل تشير إلى أنكما كنتما بالقرب من الجناح لحظة وقوع الجريمة. ماذا كنتما تفعلان بالخارج؟ هل ستظنان متشبثين بالكتمان؟ التزامكما الصمت هو دليل تورطكما في الجريمة!". ثم استدار ملتفتاً إلى السيد ستانجرسون ومردفاً: "من وجهي نظري، لا يمكن تفسير هروب القاتل إلا بمساعدة هذين المتواطئين. فبمجرد أن حُطم باب الغرفة، وراعى المشهد الدموي، وانهمكت في تضييد جراح ابنتك التعيسة، سهّل الحارس وزوجته عملية هروب المجرم الذي انسل من ورائهما وصولاً إلى نافذة الردهة، ثم قفز منها هارباً. لم يُغلق مصراعاً النافذة من تلقاء ذاتهما، ولكن هذين المجرمين أغلقاهما فور هروب القاتل، هذه هي استنتاجاتي التي ربما تكون صائبة، لو أن أحد منكم تبادرت إلى ذهنه أية أفكار أخرى، فليقصها على مسامعنا!

تدخل السيد ستانجرسون قائلاً:

- هذا أمر مستحيل! تساروني الشكوك إزاء تورط حارسي الأمنين في ارتكاب الجريمة، بالرغم من عدم إدراكي للدافع وراء وجودهما المريب في حديقة القصر في هذه الساعة المتأخرة من الليل، هذا أمر مناقض للمنطق والعقل، فحراسة القصر تسمرت خلف ظهورنا من هول المشهد ممسكة بمصباح المختبر، ولم تبرح مكانها ألبتة، ولأنه بمجرد أن فتح الباب عنوة، جثوت على ركبتي منهاراً بجوار جسد ابنتي الغارق في الدماء، وكان من المستحيل على أي شخص أن يغادر الغرفة أو يتسلل إلى الداخل، عبر هذا الباب، دون أن يخطو فوق جسد ابنتي أو يدفعني بقوة! هذا أمر مستحيل، لأن الأب جاك وحارس القصر توجب عليهما أن يحدوا حدوي، ويتفحصا بإمعان أركان الغرفة وأسفل الفراش، ليكتشفا بأنه لا يوجد أثر لأي شخص سوى ابنتي المحتضرة.

سأل القاضي: "إذن، ما رأيك فيما يثار من أقاويل حول جريمة القتل يا سيد دارزاك؟ لماذا لا تدلو بدلوك حتى الآن؟".

أجابه السيد دارزاك بأنه لا تراوده أية أفكار بشأن هذه المعضلة.

- وما رأيك يا سيدي مدير الأمن؟

في تلك الأثناء، كان السيد "داكس"، مدير الأمن، يلقي نظرة متفحصة في المكان، وأخيراً تكرم وفتح فاه قائلاً:

- ريثما نلقي القبض على المجرم، من الواجب أن نسعى لاكتشاف الدافع وراء الجريمة، أظن أن هذا الأمر سيقودنا لإحراز تقدم ملموس.

أجاب السيد دو ماركيه: "سيدي رئيس الأمن، أظن أن الدافع الكامن وراء ارتكاب الجريمة هو الانتقام العاطفي، فالمنديل المصنوع من النسيج الخشن، والقبعة الرديئة ذات الجودة المنخفضة يقودانا للاعتقاد بأن المجرم لا ينتمي إلى صفوة المجتمع".

التفت مدير الأمن نحو السيد ستانجرسون، ثم واصل كلامه بنبرة ملؤها البرود، أظن أنها تعكس ملامح شخصيته القوية وذكائه منقطع النظير:

- أليس من المفترض أن الأنسة ستانجرسون ستتزوج قريباً؟

رمق البروفيسور السيد روبرت دارزاك بنبرة يكسوها الألم والمرارة، ثم قال:

- نعم، كان من المفترض أن تتزوج من صديقي والذي يسعدني أن أدعوه ابني العزيز، السيد روبرت دارزاك.

ألح مدير الأمن في سؤاله قائلاً: "لقد تحسنت صحة الأنسة كثيراً، وسوف تتعافى بسرعة من جراحها، هذا مجرد مشروع زواج مؤجل، أليس كذلك يا سيدي؟

- آمل ذلك.

- ماذا! تساورك بعض الشكوك، أليس كذلك؟

غرق السيد ستانجرسون في لجة من الصمت، وعلت ملامح الاضطراب والانزعاج وجه السيد دارزاك، فأبصرت يديه ترتجفان قليلاً.. سعل السيد داكس مرتين متتاليتين، مثلما يفعل السيد دو ماركيه حينما يمتلكه الحرج، ثم أردف:

- سيد ستانجرسون، في مثل هذا النوع من القضايا المشوبة بالتعقيد، ينبغي ألا نتغاضى عن أبسط التفاصيل التي لها علاقة بالضحية، حتى وإن بدت سطحية وتافهة، لماذا يحذوك الاعتقاد بأن مشروع زواج الأنسة ستانجرسون لن يكتمل؟ لقد أجبتي قائلاً: أمل ذلك، لماذا يتملكني شعور بأن الأمل الذي يحذوك ممتزج بالشك والريبة؟ لماذا تساورك الشكوك؟ بذل السيد ستانجرسون قصارى جهده لكي يستعيد رباطة جأشه، ثم فتح فاه أخيراً قائلاً:

- نعم يا سيدي، أنت محق، من الأفضل أن أطلعك على أمر ما ربما يبلغ قدراً كبيراً من الأهمية لو أنني لم أخبره بين ضلوعي، وأظن أن السيد روبرت دارزاك سيوافقني الرأي.

في تلك الأثناء، امتقع وجه السيد دارزاك واضطربت أوصاله، ثم أوماً برأسه موافقاً، انتابني شعور بأن السيد دارزاك قد أصيب بالخرس، ولم تكن بيده حيلة سوى أن يومئ رأسه.

استطرد السيد ستانجرسون قائلاً: "سيدي رئيس الأمن، لا أخفيك سراً أن ابنتي أقسمت ألا تتركني طالما بقيت على قيد الحياة، وبالفعل أوفت بقسمها بالرغم من توسلاتي الحارة، فقد بذلت كل ما في وسعي لإقناعها بالزواج، طالما أن الواجب يحتم عليّ فعل ذلك، لقد ربطتنا علاقة صداقة وثيقة بالسيد روبرت دارزاك، الغارق في حب ابنتي، منذ سنوات عديدة، وللوهلة الأولى أيقنت بأنها تهيم به عشقاً، وغُمر قلبي ببهجة عارمة فور موافقتها على عرض زواج يلي جميع طموحاتي. سيدي، لقد بلغت من العمر أزدله، وشكرت الله كثيراً حين تيقنت بأن الأنسة ستانجرسون وجدت أخيراً رجلاً تتوكل عليه من بعدي، وهو شخص أكن له كل الحب والتقدير والاحترام، ولكنها يا سيدي، قبل يومين من وقوع الجريمة، أخبرني بأنها عدلت عن قرارها، ولن تتزوج من السيد روبرت دارزاك.

خيم الصمت المطبق على المكان، فقد بات الوضع حرجاً وخطيراً، فتابع السيد داكس قائلاً:

- وهل أفصحت الأنسة ستانجرسون عن الدافع وراء عدولها عن رغبتها؟

- أخبرني أنه قد تقدم بها العمر وأصبحت غير مؤهلة للزواج، قالت أنها أمعنت التفكير في الأمر، وأنها تكن للسيد روبرت دارزاك كل حب وتقدير واحترام، ولكن من الأفضل أن تبقى الأمور على حالها، أخبرني أيضاً أنه سيكون من دواعي سرورها أن تتوثق روابط الصداقة الحقيقية التي تجمعنا بالسيد روبرت دارزاك، دون التطرق مرة أخرى إلى أمر الزواج. تتمم السيد داكس: "يا له من تصرف غريب!"

قال السيد ستانجرسون، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة شاحبة وباردة:

- سيدي، من الواضح أن الدافع وراء الجريمة لا يكمن في فكرة الانتقام العاطفي.

قال السيد داكس بنبوة نافذة الصبر: "على أية حال، يبدو أيضاً أن السرقة ليست هي الدافع وراء ارتكاب الجريمة". صاحب قاضي التحقيق: "هذا أمر مؤكد".

في تلك الأثناء، فُتح باب المختبر، وأحضر عميد الشرطة بطاقة زيارة، ثم سلمها إلى قاضي التحقيق، قرأ السيد دو ماركيه البيانات المدونة عليها، ورفع حاجبيه متعجباً، ثم قال: "يا لها من وقاحة مفرطة!". التفت نحوه رئيس الأمن متسائلاً: "لمن هذه البطاقة؟".

- لمراسل شاب يعمل لدى جريدة "العصر"، يدعى جوزيف روليتاني، وقد دون هذه الكلمات في الأسفل: "السرقة هي أحد دوافع الجريمة".

ابتسم رئيس الأمن قائلاً: "أوه! الشاب روليتاني، لقد سمعت عنه من قبل، تنامي إلى علمي أنه شخص عبقرى يجيد تحليل الأحداث، اسمح له بالدخول سيدي القاضي".

سُمح للسيد جوزيف روليتاني بالدخول إلى المختبر، ألقي التحية على الحاضرين، ثم انزوى في أحد الأركان منتظراً حتى يأذن له السيد دو ماركيه بشرح وجهة نظره، وعرض فرضيته. تطلع قاضي التحقيق نحوه، ثم قال: "سيد روليتاني، تدعي أنك

على علم بالدافع وراء الجريمة، وتود القول بأن هذا الدافع، بالرغم من أنه يبدو منافياً للمنطق، هو السرقة، أليس كذلك؟".

- لا يا سيدي، أنا لم أدّع ذلك، ولم أقل أن الدافع وراء الجريمة هو السرقة، كما أنني لا أصدق ذلك.

- أليس هذا ما دُون بخط يدك على هذه البطاقة؟

- لقد أشرت بأن السرقة هي أحد دوافع الجريمة.

- وما الذي تود أن تطلعنا عليه؟

التمس منا الشاب أن نتبعه إلى الردهة، فانصاع الجميع لأوامره.. تقدم بضع خطوات نحو باب المرحاض الصغير، وطلب من قاضي التحقيق أن يركع على ركبتيه بجواره، تبين أن ضوء النهار يتسرب إلى داخل المرحاض عبر الباب المزجج، وعندما يكون الباب مفتوحاً، يتسرب إلى الداخل ما يكفي من الضوء لكي ينيه المكان تماماً.. ركع كل من السيد دو ماركيه والسيد جوزيف روليتاني على ركبتيه أمام العتبة، ثم أشار الشاب بإصبعه نحو إحدى البلاطات قائلاً:

- لم ينظف الأب جاك بلاط المرحاض ولم يمسه بالماء منذ فترة من الوقت، ويمكنك أن ترى بوضوح طبقة الغبار المتراكمة فوقه. والآن، أرجو أن تُمنع النظر في هذه البلاطة، وستبصر حتماً أثر نعلين ضخمين، ورماد أسود يصاحب آثار أقدام المجرم. في الواقع، هذا الرماد هو بالطبع غبار الفحم الذي يغطي أرضية الممر الضيق الذي يتوجب على المرء أن يجتازه للوصول إلى الجناح. لا شك أنكم على علم بأن هناك قرية صغيرة، تقع بالقرب من هنا، يقطنها الفحامون. إذن، يُمكن الجزم بأن المجرم نجح في التسلل إلى هنا، بعد منتصف الظهر، عندما غادر الجميع الجناح، وأعد العدة لارتكاب جريمة السرقة.

صاح جميع الحاضرين بصوت واحد: "ولكن أية سرقة؟ وما الذي سُرِق؟ وما الذي يثبت صحة ما تقول؟".

واصل الصحفي كلامه قائلاً: "آثار السرقة التي رأيتموها".

قاطعها قاضي التحقيق الذي كان لا يزال راكعاً على ركبتيه: "ها هي...".

- بالطبع يا سيدي.

أشار القاضي إلى وجود فوق طبقة الغبار المتراكمة، وبجوار أثر النعلين الضخمين أثر بارز لطرده مستطيل الشكل وثقيل الحجم، وكان من السهل رؤية آثار الخيوط الذي رُبط بها.

- ولكن يا سيد روليتاني كيف تمكنت من الوصول إلى هذه الردهة، بالرغم من أنني أمرت الأب جاك ألا يسمح لأحد بالدخول، لقد أوكلت إليه مهمة حراسة الجناح.

- لا داعي لأن تلقي باللوم على الأب جاك يا سيدي القاضي. لقد جئت برفقة السيد روبرت دارزاك.

بدت علامات التعجب المزوجة بالاستياء على وجه السيد دو ماركيه، ثم رمق السيد دارزاك الذي لا يزال غارقاً في صمته بنظرة حائرة، وتفوه قائلاً: "آه! حقاً!".

استطرد السيد روليتاني قائلاً:

- عندما وقعت عيناى على أثر الطرد بجوار أثر النعلين الضخمين، لم يعد يساورني أدنى شك بشأن جريمة السرقة، من البديهي أن المجرم لم يتسلل إلى الردهة حاملاً الطرد، ولكنه أعد كل شيء هنا، ثم وضع الطرد في هذا الركن، عازماً أن يستعيده أثناء الهروب، كما أنه وضع نعليه الضخمين بجواره، لأنه يتضح جلياً عدم وجود أي آثار أخرى للأقدام سوى أثر النعلين الثقيلين، وهذا يفسر عدم وجود أي آثار لأقدام المجرم في المختبر أو الردهة، عقب الهروب من الغرفة الصفراء، لا شك أن المجرم خلع نعليه لأغراض أعاقا حركته، أو ربما لأنه أراد إحداث أقل قدر ممكن من الضجيج، يُمكن الجزم أيضاً بأن آثار أقدام المجرم التي خُلفت في الردهة والمختبر قد نُحيت عندما شرع الأب جاك في تنظيف البلاط ومسحه بالماء، وهذا يعني أن اللص تسلل إلى داخل الجناح عبر النافذة المفتوحة على مصراعها عندما غادر الأب جاك الجناح لبضع دقائق باحثاً عن ممسحة في القصر. من الواضح أيضاً أن القتاتل، بعدما خلع نعليه، ظل ممسكاً بهما ثم وضعهما على عتبة المرحاض بجوار الطرد، في تلك الأثناء، وقعت جريمة السرقة، ثم توجه الرجل إلى الغرفة الصفراء ليتوارى أسفل الفراش، حيث يظهر بوضوح أثر جسده المنبطح على الأرضية.

قال السيد دو ماركيه: "نعم، نعم، نحن نعلم هذا الأمر".

- لجوء المجرم إلى الاختباء أسفل الفراش يثبت حقاً أن السرقة لم تكن الدافع الوحيد للتسلل إلى الجناح، لا تخبروني أنه اتخذ قراراً فورياً بالملكوث بين جدران الجناح، واللجوء تحديداً إلى الغرفة الصفراء، حينما أبصر عبر نافذ الردهة أحد الأشخاص عائداً أدراجه ويتأهب لدخول الجناح، كان من السهل عليه أن يصعد إلى مخزن الغلال أو يتوارى عن الأنظار في أي مكان آخر، ويتحين الفرصة للهروب، لو أنه كان ينتوي حقاً الفرار هارباً. لا، لقد عزم المجرم أن يلجأ للاختباء بين جدران الغرفة الصفراء.

عندئذ، تدخل مدير الأمن ليدلو بدلوه قائلاً:

- لقد أبليت بلاء حسناً أيها الشاب! أهنتك من كل قلبي، بالرغم من أننا لم نجد تفسيراً منطقياً لكيفية هروب المجرم من الغرفة الصفراء، إلا أننا تتبعنا، خطوة بخطوة، مشهد دخوله إلى الجناح، واعتزاه السرقة، ولكن ماذا سرق المجرم أيها الشاب؟

- أشياء ثمينة للغاية.

في تلك الأثناء، تناهى إلى مسامعنا صوت صرخة مدوية منبعثة من المختبر، فهرعنا إلى هناك، وأبصرنا السيد ستانجرسون زائغ العينين ومرتحف الأطراف، يشير إلى خزانة كتب فتحها للتو، وقد بدت فارغة عن بكرة أبيها، انهار ساقطاً على مقعد موضوع أمام المكتب الخشبي، ثم أخذ ينوح قائلاً: "لقد تعرضت للسرقة للمرة الثانية". تدرجت دمعة ثقيلة حارقة ومؤلمة على وجنته، ثم أردف قائلاً: "أرجو ألا تخبروا ابنتي بهذا الحادث الأليم، ستصيبها الصدمة كالصاعقة، وسيعتصر قلبها ألماً أكثر مني".

تنفس الصعداء، ثم أطلق تنهيدة ألم طويلة ستظل محفورة في ثنانيا وجداني، وقال:

- لا بأس، لم يعد يعني شيء سوى أن تظل ابنتي الوحيدة على قيد الحياة!

قال روبرت دارزاك بنبرة مؤثرة ومثيرة للشفقة: "لا تقلق، ستظل على قيد الحياة".

قال السيد داكس: "سنعثر حتماً على المسروقات، ولكن ماذا كانت تحوي هذه الخزانة؟".

تنهد البروفيسور ذائع الصيت، ثم قال بنبرة يكسوها الحزن:

- خلاصة خمسين عاماً من الكد والعناء اللذين تخللا حياتي، أو بالأحرى حياتي وحياة ابنتي. نعم، ظلت أؤمن الوثائق، والتقارير السرية التي خلصت إليها تجاربنا وأبحاثنا طيلة عشرين عاماً حبيسة هذه الخزانة. يا لها من خسارة مفجعة لا يمكن تعويضها، وأجرؤ على القول بأنها خسارة فادحة ضربت أركان العلم، فالمرحلة التي اجتريتها بنجاح وصولاً إلى دليل قاطع يبرهن على صحة نظرية "نفكك المادة وانحلالها"، كانت مصحوبة بشروحات ومدعومة بالصور والرسوم الإيضاحية، حُزنت جميع الملفات والوثائق هنا، حوت الخزانة أيضاً مخططات لثلاث أجهزة جديدة تعد بمثابة طفرة غير مسبوقة: أحد الأجهزة كان سيصمم لمراقبة معدل الفقد بفعل الأشعة فوق البنفسجية للأجسام المكهربة مسبقاً، وجهاز آخر سيظهر مقدار الفقد الكهربائي بفعل جزيئات المادة المنحلة الموجودة في غازات الاحتراق. أما بالنسبة للجهاز الثالث فهو عبارة عن مكثف تفاضلي كهربائي مبتكر. عشرون عاماً من التجارب في مجال الكيمياء النووية وتوازنات المادة، ومخطوطة أردت نشرها تحت هذا العنوان: "المواد القابلة للاشتعال" ذهبت أدراج الرياح. هل سيقودني القدر يوماً إلى كشف النقاب عن هوية اللص الذي تسلل بجراًة إلى قصري منتزعاً مني كل شيء، ابنتي ووثاقي، قلبي وروحي.

انفجر السيد ستانجرسون في نوبة بكاء حادة كطفل صغير، فالتفتنا حوله في صمت، وقلوبنا تفيض بالشفقة على وضعه البائس. كان السيد روبرت دارزاك قد اتكأ بذراعيه على ظهر المقعد الذي يجلس عليه البروفيسور، ساعياً دون جدوى أن يكبح جماح دموعه التي دفعتني إلى التعاطف معه لوهلة من الوقت، بالرغم من نفوري الغريزي من موقفه بالغ الغرابة، وقلقه غير المبرر الذي أوحى إليّ بغموض شخصيته.

اقترب السيد روليتابي رويداً رويداً من قطعة الأثاث الفارغة، وسرعان ما أشار إليها لافتاً انتباه مدير الأمن، وكاسراً جدار الصمت المهيب المتناغم مع يأس وقنوط السيد ستانجرسون، قدم لنا بعض التفسيرات بشأن ما راوده من أفكار حول جريمة

السرقه، والتي تتطابق مع افتراضاته المذهلة المتعلقة بآثار النعلين والطرء في المرحاض، وإفراغ قطعة الأثاث من محتوياتها في المختبر، أخبرنا أن أول ما لفت انتباهه فور دخول المختبر هو الشكل غير المألوف لقطعة الأثاث، وصلابتها، وهيكلها الحديدي المقاوم للحرائق، وأثار ذهوله أن مفتاح قطعة الأثاث، المصممة دون أدنى شك لحفظ الوثائق بالغة الأهمية، تُرك في باب الخزانة: "ليس من الطبيعي أن تُترك خزانة حديدية مفتوحة أمام أي شخص ليعيث بها، هذا أمر غير منطقي وغير مبرر". وأخيراً، يبدو أن المفتاح الصغير، ذا الرأس الحديدي، مُعقد الصنع، قد لفت انتباه الصحفي الشاب الذي تملكته القنعة بأن وجود مفتاح على باب الخزانة يعد بمثابة المحرض والمحرك للجريمة السرقه، وبالفعل سرعان ما انقضت الغيوم الملبدة من أمامنا، وتجلت الحقيقة المحجوبة كشمس رابعة النهار.

ولكن، قبل أن أضع الحقائق بين أيديكم ونصب أعينكم، ينبغي أولاً أن أخبركم بأن السيد قاضي التحقيق بدا في حيرة شديدة من أمره، ولم يدر ما إذا كان ينبغي عليه أن يتجهج بما أحرزه الصحفي الشاب من تقدم في مسار التحقيق، أو ما إذا كان من الواجب أن يهوي إلى قعر الأسى والقنوط لأنه لم يحذو حذوه. تنطوي مهنتنا على إخفاقات لا حصر لها، ولكن ينبغي ألا نرزع تحت وطأة الجبن أو الهزيمة، وأن نكبح جماح كبريائنا وغطرستنا عندما يتعلق الأمر بالصالح العام. ولذلك انتصر قاضي التحقيق أخيراً على أنانيته وتردده، ورأى أنه من الصواب أن يمزج تحانيه بتهاني السيد داكس، هز الصحفي الشاب كتفيه قائلاً: "لا شكر على واجب!"، ثم أردف قائلاً:

- من الأفضل يا سيدي أن نعرف من السيد ستانجرسون من الشخص الذي يحتفظ في أغلب الأحيان بمفتاح الخزانة. أجاب السيد ستانجرسون: "ابنتي العزيزة، لم يفارق المفتاح جيب ابنتي قط".

صاح السيد دو ماركيه الذي يبدو أنه غير مقتنع بافتراضات روليتاني:

- ربما ستغير هذه المعلومة مسار التحقيق تماماً. لو أن المفتاح لم يفارق بالفعل جيب الأنسة ستانجرسون لحظة واحدة، فمن البديهي أن المجرم اختبأ في غرفة الأنسة ستانجرسون، وظل منتظراً قدومها، لينتزع المفتاح من جيبتها، ثم وقعت عملية السرقه عقب محاولة القتل! ولكن بعد الصراع الضاري الذي شهدته الغرفة الصفراء، تبين أن هناك أربعة أشخاص يقفون بين جدران المختبر! في الواقع، لم أعد أفهم شيئاً.

أجاب المراسل الصحفي: "وقعت السرقه قبل محاولة الاعتداء على الأنسة ستانجرسون، هذا أمر غير قابل للشك لأسباب تحول في خاطرك، ولأسباب أخرى لازلت مقتنعاً بها، عندما تسلل المجرم إلى الجناح كان المفتاح ذو الرأس النحاسي في حوزته دون أدنى شك".

- هذا غير معقول!

- بل معقول جداً يا سيدي، وها هو الدليل الذي يبرهن على صحة أقوالي.

أخرج الشاب الداهية من جيبه عدداً من جريدة العصر يحمل تاريخ 21 أكتوبر (من الجدير بالذكر أن الجريمة وقعت بين ليلة 24 أكتوبر وصباح يوم 25 من نفس الشهر)، ثم أشار إلى إعلان صغير، وراح يقرؤه على مسامعنا:

- فُقدت، بالأمس، حقيبة يد مصنوعة من الستان الأسود في أحد المتاجر الكبرى بمنطقة "لالوف"، تحتوي الحقيبة على العديد من الأشياء، ومن بينها مفتاح صغير ذو رأس نحاسي، وستمنح مكافأة ضخمة لمن يتمكن من العثور عليها، وأرجو أن يتكرم مشكوراً بإرسال خطاب إلى مكتب البريد رقم 40، ويضع هذا العنوان: "م. ا. ت. ي. س. ن".

ألا تعني هذه الأحرف المبهمة شيئاً بالنسبة إلى الأنسة ستانجرسون؟ أليس من المفترض أن المفتاح ذا الرأس النحاسي المفقود هو مفتاح هذه الخزانة؟ لقد اعتدت قراءة إعلانات الجريدة، وهذا الإعلان، على وجه الخصوص، أثار ذهولي، وبدا مشوباً ببعض الغموض: كيف لسيدة ناضجة أن تفقد مفتاحاً! ولماذا تتشبت بفكرة استرداده مهما كلفها الأمر، ووعدت الشخص الذي سيثر عليه بمكافأة ضخمة؟ أمعنت التفكير في هذه الأحرف الستة: "م. ا. ت. ي. س. ن"، وأدركت أن الأحرف الأربعة الأولى تشير إلى اسم "ماتيلد"، من الواضح أن المرأة التي فقدت مفتاحها ذا الرأس النحاسي تُدعى ماتيلد، لكنني لم أستطع فك طلاسم الحرفين الأخيرين، ولذلك، طويت الصحيفة، وانشغلت بشيء آخر.

بعد مرور أربعة أيام، وعندما تداولت صحف المساء خبراً مفاده "محاولة اغتيال الأنسة ماتيلد ستانجرسون"، لاحت في

ذاكرتي، وبشكل تلقائي، الأحرف الأربعة الأولى التي أدرجت في الإعلان، شبت نيران الفضول في عقلي، فطلبت من إدارة الجريدة العدد الصادر في ذلك اليوم، فقد نسيت الحرفين الأخيرين: س. ن. عندما وقعت عيناى على الحرفين مرة أخرى، لم أقو على كبح جماح صيحة مدهوشة قائلاً: "ستانجرسون". قفزت في سيارة أجرة متوجهاً إلى مكتب البريد رقم 40، وهناك طرحت هذا السؤال على أحد الموظفين: "سيدي، هل لديك خطاب يحمل هذا العنوان: "م. ا. ت. ي. س. ن"، فأجابني قائلاً: "لا يا سيدي"، وعندما رأي لحوماً في سؤالى، متوسلاً إليه أن يُعمن النظر، أجابني: "سيدي، هذه مجرد مزحة حمقاء! نعم، تلقيت خطاباً يحمل هذه الأحرف "م. ا. ت. ي. س. ن"، ولكنني، منذ ثلاثة أيام أعطيته لسيدة طلبت أن تأخذه، أتيت اليوم بدورك لتسألني بشأن هذا الخطاب، وأول أمس جاءني رجل يلتمس مني بإصرار بغيبض، أن أعطيه إياه، لقد ضقت ذرعاً بهذا الهراء!". أردت أن أطرح عليه سؤالاً بشأن هوية الشخصين اللذين طلبا الرسالة، لكنه لم يُعربي أدنى انتباه.

غرق روليتابي في لجة من الصمت، وخيم الصمت المطبق على الجميع الذين شردوا بتفكيرهم وصاغوا فرضياتهم بشأن قصة رسالة البريد المثيرة للغرابة. في الواقع، يبدو أننا أمسكنا بحيط رفيع يُمكن من خلاله تتبع هذه القضية صعبة المنال. تملل السيد ستانجرسون قليلاً في جلسته، ثم قال: "ربما فقدت ابنتي بالفعل هذا المفتاح اللعين، ولم ترغب في إخباري بالأمر كي لا تثير قلقي ومخاوفي، ومن الواضح أيضاً أنها طلبت بالفعل من الشخص الذي سيعثر عليه أن يرسل خطاباً إلى مكتب البريد. يتملكني يقين بأنها لم تعط أية تفاصيل أخرى بشأن عنواننا خشية ألا يتطور الأمر، وأصبح على علم بفقدان المفتاح. هذا أمر بديهي ومنطقي للغاية يا سيدي، فقد تعرضت للسرقة من قبل!". سأل مدير الأمن: "متى تعرضت للسرقة؟ وأين؟".

- منذ سنوات عديدة، في أمريكا، في ولاية فيلادلفيا. سرق من مختبري سر اختراعين كان من الممكن أن يعودا بنفع كبير على البشرية جمعاء. لم أَسعَ لمعرفة اللص الحقيق الذي سلبني الاختراعين، ولم أتطرق في أحاديثي إلى موضوع السرقة، ربما لأنني عزمت على إفشال مخططات الشخص الذي سرقني، وبات الاختراعين يؤولان إلى الملك العام، فأضحت عملية السرقة غير مجدية. منذ ذلك اليوم، حاصرني الشكوك والمخاوف فقررت أن أنزوي بعيداً عن أنظار المتطفلين، وأظل حبس جدران مختبري لفترة طويلة من الوقت، قادتني مخاوفي إلى تزويد النوافذ بقضبان حديدية صلبة، والانعزال في هذا الجناح، وأن أصنع بنفسى قطعة أثاث متميزة، وقفل خاص، ومفتاح فريد من نوعه، لجأت لاتخاذ هذه الإجراءات الاحترازية نظراً لمخاوفي المستوحاة من تجربتي السابقة التي أرقت تفكيري وأقضت مضجعي.

تبين بالفعل أن السيد ستانجرسون والأب جاك لم يريا حقيقة اليد المصنوعة من الستان الأسود منذ عدة أيام. بعد مرور سويغات قليلة، أخبرتنا السيدة ستانجرسون أن الحقيقة سُرقَت منها، أو ربما فقدتها، وأن الأمور سارت كما قصها والدها على مسامعنا، وأنها توجهت إلى مكتب البريد رقم 40 في يوم 23 أكتوبر، وأكدت أن الموظف أعاد إليها خطاباً لا يمثل سوى دعاية سخيفة، فأحرقتة على الفور.

وبالعودة إلى استجوابنا، أو بالأحرى "نقاشنا"، تجدر الإشارة إلى أن السيد مدير الأمن، بعد أن وجه سؤالاً إلى السيد ستانجرسون بشأن الظروف التي في ظلها توجهت الابنة إلى باريس في يوم العشرين من أكتوبر، يوم فقدان حقيبة اليد المصنوعة من الستان، تبين أنها ذهبت إلى هناك برفقة السيد روبرت دارزاك الذي لم يراه أحد في القصر منذ تلك اللحظة وحتى اليوم التالي لوقوع الجريمة. في الواقع، كان السيد روبرت دارزاك لا يزال برفقة الأنسة ستانجرسون لحظة فقدان حقيبة يدها في أحد متاجر منطقة "لالوف".

لم يكد النقاش الدائر بين القضاة، والمتهمين، والضحية، والشهود، والصحفي الشاب، ينتهي حتى وقع حادث مباغت قلب الأمور رأساً على عقب.. جاء عميد الشرطة مخبراً إيانا أن فريدريك لارسان يرغب في الانضمام إلينا، فسمح له بالدخول على الفور.. أبصرناه ممسكاً بزوج ضخ من الأحذية ملطخ بالوحل، ثم ألقاه على أرضية المختبر قائلاً:

- ها هو الحذاء الذي كان يرتديه المجرم! هل تعرف صاحبه أيها الأب جاك؟  
انحنى الأب جاك قليلاً نحو الحذاء الموحل، فغارت على ملاحه جيوش الدهول حين أدرك أنه متسمر أمام حذائه القديم

الملقى، منذ فترة من الوقت، في أحد أركان غرفته الواقعة في الطابق العلوي، أبدى الأب جاك انزعاجاً كبيراً حتى أنه راح يسعل عدة مرات ساعياً لإخفاء مشاعره المضطربة. عندئذ، أخرج السيد لارسان منديلاً من جيبه، وأشار إليه قائلاً: "ها هو منديل الأب جاك والذي يشبه تماماً المنديل الملطخ بالدماء الذي عثرنا عليه في الغرفة الصفراء".

صاح الأب جاك مرتجفاً: "نعم، هذا هو منديلي، إنهما متشابهان بالفعل".

- أخيراً، وها هي القبة المستديرة الناعمة ذات القمة المسطحة التي عُثر عليها أيضاً في الغرفة الصفراء، والتي كان يرتديها منذ فترة من الوقت الأب جاك. سيديّ العزيزين، مدير الشرطة وقاضي التحقيق، بناء على هذه الأدلة القاطعة يتضح أن المجرم سعى جاهداً لطمس معالم شخصيته، لقد تصرف بطريقة فجأة إلى حد كبير، لأننا نثق تمام الثقة بأن القاتل لم يكن الأب جاك، الذي لم يفارق السيد ستانجرسون لحظة واحدة، ولكن، دعونا نتخيل أن السيد ستانجرسون لم يستمر في عمله الدؤوب حتى ساعة متأخرة من الليل، وعاد أدراجه إلى القصر بعد الاطمئنان على ابنته، وأن السيدة ستانجرسون تعرضت للقتل عندما لم يتبق أحد في المختبر، وكان الأب جاك قد خلد إلى فراشه في الطابق العلوي، لكان من المتوقع أن تلصق تهمة القتل العمد بالأب جاك دون محالة! ظن القاتل - نظراً لأن الصمت كان يخيم على شتى أرجاء الجناح - أن المختبر خالٍ من البشر، وأن لحظة شن الهجوم قد حانت. لا شك أن المجرم الذي نجح في التسلل إلى داخل الجناح، بطريقة يكتنفها الغموض، متوخياً أقصى درجات الحيلة والحذر، تردد كثيراً على الجناح. ولكن متى جاء إلى هنا؟ في فترة ما بعد الظهر؟ في المساء؟ من الصعب تحديد ذلك، ولكن، من المؤكد أن الشخص الذي جاء إلى هنا على دراية بشتى تفاصيل المكان، ونجح في ولوج الغرفة الصفراء في الوقت المناسب.

صاح القاضي قائلاً: "ولكن، من البديهي أنه لم يتسلل إلى داخل الجناح لحظة وجود أشخاص في المختبر، أليس كذلك؟".  
- وما أدراننا! تناول السيد ستانجرسون والأنسة طعام العشاء في المختبر، وظل الخدام يأتون ويغادرون بين الفينة والأخرى، كما أن هناك تجربة كيميائية قد أجريت ما بين الساعتين العاشرة والحادية عشر، وظل السيد ستانجرسون والأنسة واقفين أمام الأفران، في هذا الركن بالقرب من المدفأة، من يتفق معي أن المجرم تردد مراراً وتكراراً على المكان! وأنه استغل اللحظة المناسبة لدخول الغرفة الصفراء، بعد أن خلع نعليه في المرحاض!

- قال السيد ستانجرسون: "هذا أمر بعيد الاحتمال".

- بلا شك، ولكن ليس مستحيلاً، ولذلك، لا أجزم بشيء، أما بالنسبة لهروبه، فهذه قصة أخرى، كيف تمكن القاتل من الهروب؟ بأكثر الطرق بساطة.

لاذ لارسان بالصمت برهة من الوقت، بدت بالنسبة لجميع الحاضرين قرناً من الزمان، تحرقنا شوقاً لأن يفك طلاسم اللغز، وأن يتحدث بعبارات واضحة ومفهومة ففتح فاه أخيراً، وأردف قائلاً:

- في الواقع، لم تطأ قدمي الغرفة الصفراء، ولكن يغامرني شعور بأنكم جميعاً مقتنعون بأن المجرم لم يهرب إلا عبر هذا الباب، وبالفعل، ها هو الباب الذي غادر القاتل عبره، وبما أنه من المستحيل أن يلوذ بالفرار عبر أي منفذ آخر، فيمكن الجزم بأن اللص اقترف جريمته وخرج عبر الباب! في أي وقت! عندما رأى أن الفرصة صارت سانحة! ولذلك، دعونا نتفحص بإمعان "اللحظات السانحة" التي أعقبت الجريمة، هناك اللحظة الأولى، حيث كان الباب موصداً بإحكام، وكان المجرم على أهبة الاستعداد للخروج، لكنه توقع أن الأب جاك والسيد ستانجرسون سيعوقان طريقه وسيلقيان القبض عليه. وهناك اللحظة الثانية، حيث غاب الأب جاك لفترة من الوقت، وظل السيد ستانجرسون واقفاً بمفرده أمام الباب المغلق بإحكام. وهناك اللحظة الثالثة، حيث حضر حارس القصر لموازة السيد ستانجرسون. وهناك اللحظة الرابعة، حيث ظهر السيد ستانجرسون، وحارس القصر وزوجته، والأب جاك أمام باب الغرفة. وهناك اللحظة الخامسة، حيث فُتح الباب عنوة، وأقتنحت الغرفة الصفراء.

من المفترض أن اللحظة المواتية للهروب هي تلك التي اجتمع فيها أقل عدد من الأشخاص أمام باب الغرفة، وهناك لحظة حاسمة لم يتبق فيها سوى شخص واحد، عندما ترك السيد ستانجرسون بمفرده أمام الباب... ولأننا لم ندع لفكرة التواطؤ الصامت من قبل الأب جاك، فهذه فكرة مستبعدة من وجهة نظري، نظراً لأن الأب جاك لم يكن بمقدوره أن يغادر

الجناح، ويهرول راكضاً ساعياً لتفحص نافذة الغرفة الصفراء، لو أنه أبصر باب الغرفة مفتوحاً وتيقن من هروب القاتل. إذن، لم يُفتح الباب إلا حينما ظل السيد ستانجرسون بمفرده واقفاً أمامه، ثم لاذ المجرم بالفرار. إذن، ينبغي علينا الاعتراف بأن هناك أسباباً كامنة وراء عدم رغبة السيد ستانجرسون في اعتراض طريق المجرم أو الإمساك به، طالما أنه سمح له بالركض نحو نافذة الردهة، ثم أغلقها وراءه بعد أن لاذ بالفرار!

ومن ثم، بينما كان الأب جاك عائداً أدراجه، وكان من المفترض أن يجد كل شيء في موضعه غير مشوب بأي تغيير أو تبديل، استجمعت الأنسة ستانجرسون المصابة بجروح بالغة الخطورة شتات قواها الخائرة، ربما انصياعاً لأوامر والدها، ثم أغلقت مرة أخرى باب الغرفة الصفراء من الداخل بواسطة المفتاح والقفل، قبل أن تنهار محتضرة وتسقط مجدداً على الأرض. لم تُكشف هوية مرتكب الجريمة، ولا ندري ما إذا كان السيد ستانجرسون والأنسة ضحيتين بئستين أم لا، ولكن لا شك أنهما على علم بكل هذه الأمور المبهمة، لا شك أن هناك سرّاً خطيراً لا يزال كامناً في الصدور، سر خطير دفع الأب ألا يتردد في ترك ابنته الغارقة في دمائها وراء هذا الباب المغلق من الداخل، وأن يترك المجرم ليلوذ بالفرار. ليس بمقدور أحد في العالم بأسره أن يقدم تفسيراً منطقياً آخر حول كيفية هروب القاتل من الغرفة الصفراء!

أعقب هذا التفسير المأساوي المهر صمت مطبق وسكون مريع. انفطرت قلوبنا من الحزن والشفقة على البروفيسور ذائع الصيت، ثم رأيناه ينهض عن مقعده، كتمثال لا روح له يُجسد أقصى درجات الألم والمعاناة، ثم مد يده بإيماءة ملؤها المهابة حتى أننا أحنينا رؤوسنا وكأننا نتطلع إلى شيء مقدس ومهيّب، ثم تفوه بهذه الكلمات بصوت جهوري، وكأنه يستنفد كل طاقته:

- أقسم بحياة ابنتي التي ترقد بين الحياة والموت، أنني لم أبرح مُطلقاً من أمام هذا الباب، منذ اللحظة الأولى التي تناهت فيها إلى أذنيّ صيحتها اليائسة، وأن الباب لم يُفتح قط عندما وقفت بمفردي بين جدران مختبري، وأنه، فور ولوجي الغرفة الصفراء برفقة خدامي الثلاثة، لم أجد أي أثر للمجرم! وأقسم أنني لا أعرف شيئاً عن المجرم!

هل من الواجب أن أخبركم بأنه بالرغم من هذا القسم المهيّب، ظلت الشكوك تحاصرنا بشأن ما تفوه به السيد ستانجرسون؟ يُمكن القول بأن لارسان أعطانا للتو لمحة سريعة عن الحقيقة المتوارية عن الأنظار، ولذلك ظلت هذه الكلمات عالقة في أذهاننا لفترة طويلة من الوقت. وفور أن أعلن قاضي التحقيق أن "النقاش" قد أُسدل الستار عليه، وتأهنا جميعاً للانصراف ومغادرة المختبر، دنا المراسل الشاب من السيد ستانجرسون، ثم أمسك بيده مبدئياً احتراماً كبيراً، ثم سمعته يهمس في أذنه قائلاً:

- أصدق ما قلته يا سيدي.

## الفصل الثاني عشر

### عصا فريدريك لارسان

لم أتأهب لمغادرة القصر إلا بحلول الساعة السادسة مساءً تقريباً، حاملاً في جيبتي المقال الصحفي الذي سطره صديقي، وهو في عجلة من أمره، بين جدران غرفة المعيشة الصغيرة التي وضعها السيد روبرت دارزاك تحت تصرفنا. كان لزاماً على صديقي الشاب أن يبيت ليلته في القصر، متمتعاً بكرم ضيافة السيد روبرت دارزاك غير المبرر. ومع ذلك، أصر روليتاني أن يصحبني إلى محطة قطار "إبناي"، وبينما نجتاز حديقة القصر، أخبرني قائلاً:

- يتمتع فريدريك لارسان بذلك مفرد، ونبوغ فريد من نوعه، وجدير بأن يذاع صيته، فقد رأيت بنفسك كيف نجح في العثور على حذاء الأب جاك! لقد عثر عليه بالقرب من المكان الذي لاحظنا فيه آثار الحذاء العصري الأنيق، واختفاء آثار الحذاء الضخم. أمعن لارسان النظر في حفرة مستطيلة الشكل أخذت شكل قطعة من الحجر، في قلب الأرض الموحلة، ظل يبحث عن الحجر، وتبين أن المجرم انتزعه من الأرض ليخفي أسفله الحذاء الذي أراد أن يتخلص منه في قاع بركة المياه. لقد أبلى لارسان بلاءً حسناً، ونجح في بلوغ الهدف المنشود. لقد فاتتني هذه الملاحظة، ولكن ينبغي الاعتراف بأن ذهني في تلك الأثناء، كان شاردًا في مكان آخر جراء الآثار الزائفة التي خلفها المجرم وراءه، وعقد مقارنة بين الآثار السوداء وآثار نفس نعلي الأب جاك التي تركت في الغرفة الصفراء.

في تلك الأثناء كنا نمر خلف القصر، وكان الليل قد أسدل ستارته.. أبصرنا نافذة مواربة في الطابق الأول، ينبعث منها صوت خافت ممتزج ببعض الجلبة التي أثارت فضولنا. تقدمنا بضع خطوات حتى بلغنا زاوية باب يقع أسفل النافذة، فهمس روليتاني في أذني بصوت خفيض مخبراً إيائي بأننا نقف الآن أسفل إحدى نوافذ غرفة الأنسة ستانجرسون، تلاشت فجأة الأصوات الممتزجة التي أثارت انتباهنا، ثم استؤنفت لبضع ثوانٍ... تناهى إلى مسامعنا صوت أنين مختنق، ولكن لم تلتقط آذاننا سوى بضع كلمات يمكن تمييزها بوضوح: "يا لك من مسكين يا روبرت!". وضع روليتاني يده برفق على كتفي، ثم همس مرة أخرى قائلاً:

- لو أنني أرهفت السمع، ونجحت في معرفة ما يقال بين جدران هذه الغرفة، فسوف أنهي تحقيقي في أسرع وقت ممكن. راح روليتاني يتطلع حوله، فقد اتشح المكان بظلمة خفيفة، ولم تتمكن من رؤية ما يدور وراء الحشائش المصطفة على جانبيها أشجار كثيرة ممتدة خلف القصر، تلاشى الأنين مرة أخرى فأردف روليتاني: "بما أننا لن نتمكن من سماع الصوت، فمن الأفضل أن نرى ما يجري".

أمسكني من ذراعي، ثم طلب مني أن أكتف صوت خطواتي، وأبصرنا خلف الحشائش، شجرة بتولا قوية يبرز لحاؤها أبيض اللون في الظلام، وتتصب مباشرة أمام النافذة المثيرة للفضول، حيث تمتد أغصانها الوارفة وصولاً إلى الطابق الأول للقصر، يُمكن لأي شخص، لو نجح في تسلق أغصان الشجرة، أن يرى بوضوح كل ما يدور في غرفة الأنسة ستانجرسون؛ راودت هذه الفكرة، دون شك، ذهن روليتاني، فبمجرد أن أمرني بأن ألزم الصمت، احتضن جذع الشجرة بكلتا ذراعيه المفعمين بالحيوية والنشاط، وراح يتسلقها، ثم سرعان ما توارى بين الأغصان، وخيم الصمت المطبق على المكان. كان الضوء لا يزال منبعثاً من النافذة المواربة، ولم يبرز أي ظل.. خيم السكون على الأغصان الممتدة فوق رأسي، فأرهفت السمع، ثم التقطت أذناي فجأة هذه العبارات:

- تفضل أنت أولاً!

- لا، أرجو أنت تتفضل أنت أولاً!

هناك شخصان يتجاذبان أطراف الحديث فوق رأسي، يتبادلان الحديث بنبرة ملؤها الاحترام، والأمر المثير للذهول والرعب هو بروز هيمتين بشريتين فوق الشجرة، وسرعان ما لامست أقدامهما الأرض! لقد تسلق روليتاني الشجرة بمفرده، وها هو يهبط برفقة شخص آخر يخاطبني قائلاً:

- مرحباً يا سيد سينكلير!

إنه فريديريك لارسان بشحمه ولحمه، لقد كان رجل الشرطة المخضرم يشغل مركز المراقبة عندما ظن صديقي الشاب أنه

سيبلغ قمة الشجرة بمفرده. وبالرغم من ذلك، لم يعبأ الرجلان بدهشتي، أدركت أنهما شاهدا من مرصدهما الحصين، مشهداً مؤثراً مفعماً بمشاعر الحب والقنوط بين الأنسة ستانجرسون، المستلقية في فراشها، والسيد دارزاك الراكع على ركبتيه بجوار الفراش، راح كل واحد منهما يستخلص متوخياً أقصى درجات الحذر الاستنتاجات ويصيغ الفرضيات. من الواضح أن المشهد قد أحدث تأثيراً كبيراً في ذهن روليتاي، "الصالح السيد روبرت دارزاك"، في حين أن تأثيره على لارسان أزاح الستار عن مشاعر النفاق والخداع التي يُبديها بمهارة لا تضاهي خطيب الأنسة ستانجرسون، وفور بلوغنا بوابة القصر الرئيسية، توقف لارسان فجأة، ثم صاح قائلاً: "عصاي!".

سأله روليتاي بلهفة: "هل نسيت عصاك؟".

- نعم، لقد تركتها هناك، بالقرب من الشجرة".

تركنا لارسان قائلاً أنه سيعود بعد بضع دقائق، عندما صرنا بمفردنا، سألتني صديقي: "هل أبصرت عصا فريدريك لارسان؟ إنها تبدو جديدة للغاية، ولم أرها معه من قبل، يبدو أنها تمثل بالنسبة له شيئاً بالغ القيمة، لا تفارق يده لحظة واحدة، من الواضح أنه يخشى وقوعها في أيدي غريبة. تلك هي المرة الأولى التي يحمل فيها لارسان عصا، ولكن أين عثر عليها؟ ليس من الطبيعي أن شخصاً لم يمسك بعصا من قبل، لا يخطو خطوة واحدة بدونها بدءاً من اليوم التالي لوقوع الجريمة، عندما وطئت أقدامنا القصر والتقينا به لأول مرة، لاحظت أنه يعيد ساعته إلى جيبه ويلتقط عصاه من الأرض. في الواقع، لم أعر انتباهاً ملحوظاً لهذا التصرف غير المألوف".

غادرنا حديقة القصر، ولم ينبس روليتاي بكلمة واحدة، باغتني شعور بأن جل أفكاره تتمحور حول عصا فريدريك لارسان، وقد تملكني اليقين مما جال في خاطري فور بلوغ محطة قطار إبناي، فقد خاطبني صديقي قائلاً:

- وصل فريدريك لارسان إلى قصر جلاندييه قبل أن تطأه قدماي، وكان لديه متسعاً من الوقت للعثور على أشياء لا أعرفها، أين تمكن من العثور على هذه العصا؟

ثم أردف: "من المحتمل أن شكوكه التي تحوم حول روبرت دارزاك تستند إلى دليل ملموس غائب عن ذهني، هل يكمن هذا الدليل في العصا؟ أين تمكن هذا الشرطي الداهية من إيجادها؟".

كان لزاماً علينا أن ننتظر القطار لمدة عشرين دقيقة، فقررنا دخول إحدى الحانات، وعلى الفور تقريباً، فُتح الباب مرة أخرى، وظهر فريدريك لارسان ملوحاً بعصاه الشهيرة، ثم قال ضاحكاً: "لقد وجدتها!". جلسنا نحن الثلاثة على إحدى الطاولات، ولم يرفع روليتاي عينيه عن العصا مستغرقاً في تفكير عميق، وبلغ به الأمر ألا يلاحظ الإيماءة التي أشار بها لارسان إلى أحد موظفي السكك الحديدية، وهو شاب تكسو ذقنه لحية شقراء صغيرة غير مشدبة. نهض الشاب عن مقعده، ودفع ثمن المشروبات، ثم ألقى التحية، وغادر. لم أعلق أية أهمية على هذه الإيماءة التي لاحت في ذاكرتي بعد بضعة أشهر، عندما وقعت عيناى على اللحية الشقراء في واحدة من أكثر اللحظات المساوية التي تتسم بها هذه القصة المثيرة للفضول. أدركت آنذاك أن الرجل ذا اللحية الشقراء هو أحد رجال لارسان، وهو مكلف بمراقبة القادمين والمسافرين عبر محطة قطار إبناي. رمقت روليتاي بنظرة خاطفة ربما حثته على الكلام، ففتح فاه قائلاً:

- سيد فريد، منذ متى وأنت تمتلك هذه العصا، لقد اعتدت أن أراك تتمشى ويداك في جيوبك!

- إنها هدية قدمها إليّ أحد الأشخاص.

- منذ وقت ليس ببعيد، أليس كذلك؟

- لا، لقد قُدمت إليّ في لندن.

- هذا صحيح، علمت أنك عدت مهرولاً من لندن، هل يمكنك أن ألقى نظرة على العصا؟

- بالطبع.

أعطى فريد العصا إلى روليتاي، وتبين أنها مصنوعة من الخيزران الأصفر، معقوفة الرأس، يزينها طوق ذهبي اللون. راح روليتاي يتفحصها بإمعان، ثم قال، وهو يرفع رأسه متهمكماً: "حسناً، لقد قدموا إليك في لندن عصا فرنسية الصنع، يمكنك قراءة الأحرف المحفورة عليها".

قال فريد بنبرة غير مكترثة: "هذا أمر وارد، تُغسل ملابسنا في لندن، ويُمكن للإنجليز شراء عصيهم من باريس".  
أعاد روليتابي العصا إلى صاحبها، وعندما أدخلني إلى مقصورة القطار، خاطبني قائلاً:

- هل لازلت تتذكر الكلمات المحفورة على العصا؟

- نعم، "كاسيت، شارع رقم 6، الأوبرا"، يُمكنك الاعتماد عليّ، وسأوافيك بالرد صباح الغد.  
انطلقت إلى باريس، والتقيت، في نفس الليلة، بالسيد كاسيت، وهو أحد أشهر تجار العصي والمظلات، ثم أرسلت إلى صديقي هذه الرسالة:

- جاء شخص، يحمل نفس ملامح روبرت دارزاك: طويل القامة، محني الظهر قليلاً، لديه نفس اللحية الدائرية، ويرتدي معطفاً جلدياً طويلاً، وقبعة مستديرة صلبة من اللباد، من أجل شراء عصا شبيهة بتلك التي أثارت فضولنا، لم يبع السيد كاسيت عصا مماثلة منذ عامين، كما أن تلك التي يحملها فريد جديدة، ولا شك أنه لم يبتعها من باريس، لأنه في تلك الأثناء تواجد في لندن لأداء مهمة سرية. يملكني يقين مثلك تماماً بأنه عثر عليها في مكان ما بالقرب من السيد روبرت دارزاك، وبما أن المجرم وفقاً لتحرياتك ظل محتبئاً بين جدران الغرفة الصفراء، منذ الساعة الخامسة أو السادسة، وأن الجريمة وقعت في منتصف الليل تقريباً، فمن البديهي أن شراء هذه العصا يُعد بمثابة دليل يتعذر دحضه لصالح السيد روبرت دارزاك.

## الفصل الثالث عشر

لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهورة بالألوان الصاخبة لم يذبل

بعد مرور ثمانية أيام من الأحداث التي سردها للتو، وتحديداً في يوم الثاني من نوفمبر، تلقت برقية في منزلي الواقع في باريس، وجاء نصها كالتالي:

- لا تتوانَ عن المجيء إلى قصر "جلاندييه"، ينبغي أن تستقل أول قطار، ولا تنسَ إحضار مسدسين، لك مني أطيب التحيات، صديقك روليتابي.

وكما أشرت مسبقاً، كنت في ذلك الوقت محامياً شاباً متمرنًا، غير مسموح لي بالتراجع أمام محكمة الجنايات، ولذلك ترددت على قصر "جلاندييه" بدافع أداء واجباتي المهنية، وليس من أجل الدفاع عن الأرملة واليتيم، ولم يملكني الدهول حين أدركت أن وقتي بالكامل أصبح تحت تصرف روليتابي، فهو كان على علم أيضاً بأنني شغوف بمغامراته الصحفية بشكل عام، ولا سيما قضية قصر جلاندييه" التي لم تصلني أية أخبار بشأنها منذ ثمانية أيام، باستثناء شائعات لا حصر لها تداولتها الصحف، وبعض المقالات الموجزة المذيلة بتوقيع روليتابي في جريدة "العصر". في الواقع، ألفت هذه المقالات الضوء على الضربة المبرحة التي وجهت للآنسة ستانجرسون بواسطة "عظمة الخروف"، وأشارت إلى أن الآثار المتبقية على عظمة الخروف هي بالفعل بقع "دم بشري جاف"، بالإضافة إلى آثار دماء الآنسة ستانجرسون، يُمكن الجزم بأن بقع الدم الجاف هي آثار قديمة لجرائم عديدة ارتكبت خلال السنوات الماضية.

صارت القضية أحداثاً صحف العالم بأسره، وألهبت فضول المتابعين في شتى بقاع الأرض لفترة طويلة من الوقت. ولكن، انتابني شعور بأن التحقيقات لم تحرز تقدماً كبيراً، وغُمر قلبي بهجة عارمة إثر تلقي دعوة صديقي للانضمام إليه في قصر "جلاندييه"، حتى وإن حوت البرقية هذه العبارة المثيرة للدهشة: "لا تنسَ إحضار مسدسين". كنت أتحرق شوقاً لمقابلة روليتابي في محطة قطار إبناي، ولكنه لم يحضر إلى هناك. وبالرغم من ذلك، وقعت عيناي على العربة المكشوفة التي يجرها زوج من الخيل، فصعدت على متنها، وسرعان ما وصلت إلى قصر جلاندييه، لم أبصر أحداً بجوار البوابة الرئيسية، وفور أن وطلعت قدماي عتبة القصر، جاء الشاب لملاقاتي. استقبلني بود وترحاب شديدين، ثم أخذني بين ذراعيه، وسألني بإسهاب عن أخبار صحي. عندما ولجنا غرفة المعيشة القديمة الصغيرة التي وُضعت تحت إمرتنا، طلب روليتابي مني الجلوس، ثم همس في أذني على الفور:

- فريدريك لارسان يشن حرباً هوجاء ضد روبرت دارزاك.

لم يُثر هذا الخبر ذهولي، فقد رأيت خطيب الآنسة ستانجرسون، منذ بضعة أيام، غارقاً في شحوب الموتى فور أن أزيح الستار عن آثار قدميه. ولكنني سألت روليتابي بلهفة قائلاً:

- حسناً، وماذا عن العصا؟

- العصا! لا تفارق يد الشرطي الشهير لحظة واحدة.

- ولكن، ألا تعتبر هذه العصا بمثابة دليل داعم للسيد روبرت دارزاك، يبرهن على صحة عدم وجوده أثناء وقوع الجريمة؟

- مُطلقاً، لقد انتزعت الإجابة من بين شفتي روبرت دارزاك بدهاء وبنبرة ملؤها الود، ونفى بالفعل أنه أقدم على شراء عصا من متجر كاسيت ليلة وقوع الجريمة، أو في أية ليلة أخرى. في أغلب الأحيان، يغرق دارزاك في لجة من الصمت المطبق تقودني لإمعان التفكير ألف مرة فيما يتفوه به!

الوقت لا يشكل أية أهمية بالنسبة لفريدريك لارسان، فهو غير مجبر على تبني منهجتي المنطوية على تسلل المجرم إلى الغرفة الصفراء ما بين الساعتين الخامسة والسادسة، أليس من المفترض أن المجرم لم يصطدم بأية عقبات أو عراقيل، تحول بينه وبين ولوج الغرفة الصفراء بين الساعة العاشرة والحادية عشر مساءً؟ في تلك الأثناء كان البروفيسور والآنسة ستانجرسون بمساعدة الأب جاك، يجريان تجربة كيميائية مثيرة في المنطقة التي تشغلها الأفران في المختبر. يزعم لارسان أن المجرم انسل من خلفهم، وهذا أمر يبدو غير منطقي، لقد ردد هذه التفاصيل مراراً وتكراراً على مسامع قاضي التحقيق، ولو أننا تفحصنا الأمر عن كثب، ينتاب المرء شعور بأن منطق المدعو لارسان يبدو مشوباً بالسخافة والتفاهة، نظراً لأن المجرم من الواضح أنه اعتاد

التردد على المكان - تردد عليه كثيراً - لدرجة أنه كان على علم بأن البروفيسور على وشك مغادرة الجناح، ولكي يظل في مأمن من كافة العيون، لم يستأنف مهمته المخفوفة بالمخاطر إلا بعد أن غادر البروفيسور. لماذا يُقدم على المجازفة بحياته مجتازاً المختبر في حين أنه على علم بأن البروفيسور لم يرح مكانه؟ كان من الضروري إلقاء الضوء على العديد من النقاط قبل إطلاق العنان لأفكار وتخيلات لارسان. لن أهدر وقتي الثمين مصداقاً هذه الهراءات، فأنا أتبنى منهجية لا تقبل الجدل تجعلني بمنأى عن هذه التخيلات! هناك دلائل أخرى تشير بأصابع الاتهام إلى السيد دارزاك، بخلاف قصة العصا والتي لا تزال غير مفهومة ومشوبة بالغموض، فمن الغريب أن السيد لارسان لا ينتابه أي شعور بالانزعاج عندما يظهر هذه العصا أمام السيد دارزاك! يُمكنني سبر أغوار الكثير من أسرار لارسان، ولكنني، حتى هذه اللحظة، أعجز عن إدراك السر الكامن وراء هذه العصا.

- هل لا يزال فريديريك لارسان في القصر؟

- نعم، لم يرح القصر ألبتة! يخلد إلى النوم في إحدى الغرف بناء على أوامر السيد ستانجرسون. لقد تلقى من السيد ستانجرسون نفس المعاملة التي تلقيتها من السيد روبرت دارزاك. حرص السيد ستانجرسون، بعدما أُلصقت به تهمة التواطؤ مع الجرم وتسهيل عملية هروبه، على أن يوفر له كل الوسائل الممكنة لإزاحة الستار عن الحقيقة، وقد تعامل السيد روبرت دارزاك معي بنفس الطريقة.

- هل أنت مقتنع ببراءة السيد روبرت دارزاك؟

- اعتقدت لأول وهلة أنه الفاعل الأصلي للجريمة، ولكن حان الوقت لأطلعك على تفاصيل الحوار الذي دار بيني وبين السيد دارزاك.

عندئذ، قاطعني روليتابي وسألني عن المسدسين، فأريتته إياهما، وراح يتفحصهما بإمعان قائلاً: "هذا رائع"، ثم أعادهما إليّ، فطرحت عليه هذا السؤال:

- هل سنكون بحاجة إليهما؟

- بالطبع، هذه الليلة، سوف نقضي هذه الليلة هنا، هل لديك مانع؟  
أجبت بتجهم أثار قهقهة روليتابي: "لا يوجد أي مانع".

- حسناً، هيا، كفانا ضحكاً، ودعنا نتحدث بجدية. هل تتذكر كلمة السر التي ستفك طلاس هذا القصر المليء بالغموض؟

- نعم، أتذكرها تماماً: لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل، تلك العبارة التي دُوتت على قصاصة الورق نصف المحترقة التي عثرت عليها في المختبر، أليس كذلك؟

- نعم، ذُيلت الورقة بهذا التاريخ: "23 أكتوبر". ينبغي أن يظل هذا التاريخ بالغ الأهمية محفوراً في ثنايا ذاكرتك، سأخبرك الآن بفحوى هذه العبارة المثيرة للغربة. قبل يومين من وقوع الجريمة، أي يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، توجه السيد ستانجرسون والأنسة لحضور حفل استقبال في القصر الجمهوري، وهناك تناولوا طعام العشاء ولم يغادرا الحفل، لقد رأيتهما بأم عيني، فقد ذهبت إلى القصر لإجراء مقابلة مع أحد علماء أكاديمية فيلادلفيا الذين احتفي بهم في ذلك اليوم. كنت جالساً آنذاك في غرفة الاستقبال المجاورة لغرفة السفراء، وقد أصابني الضجر والملل من توافد العديد من الشخصيات الهامة، فاستغرقت في أحلام اليقظة المبهمة حين اشتمت أنفي أريج عطر السيدة ذات الرداء الأسود. ولا شك أنك ستسألني قائلاً: "ما عطر السيدة ذات الرداء الأسود؟"، وسأجيبك بأنه أكثر العطور المفضلة بالنسبة لي، لأنه كان يفوح دائماً من سيدة اعتادت ارتداء الملابس السوداء، ولطالما أثارت إعجابي بمشاعرها الأمومية المتدفقة في ريعان شبلي.

في تلك الليلة، أدركت أن السيدة التي فاح منها "عطر السيدة ذات الرداء الأسود"، ترتدي ثياباً بيضاء، وتتمتع بجمال أخاذ. لم يسعني سوى أن أخض عن مقعدي مقتفياً أثرها ومتتبِعاً أريج عطرها. لاح أمامي رجل عجوز شبك ذراعه بذراعها، وسمعت الناس يهمسون قائلين: "إنه البروفيسور ستانجرسون وابنته!". التقيا بالسيد روبرت دارزاك الذي كنت أعرفه دون أن تربطني به أية علاقة. جلس السيد ستانجرسون في الشرفة ليتجاذب أطراف الحديث مع أحد أشهر العلماء

الأمريكيين السيد "آرثر رانس"، بينما اصطحب السيد روبرت دارزاك الأنسة في نزهة بحديقة القصر. تتبعتهما من بعيد، حيث سارا بخطى وثيدة بمحاذاة الجدار المتاخم لشارع "ماريني". دنوت منهما، كان الظلام الحالك يسود الأجواء، ثم توقفا أسفل مصباح غازي ينساب منه ضوء خافت، وأدركت أنهما منكبان على قراءة ورقة كانت بحوزة الأنسة ستانجرسون.. توقفت بالقرب منهما مغلفاً بسكون الليل والظلام الحالك، ثم سمعت بوضوح الأنسة ستانجرسون تردد هذه الكلمات: "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل". تفوهت الأنسة بهذه العبارات بنبرة ملؤها السخرية الممتزجة باليأس، ثم أعقبتها نوبة من الضحك، حتى أنه انتابني شعور بأن هذه العبارة المبهمة ستظل محفورة في ثنایا ذاكرتي إلى الأبد، وسيتردد صداها دائماً في أذني. ولكن هناك عبارة أخرى تفوه بها السيد دارزاك، والتقطتها أذني على الفور: "هل يتوجب عليّ ارتكاب جريمة للنيل منك؟". في تلك الأثناء، تملكني شعور بأن السيد دارزاك يسعى جاهداً لإخفاء اضطرابه وحيرته. أمسك بيد الأنسة ستانجرسون، ثم رفعها إلى شفتيه، وأدركت بناءً على حركة كتفيه أنه انفجر باكياً. ثم افترق الحبيبان.

أردف روليتابي: "عندما عدت أدراجي إلى القصر، لم أر السيد روبرت دارزاك، ولم ألتق به مرة أخرى إلا في قصر جلاندييه، عقب وقوع الجريمة، ولكنني أبصرت الأنسة ستانجرسون ووالدها وبعض أعضاء أكاديمية فيلادلفيا للعلوم.. كانت الأنسة ستانجرسون تقف بجوار العالم البار "آرثر رانس" الذي راح يتحدث إليها بحماس مفرط، بيد أنها بدت غير مكترثة لما يقوله. عندما غادر البروفيسور والأنسة ستانجرسون الحفل، دنوت بضغ خطوات من العالم "آرثر رانس"، وأسديت له بعض الخدمات، وسط الحشد الغفير. أعرب لي عن خالص شكره، ثم أخبرني أنه سيعود إلى أمريكا في غضون ثلاثة أيام، أي في يوم السادس والعشرين (اليوم التالي لوقوع الجريمة). تجاذبت معه أطراف الحديث بشأن فيلادلفيا، فأخبرني بأنه يقيم في هذه المدينة منذ خمسة وعشرين عاماً، وهناك تعرف على البروفيسور ذائع الصيت ستانجرسون والأنسة. انتهت الأمسية، ولا أدري لماذا لم تفارق صورة السيد دارزاك والأنسة ستانجرسون ذهني طوال الليل، ولك أن تتخيل مقدار ما أصابني من صدمة وذهول فور تلقي خبر اغتيال الأنسة ستانجرسون.

كيف لا تظل هذه الكلمات عالقة في ذهني: "هل يتوجب عليّ ارتكاب جريمة للنيل منك؟"، ومع ذلك، لم تكن هذه العبارة هي تلك التي تفوهت بها حينما التقينا بالسيد دارزاك، لأول مرة، في قصر جلاندييه. ألم تكن العبارة التي تشير إلى الكاهن والحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة كافية لتفتح أمامنا أبواب القصر على مصراعيها. هل أيقنت، في تلك اللحظة، أن روبرت دارزاك هو القاتل؟ لا، لم تتبادر إلى ذهني هذه الفكرة. في تلك الأثناء، لم تجل في خاطري أية فكرة، لأنني كنت آنذاك مفتقراً إلى الأدلة والحجج والبراهين، وكنت في حاجة ماسة للتيقن من أن السيد دارزاك لم يُصب بأذى في يده. عندما جلست برفقته، أخبرته أن الصدفة قادتني إلى سماع الحوار الذي دار بينه وبين الأنسة ستانجرسون في حديقة القصر الملكي، وعندما ذكرت هذه العبارة: "هل يتوجب عليّ أن أرتكب جريمة للنيل منك؟"، اكتسى وجهه بملامح الذعر والانزعاج. راح يرتعد خوفاً، عندما أخبرته بأن الأنسة ستانجرسون - في نفس اليوم الذي أقيم فيه حفل الاستقبال في القصر الجمهوري - توجهت، بعد الظهر، إلى مكتب البريد رقم 40، لتجلب الرسالة التي من المفترض أنهما انكبا على قراءتها، والذي اختتمت بهذه الكلمات: "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل".

فضلاً عن ذلك، تملكني اليقين من هذه الفرضية حينما عثرت في المختبر على قصاصة من الورق، وهي تعد جزءاً من الرسالة المذيلة بتاريخ الثالث والعشرين من أكتوبر. كتبت الرسالة، وجلبت من مكتب البريد في نفس اليوم. أعتقد بما لا يدع مجالاً للشك أن الأنسة ستانجرسون، عندما عادت من القصر الجمهوري، سعت جاهدة لحرق ورقة المساومة. من العيب أن ينكر السيد روبرت دارزاك أن هذه الورقة لها علاقة مباشرة بالجريمة، وقد أبلغته أنه في مثل هذا النوع من القضايا المشوبة بالغموض والتعقيد، ليس له الحق في إخفاء واقعة الرسالة عن العدالة، فقد كنت على يقين بأنها تشكل أهمية كبرى، وساورتني الشكوك ضده فور أن ترددت في أذنيّ أصدااء النبرة البائسة الممتزجة بعبارة الأنسة ستانجرسون التي أثارت بكاء دارزاك، وتهديده الواضح بارتكاب جريمة.

قلت بنبرة تكسوها اللامبالاة، ودون أن ألفت إلى السيد دارزاك: "من المؤكد أن هناك شخصاً يقف حائلاً بينك وبين الأنسة ستانجرسون، شخصاً يكس العراقل أمامكما لكيلا يكتمل مشروع زواجكما، شخص أراد أن يريها قتيلة قبل أن تتزوج".

ثم أنهيت حديثي معه متفوهاً بهذه الكلمات:

- سيدي، أظن أنه قد آن الأوان لتخبرني باسم المجرم!

عندما رفعت عيني نحوه، أبصرت وجهاً متشنجاً، وجبيناً متعرقاً، وعينين جاحظتين وزائغتين. تمالك أخيراً رباطة جأشه، ثم قال:

- سيدي، ألتمس منك أن تسدي إليّ معروفاً قد يبدو بالنسبة لك مشوباً بالغرابة: أرجو ألا تبوح لأحد من رجال القضاء بما أبصرته عيناك وسمعته أذناك في حديقة القصر الجمهوري، لا تخبر أحداً مهما علا شأنه بهذا السر الخطير، أقسم لك بأنني بريء، ويراودني شعور بأنك تصدقي، ولكن أفضل أن أغدو مذنباً عن أن تنحصر شبهات العدالة في هذه العبارة: "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل". يجب أن تتجاهل العدالة هذه العبارة، وبدءاً من هذه اللحظة فصاعداً، ها هي القضية برمتها بين يديك، ولكن ألتمس منك أن تنسى ما دار في حديقة القصر الجمهوري، سيكون في حوزتك عشرات الخيوط الأخرى التي ستقودك حتماً إلى كشف هوية المجرم، وسأفتح لك جميع الأبواب الموصدة. هل ترغب في الإقامة هنا؟ هل ترغب في العيش هنا كأحد السادة؟ هل ترغب في مراقبة أفعال وتصرفات الجميع؟ ستعيش هنا في قصر جلاندييه معزلاً مكرماً، ولكن ألتمس منك أن تنسى أمسية القصر الجمهوري.

توقف روليتابي عن الحديث متنفساً الصعداء. لقد أدركت الآن فحوى ردود أفعال السيد دارزاك غير المبررة تجاه صديقي، والعقبات التي دُللت أمام روليتابي لمعاينة مسرح الجريمة بكل سهولة. شعرت بنيران الفضول تتأجج في أعماقي بعد ما سمعته للتو، فسألته بلهفة: "ماذا حدث في قصر جلاندييه خلال الثمانية أيام الماضية؟ ألم تخبرني يا صديقي أن هناك دلائل أخرى تشير بأصابع الاتهام إلى السيد دارزاك، بخلاف العصا التي عثر عليها لارسان؟

- يبدو أن السحر انقلب على الساحر، وازداد الموقف تأزماً وتعقيداً. أعتقد أن السيد روبرت دارزاك لم يعد يعبأ بشيء سوى صحة الأنسة ستانجرسون التي تتحسن يوماً فيوماً، بالرغم من وقوع حدث أكثر غموضاً من لغز الغرفة الصفراء. صحت قائلاً: "هذا غير معقول! أي حدث من الممكن أن يكون أكثر غموضاً من لغز الغرفة الصفراء؟".

قال روليتابي مهدئاً من روعي: "لنعد أولاً إلى السيد روبرت، لقد أخبرتك للتو بأن السحر انقلب على الساحر. يبدو أن آثار الحذاء العصري الأنيق التي تفحصها لارسان تعود إلى خطيب الأنسة ستانجرسون، ومن المتوقع أن آثار الدراجة التي طُبعت بوضوح على الأرض تعود إلى دراجته التي اعتاد أن يتركها في القصر منذ أن ابتاعها. لماذا لجأ دارزاك لنقل الدراجة إلى باريس في هذا التوقيت تحديداً؟ أليس من المفترض أن يعيدها إلى القصر؟ هل أدى عدم اكتمال مشروع الزواج إلى قطع العلاقات مع أسرة ستانجرسون؟ في حين أن جميع الأطراف المعنية تؤكد استمرار توطد العلاقات، يعتقد لارسان أن أوصال الصداقة بينهم قد تقطعت، لم يعد دارزاك إلى القصر منذ اليوم الذي ذهب فيه برفقة الأنسة ستانجرسون إلى متاجر منطقة "لالوف".

لا تنسَ أن الأنسة ستانجرسون فقدت حقيبة يدها، والمفتاح ذا الرأس النحاسي عندما كانت بصحبة السيد دارزاك، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، وحتى حفل الاستقبال المقام في القصر الجمهوري، لم يلتقيا ببعضهما البعض، ولكن ربما تبادلا بعض الرسائل. توجهت الأنسة ستانجرسون للحصول على رسالة من مكتب البريد رقم 40، ويظن لارسان أن الرسالة بعث بها روبرت دارزاك الذي تجرأ على سرقة حقيبة اليد والمفتاح عازماً التلاعب بإرادة الأنسة ستانجرسون عبر الاستيلاء على أئمن ملفات ووثائق أبيها، والذي كان من المقرر أن يعيدها في حالة قبول الزواج... هذه مجرد فرضية مشكوك فيها، وربما تبدو سخيفة بعض الشيء.

ولكن، هناك أمر مشوب بالغرابة لا أجده تفسيراً: تتطابق أوصاف الرجل الذي توجه إلى مكتب البريد في يوم الرابع والعشرين للحصول على الرسالة التي سحبها الأنسة ستانجرسون بالفعل في اليوم السابق، مع أوصاف السيد روبرت دارزاك

الذي أنكر تماماً هذا الاتهام. يحدوني الاعتقاد بأن السيد روبرت دارزاك، حتى ولو أقر بأنه دون هذه الرسالة بخط يده - وهذا أمر مستبعد الحدوث - كان على علم بأن الأنسة ستانجرسون قد حصلت عليها، طالما أنه قد أبصرها بين يديها في حديقة القصر الجمهوري. ولذلك، فمن المنطقي ألا يتوجه إلى مكتب البريد في اليوم التالي من أجل طلب رسالة يعلم تمام العلم أنها لم تعد موجودة.

أعتقد أن من أدى هذا الدور هو شخص يشبهه إلى حد كبير، وهو اللص الذي سرق حقيبة اليد، ثم انطلق متوجهاً إلى مكتب البريد وأصر على المطالبة بالرسالة، لكنه غادر غاضباً. ما الذي كان يبتغيه اللص الحقيق؟ لا أحد يعلم ذلك سوى الأنسة ستانجرسون. على أية حال، تنامي إلى علم الجميع، في اليوم التالي، أن الأنسة ستانجرسون كادت أن تقتل، واتضح لي جلياً بعد مرور يومين، أن البروفيسور تعرض للسرقة في نفس الوقت. وبناء على هذه الاستنتاجات، يتضح أن الرجل الذي توجه إلى مكتب البريد هو القاتل.

لقد بذلنا قصارى جهدنا - أنا ولارسان وقاضي التحقيق - للحصول على معلومات دقيقة بشأن الشخصية المثيرة للغرابة التي توجهت يوم 24 أكتوبر إلى مكتب البريد، ولكن لسوء الحظ، باءت هذه الجهود بفشل ذريع، ولم نعرف من أين أتى هذا اللص ولا إلى أين ذهب! وبصرف النظر عن أوصافه التي تشبه إلى حد كبير أوصاف السيد روبرت دارزاك، قمت بنشر هذا الإعلان في إحدى الصحف الكبرى: "ستمح مكافأة ضخمة للسائق الذي أوصل أحد الأشخاص إلى مكتب البريد رقم 40، في صباح يوم 24 أكتوبر، وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً". طار عقلي وتساءلت مراراً وتكراراً: "من الرجل الذي تنكر في هيئة روبرت دارزاك والذي يشبهه إلى حد كبير، ولماذا أقدم على شراء العصاء التي وقعت في يد فريدريك لارسان؟ وما يزيد الأمر تعقيداً هو أنه أثناء توجهه هذا الشخص الغريب إلى مكتب البريد، كان من المقرر أن يلقي السيد روبرت دارزاك محاضرة في جامعة السوربون، بيد أنه عدل عن الفكرة، وحل محله أحد أصدقائه، وحين استجوبه فردريك لارسان بشأن هذه النقطة، أوضح أنه ذهب في نزهة إلى غابة بولونيا. ما رأيك في ذلك الأستاذ الجامعي الذي يلتمس من أحد أصدقائه أن يحل محله لإلقاء محاضرة في جامعة السوربون، ثم يذهب للتنزه في غابة بولونيا؟ صحت قائلاً: "قد يكون السيد لارسان محققاً فيما يساوره من شكوك إزاء روبرت دارزاك! هل أنت واثق تمام الثقة من براءة دارزاك؟ يبدو أننا سنصطدم بالكثير من المصادفات الغريبة والمزعجة".

- المصادفات هي ألد عدو للحقيقة.

- ولكن ما وجهة نظر قاضي التحقيق؟

- ينتاب السيد دو ماركيه التردد والحيرة بشأن إلصاق التهمة بالسيد روبرت دارزاك دون الاستناد إلى دليل قاطع، ليس فقط لأنه سيهيج الرأي العام ضده، بل لأنه سيثير البلبلة في جامعة السوربون، وسيلحق الضرر بسمعة البروفيسور ستانجرسون والأنسة الهائمة عشقاً بروبرت دارزاك، وقد آن الأوان يا صديقي لأقصص على مسامعك تفاصيل الحدث الأكثر غموضاً من لغز الغرفة الصفراء، والذي وقع منذ ثلاثة أيام، أو بالأحرى ثلاث ليالٍ، وأشرت إليه للتو.

## الفصل الرابع عشر أنتظر مجيء المجرم هذه الليلة

اقترب روليتابي مني، ثم قال بصوت بخفيض:

- ينبغي أن تذهب برفقتي لنلقي نظرة على بعض الأماكن حتى تدرك فحوى، أو بالأحرى تقتنع بما يستحيل إدراك فحواه. أظن أنني بلغت غايتي وتوصلت إلى مفتاح اللغز الذي حير الجميع وأرق فكركم: الطريقة التي لجأ إليها القاتل للهروب من الغرفة الصفراء دون أي تواطؤ مع أي شخص، ودون تورط السيد ستانجرسون في هذه القضية المعقدة، وبما أنني مازلت متشككاً قليلاً بشأن هوية المجرم، فلا أستطيع الإفصاح عن فرضيتي، بالرغم من قناعتي التامة بصحتها وبساطتها. أما بالنسبة لما وقع هنا في القصر، قبل ثلاث ليالٍ، فقد أقض مضجعي طوال الأربعة والعشرين الساعة الماضية، وأدركت أنه شيء يفوق الخيال.

عندئذ، غادرنا الغرفة، وأخذني صديقي في نزهة حول القصر. لم يتناه إلى مسامعي سوى صوت طقطقة أوراق الأشجار الذابلة التي سحقتها أقدامنا، وبدا القصر وكأنه مهجور، فقد أضفت الأحجار القديمة، والمياه الراكدة في الحفر المحيطة بالبرج الرئيسي، والأرض القاحلة المغطاة ببقايا جذوع الأشجار والأوراق المتناثرة منذ الصيف الماضي، على هذه البقعة الموحشة المكتنفة بلغز مرعب جواً من الحزن والكآبة. وبينما كنا نتمشى حول البرج الرئيسي، التقينا بالرجل الأخضر، حارس البوابة، الذي مر بالقرب منا دون أن يعيرنا أدنى انتباه. ومثلما رأيته أول مرة كان لا يزال حاملاً بنديقة على كتفه، وواضعاً غليونه في فمه، ومرتدياً نظارته الأنفية. هس روليتابي في أذني قائلاً: "يا له من شخص غريب الأطوار".

- هل تجاذبت أطراف الحديث معه؟

- نعم، ولكنني لم أنتزع منه أية معلومة مفيدة، يقطن في الطابق الأرضي من البرج الرئيسي، في غرفة متسعة الأرجاء كانت تستخدم قديماً ككنيسة صغيرة، يميل إلى العزلة والانطواء، ولا يبرح مكانه إلا ومعه بنديقته، يتعامل بود ولطف مع الفتيات والنساء فقط، ويتذرع بحجة مطاردة الصيادين للاستيقاظ طوال الليل، وعقد لقاءات غرامية، كما أن عشيقته هي "سيلفي" خادمة الأنسة ستانجرسون. أظن أنه في الوقت الحالي مُغرم بزوجة الأب ماتيو صاحب الفندق، بيد أن هذا الأخير يراقب زوجته عن كثب، ومن المستحيل أن يقترب الرجل الأخضر منها، إنه شخص وسيم، أنيق الملبس، ونساء المنطقة مولعات به.

مررنا أمام الجزء الخلفي من القصر، فقال روليتابي وهو يشير إلى إحدى نوافذ غرفة الأنسة ستانجرسون:

- لو أنك مررت أمام هذه النافذة منذ ليلتين، في تمام الساعة الواحدة صباحاً، لأبصرت القاتل يصعد سلماً خشبياً ويتأهب لدخول القصر عبر هذه النافذة.

وعندما أعربت عن دهشتي البالغة، ألتمس مني روليتابي أن ألقى نظرة متفحصة على التصميم الخارجي للقصر. وبعد ذلك، عدنا إلى الغرفة التي يقطن بين جدرانها، فتابع قائلاً:

- يجب الآن أن نتفحص بإمعان الطابق الأول، والجناح الأيمن الذي تقع فيه غرفتي.

وتسهيلاً على القارئ العزيز، رسمت مخططاً للطابق الأول انطلاقاً من هذا الجناح، وبناء على مخطط صُمم بواسطة روليتابي في اليوم التالي لوقوع الحادث الاستثنائي وغير المألوف، والذي سأسرد تفاصيله لاحقاً:

- 1 - المكان الذي اختاره روليتابي لكي يتخذ لارسان موضعاً للمراقبة.
- 2 - المكان الذي اختاره روليتابي لكي يتخذ الأب جاك موضعاً للمراقبة.
- 3 - المكان الذي اختاره روليتابي لكي يتخذ السيد ستانجرسون موضعاً للمراقبة.
- 4 - النافذة التي تسلل عبرها روليتابي.
- 5 - النافذة التي وجدها روليتابي مفتوحة عندما غادر غرفته، ثم أغلقها، وكانت جميع الأبواب والنوافذ الأخرى موصدة.
- 6 - شرفة مقوسة تبرز من الغرفة في الطابق الأرضي.

أمري روليتابي أن أصعد وراءه السلم الأثري المزدوج الضخم الذي ينتهي ببسطة عريضة على ارتفاع الطابق الأول، وانطلاقاً

من هذه البسطة، يمكن للمرء أن يتجه مباشرة إلى الجناح الأيمن أو الأيسر عبر قاعة ممتدة تُفضي إليهما. تمتد هذه القاعة الشاسعة بطول المبنى بالكامل بمحاذاة الواجهة الشمالية للقصر. أما بالنسبة للغرف التي تطل نوافذها على الناحية الجنوبية تُفتح أبوابها على هذه القاعة الكبرى.

يقيم السيد ستانجرسون في الجناح الأيسر من القصر، بيد أن شقة الأنسة ستانجرسون تقع في الجناح الأيمن، وطئت أقدامنا قاعة الجناح الأيمن المفروشة ببساط صغير بطول الأرضية الخشبية المصقولة بالشمع واللامعة كالزجاج. أمرني روليتابي بصوت خفيض، أن أوصل سيرى متوخياً أقصى درجات الحذر لأننا نمر أمام غرفة الأنسة ستانجرسون. أوضح لي أن شقتها تتألف من غرفة نوم، وغرفة انتظار، ودورة مياه، وغرفة تخزين. يمكن للمرء أن ينتقل من غرفة لأخرى دون اللجوء إلى المرور عبر القاعة الكبرى. من الواضح أن غرفة معيشة الأنسة ستانجرسون هي الغرفة الوحيدة التي لها باب يطل على القاعة. تمتد القاعة مباشرة حتى تبلغ الناحية الشرقية للقصر، وتنتهي بنافذة عالية تطل على الحديقة (نافذة رقم 2 في المخطط). يقطع حوالي ثلثي هذه القاعة بزوايا قائمة تشكل قاعة أخرى تستدير مع الجناح الأيمن للقصر.

ولإزالة أي التباس أو غموض، سوف نطلق على القاعة الممتدة من الدرج وحتى النافذة الشرقية "القاعة اليمنى"، أما القاعة التي تستدير مع الجناح الأيمن للقصر، فنسطلق عليها "القاعة الدائرية". تقع غرفة روليتابي عند نقطة التقاء القاعتين، بجوار غرفة فريدريك لارسان. تطل أبواب هاتين الغرفتين على القاعة الدائرية، بينما يطل باب شقة الأنسة ستانجرسون على القاعة اليمنى (انظر المخطط).

دفع روليتابي باب غرفته، ثم سمح لي بالدخول، وأغلق الباب بالملزاج. لم يكن لدي متسع من الوقت لإلقاء نظرة على غرفته، فقد أطلق صيحة مباحثة مشيراً بإصبعه إلى نظارة أنفية موضوعة على طاولة صغيرة. تساءل مذهولاً: "ما هذا؟ من الذي وضع هذه النظارة على منضدتي؟".

لم أجد ما أجيبه به عن سؤاله، فأردف متلعثماً:

- ما لم تكن، ما لم تكن هذه النظارة التي أبحث عنها، إنها نظارة أنفية لعلاج طول النظر.

اندفع بقوة كالسهم نحو النظارة، وظل يداعب بأصابعه تحذب عدستها، ثم رمقني بنظرة ملؤها الذعر، وراح يكرر هذه الكلمات وكأنه لجن جنونه: "أوه! أوه!".

وضع يده برفق على كتفي، ثم سخر كمن أصيب بمس من الجنون قائلاً:

- هذه النظارة ستدفعني إلى الجنون! فالأمر مستساغ وممكن من الناحية المنطقية، ولكنه مستبعد الحدوث من الناحية الإنسانية، وإلا إني...

طرق شخص ما باب الغرفة برفق مرتين متتاليتين، ففتح روليتابي الباب قليلاً، وبرزت ملامح زوجة حارس العقار التي رأيته من قبل تمر أمامي حينما استدعيت إلى الجناح لاستجوابها، وقد انتابني دهشة عارمة لأنني توقعت أنها لاتزال حبيسة جدران السجن، قالت المرأة بصوت خفيض:

- في إحدى شقوق الأرضية الخشبية!

أجابها روليتابي: "أشكرك".

توارت ملامحها عن أنظاري، ثم التفت روليتابي نحوي موصداً باب الغرفة بإحكام، ومتفوهاً ببعض الكلمات المبهمة زائغ العينين:

- بما أن الأمر ممكن ومستساغ من الناحية المنطقية، فلماذا لا يكون ممكناً من الناحية الإنسانية! ولكن إذا كان بالفعل مقبولاً من الناحية الإنسانية، فستغدو المسألة مثيرة للفضول والحيرة!

قطعت مناجاة روليتابي لنفسه متسائلاً:

- إذن، فقد أطلق سراح حارس العقار وزوجته، أليس كذلك؟

- نعم، لقد طلبت من السيد دارزاك أن يطلق سراحهما، فأنا في أمس الحاجة إلى أشخاص موثوق بهم، إنهما يضربان مثلاً يحتذى به في الإخلاص والتفاني ونكران الذات، وبما أن النظارة مصممة لعلاج طول النظر، فأنا بحاجة إلى أناس أوفياء

يضحون بحياتهم من أجلي.

قلت مبتسماً: "وما الذي سيدفعهم إلى التضحية بحياتهم من أجلك؟ ومتى؟".

- الليلة! ألم أخبرك يا عزيزي أنني أنتظر مجيء المجرم هذه الليلة؟

- أوه! أوه! أوه! أنت تنتظر مجيء المجرم هذه الليلة. حقاً، تنتظر حقاً مجيء المجرم. إذن، أنت تعرفه؟

- آن الأوان لأعرفه، وسأبدو كمجنون لو قلت بشكل قاطع أنني أعرفه، لأنه وفقاً لحساباتي المنطقية ومعطياتي بشأن هويته، ستبدو النتائج مربعة وصادمة، ولذلك آمل أن يكون الصواب قد جانبي!

- إذن كيف تنتظر شخصاً أنت لا تعرفه؟

- لأنني أعلم أنه سيأتي حتماً.

حشا روليتاي غليونه بمجدوء وبطء، ثم أشعله شارد الذهن. في تلك الأثناء، تناهى إلى مسامعنا صوت وقع أقدام شخص يجتاز الممر أمام غرفة روليتاي، ثم تباعد الصوت شيئاً فشيئاً. قلت مشيراً إلى الحاجز الفاصل بين غرفة روليتاي وغرفة لارسان: "هل فريد العظيم في غرفته؟".

- لا، ليس هنا. لا بد أنه غادر هذا الصباح متوجهاً إلى باريس، ساعياً لاقتفاء أثر روبرت دارزاك الذي انطلق إلى باريس هذا الصباح! تنذر الأوضاع بنهاية مأساوية، من المتوقع أن يلقي القبض على السيد دارزاك في غضون أسبوع، لا تمر ساعة واحدة دون أن يوجه إليه اتهام جديد وتتكسد الأدلة ضده، وها هو قاضي التحقيق يمضي قدماً منساقاً كالأعمى دون تبصر أو حكمة.

- ولكن فريديك لارسان لا يُعتبر شرطياً مبتدئاً، بل على دراية ببواطن الأمور.

أجاني روليتاي بنبرة يكسوها التهكم والازدراء قليلاً:

- ظننت أن فريد يتمتع بفطنة وذكاء فريدين من نوعهما. لقد كنت أكن له إعجاباً كبيراً قبل أن أدرك المنهجية التي يتبناها، كم يبدو هذا مؤسفاً، لقد ذاع صيته جراء مهارته غير المسبوقة، ولكنه يفتقر كثيراً إلى المنطق.

تطلعت نحو روليتاي، ولم يكن بمقدوري كبح جماح ابتسامة خفيفة حينما تناهت إلى مسامعي كلمات شاب يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ينتقد رجلاً في الخمسينات من عمره أثبت للجميع أنه المحقق الأشهر والأهمر في أوروبا بأسرها.

قال روليتاي: "أرى أن الابتسامة ترتسم على شفتيك، لقد جانبك الصواب يا صديقي! أقسم لك أنني سأتلاعب به، ولكن ينبغي ألا أتوانى عن الماضي قدماً، فهو يتقدمني بخطوات، ويجرز النجاحات تلو الأخرى على حساب روبرت دارزاك. فكر قليلاً: في كل مرة يتسلل المجرم إلى القصر، يغيب روبرت دارزاك عن المشهد بغرابة ويرفض الإدلاء بأية معلومات تبرر غيابه!

صحت قائلاً: "في كل مرة يتسلل المجرم إلى القصر! إذن، عاد إلى القصر...".

- نعم، في تلك الليلة التي وقع فيها حادث أكثر غموضاً من لغز الغرفة الصفراء.

كنت بالفعل على دراية بهذا الحادث المشوب بالغموض الذي ألمح إليه روليتاي منذ نصف ساعة دون أن يمنحني تفسيراً واضحاً، ولكنني تعمدت ألا أقاطع سرده، فهو يوح بما يخالج صدره في الوقت المناسب، ولم يكن مهتماً بتحرق فضولي بقدر ما كان شغله الشاغل رسم صورة كاملة ومستفيضة لحدث يراه بالغ الأهمية. في نهاية المطاف، وبعبارات سريعة ومختصرة، أخبرني روليتاي بعدة أمور أغرقتني في حالة من الدهول، وكأنني خاضع لتنويم مغناطيسي، ومن بين المستندات والأوراق التي منحني إياها الشاب الصحفي، والتي تلقي بالضوء على القضية المشوبة بالغموض، دفتر ملاحظات يحوي بين طياته سرداً كاملاً يفسر ظاهرة "تواري المجرم عن الأنظار"، وأرى أنه من الأفضل تقديم هذا التقرير المفصل والشامل بدلاً من استئناف الحديث مع روليتاي خشية ألا أضيف أو أنقص شيئاً يخل بمصداقية الأحداث.

## الفصل الخامس عشر

### الشرك

#### مقتطفات من يوميات جوزيف روليتاني

دون جوزيف روليتاني هذه العبارات:

- استيقظت الليلة الماضية، والتي وافقت يوم 29 أكتوبر، وصبيحة يوم 30 أكتوبر، فجأة في حوالي الساعة الواحدة صباحاً. هل أصابني الأرق أم استيقظت مفزوعاً إثر سماع جلبة صاخبة تنبعث من الخارج؟ ترددت أصداء صيحات "الدعسوقة" المنذرة بالشؤم قادمة من نهاية الحديقة، شاقة سكون الليل وظلامه الحالك.. نحضت عن فراشي وفتحت نافذة غرفتي فصفعتني الرياح الباردة، ورأيت المطر يهطل بغزارة.. أغلقت النافذة على الفور، ولكن لا يزال الضجيج غير المألوف يعكر صفو ليلتي. سرعان ما ارتديت سروالي وسترتي، ثم أمسكت بهراوتي الغليظة، السلاح الوحيد الذي بحوزتي.. سرت على أطراف أصابعي كي لا يحدث أي ضوضاء، ثم فتحت باب غرفتي.

توقفت قليلاً بين جدران القاعة الغارقة في أضواء مصباح تتأرجح شعلته بمنة ويسرة، والتي بدت وكأنها ترزح تحت وطأة تيار من الهواء مجهول المصدر.. التفت ورائي فأبصرت إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعها. تقع هذه النافذة في نهاية القاعة التي تطل عليها غرفتي وغرفة لارسان، تلك القاعة التي أطلقت عليها آنفاً اسم "القاعة الدائرية"، لكي أميزها عن "القاعة اليمنى" التي تتطل عليها شقة الأنسة "ستانجرسون". في الواقع، تتقاطع هاتان القاعتان بزائيتين قائمتين. من ترك هذه النافذة مفتوحة على مصراعها؟ أم أن هناك شخصاً أقدم على فتحها للتو؟ تقدمت نحو النافذة، ورحت أطلع إلى الخارج عبرها، فوقعت عيناى على شرفة تقع على بعد متر تقريباً، وتبرز من غرفة صغيرة مقوسة السقف تقع في الطابق السفلي، يمكن للمرء إذا لزم الأمر أن يقفز من خلال هذه النافذة إلى الشرفة، ومن هناك، بمقدوره أن يتسلل بهدوء إلى ساحة القصر، من الواضح أنه بإمكان أي شخص، لا يملك مفتاح باب الردهة، أن يتتبع هذا المسار.

ولكن لماذا يجول في مخيلتي مشهد الجمباز الليلي هذا؟ هل لأنني أبصرت النافذة مفتوحة على مصراعها؟ ربما تركها أحد الخدام مفتوحة سهواً.. أغلقتها مبتسماً وساخراً من بساطتي التي بُنيت عليها دراما مزعجة حينما رأيته مفتوحة للتو.. أطلقت الدعسوقة صيحة أخرى مدوية مزقت ستار الليل، ثم خيم الصمت المهيّب، وتوقف فجأة ارتطام قطرات المطر بالنوافذ.. سرت بحرص متوخياً أقصى درجات الحذر، فوق البساط الأرضي للقاعة الدائرية، وما إن بلغت زاوية القاعة اليمنى حتى أطلت برأسي، وألقيت بنظرة متفحصة، يتوسط هذه القاعة مصباح آخر، يلقي ضوءه الدائري على جنبات المكان المزود بأثاث بسيط يتألف من ثلاثة مقاعد وبعض اللوحات المعلقة على الجدران. لماذا أقف هنا؟ يبدو جلياً أن جميع سكان القصر يغطون في سبات عميق، فالهدوء يخيم على الأجواء. أية غريزة تلك التي تدفعني نحو غرفة الأنسة ستانجرسون! لماذا يتعالى مزيج من هذه الأصوات في عمق أعماقي: "إياك والتراجع عن ولوج غرفة الأنسة ستانجرسون".

خففت عيني ناظراً إلى البساط الذي وطأته قدماي للتو، وأدركت آنذاك أن خطواتي تتجه رُغمًا عني نحو غرفة الأنسة ستانجرسون، متتبعة آثار خطوات أخرى مطبوعة على الأرض. يا لها من ليلة مثيرة للرعب! إنها نفس آثار الحذاء العصري الأنيق المحفورة صورتها في ثنايا ذاكرتي، نفس آثار أقدام المجرم الذي تسلل من الخارج ليلة وقوع الحادث المشؤوم. إذا كان بمقدور المرء أن يقفز إلى الشرفة عبر النافذة المفتوحة، ويتسلل بكل سهولة إلى الفناء الرئيسي للقصر، فمن البديهي أنه باستطاعته أيضاً التسلل إلى داخل القصر عبر هذه الشرفة الملعونة.

أظن أن القاتل لا يزال مختبئاً بين جدران القصر، فآثار الأقدام لا تظهر في اتجاه معاكس، ولج المجرم القصر عبر هذه النافذة الواقعة في نهاية القاعة الدائرية، ماراً أمام غرفة لارسان وأمام غرفتي، ثم انعطف يميناً متوجهاً إلى القاعة اليمنى، وأخيراً ولج غرفة الأنسة ستانجرسون، وها أنا أقف متسماً في مكاني أمام غرفة التخزين التي أبصرت بابها موارباً، فشرعت في دفعه بهدوء دون أن تنبعث أية ضوضاء.. وطئت قدماى غرفة التخزين، ولحت للتو ضوءاً يتسرب من أسفل باب غرفة معيشة الأنسة، أرهفت أذنيّ مُنصتاً، ولكن لم يبتأ إلى مسامعي أي صوت. ليتني أسبر أغوار المشهد المهيّب الذي يدور خلف

هذا الباب مخيماً عليه الصمت! أدركت أن قفل الباب مغلق والمفتاح لا يزال بداخله، قلت لنفسي: "من المحتمل أن المجرم لا يزال هنا! بل من المؤكد! هل سأدعه يلوذ بالفرار مرة أخرى؟ الأمر كله متروك لي! مرهون برباطة جأشي، ولا سيما بتوخي أقصى درجات الحيطة! هل سأتسلل إلى غرفة نوم الأنسة مروراً بغرفة معيشتها؟ من المحتمل أن يهرب القاتل عبر الباب المطل على القاعة. في الواقع، لا توجد حتى الآن أية مؤشرات تفيد بوقوع جريمة، بالرغم من السكون التام الذي يحيم على غرفة المعيشة، كان السيد ستانجرسون قد كلف الخادمتين ليسهرا طوال الليل، ويقوما برعاية الأنسة حتى تتماثل إلى الشفاء.

طالما أنني شبه واثق من أن المجرم لا يزال قابلاً بين جدران القصر، فلماذا لا أطلق جرس الإنذار؟ ربما سيفر المجرم هارباً، ولكن من المحتمل أن حياة الأنسة ستانجرسون ستنتقد من بين برائن موت محقق؟ ولو أن المجرم قد جاء هذه الليلة عازماً ألا يرتكب جريمة قتل أخرى، فمن الذي فتح له الباب وسمح له بالدخول؟ ومن الذي أغلق الباب؟ من الذي أدار المفتاح في القفل وأعطاه الإذن بالدخول؟ الحارس وزوجته؟ الخادمتان المخلصتان، "سيلفي ووالدتها العجوز"؟ هذا أمر مستبعد الحدوث تماماً! فضلاً عن ذلك، أخبرني روبرت دارزاك أن الخادمتين تمكثان في غرفة معيشة الأنسة التي ينتابها القلق طوال الوقت، متوخية الحذر باستمرار، والتي عازمت أن تراقب باهتمام بالغ عملية تحسن صحتها وتماثلها للشفاء، فمنذ أن استردت عافيتها بشكل كبير، تعكف على السير بضع خطوات، بشكل يومي، في شقتها. فكرت ملياً فيما أخبرني به السيد دارزاك بشأن شعور الأنسة بالقلق وتوخيها الحذر الشديد. قبل وقوع جريمة الغرفة الصفراء تبين جلياً أن الفتاة النعيسة توقعت أن القاتل سيشن عليها هجوماً ضارباً. هل تتوقع قدومه هذه الليلة أيضاً؟ ولكن من الذي أدار المفتاح في القفل وسمح للمجرم بالدخول؟ ما لم تكن الأنسة ستانجرسون نفسها؟ في الواقع، يمكن الجزم بأنها ظلت تتربص بخوف وقلق شديدين مجيء القاتل، بالرغم من أنها تخفي بين جوانحها أسراراً تجبرها على فتح الأبواب أمامه على مصراعها. يا له من لقاء مشوب بالرعب والغموض! لقاء سينتهي حتماً باقتراف جريمة! من المستبعد أن يكون اللقاء غرامياً، فالأنسة ستانجرسون تهيم عشقاً بالسيد دارزاك، وأنا أعلم هذا يقيناً. طرأت كل هذه الأفكار فجأة على ذهني، وبدت كأنها وميض من البرق أضاء بغتة المشهد الليلي الغارق في لجة من الظلام.

لو أن الصمت المتناقل سيظل قابلاً خلف هذا الباب، فمرحى به! فربما سينجم عن تدخله من الضرر ما لا يُحمد عقباه! لا أدري، ولكن ربما سيحول تدخله، في غضون دقيقة واحدة، دون وقوع جريمة! حسناً، سأرى وأتفحص كل شيء، غير عابئ بكسر جدار الصمت! غادرت غرفة التخزين، وتوجهت نحو الدرج الرئيسي هابطاً إياه، فوجدت نفسي بين جدران الردهة.. ركضت بهدوء نحو الغرفة الصغيرة الواقعة في الطابق الأرضي، والتي تُخصصت كغرفة نوم للأب جاك منذ محاولة قتل الأنسة ستانجرسون في الجناح. رأيت الأب جاك مرتدياً ثيابه بالكامل، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، حائراً، وزائغ النظرات. لا يبدو أن ظهوري المباغت أثار دهشته، فقد أخبرني أنه نحض من فراشه مذعوراً إثر سماع صرخة الدعسوقة، وصوت وقع أقدام تتسلل من أمام نافذة غرفته، وأنه تطلع آنذاك عبر النافذة، فأبصر شبحاً متشحاً بالسواد يمر أمامه. سألته عما إذا كان بحوزته مسدس، فأخبرني أن قاضي التحقيق لا يزال متحفظاً عليه منذ وقوع الجريمة.

توجهنا، على الفور، إلى الحديقة عبر باب خلفي صغير، ثم سرنا بمحاذاة القصر حتى بلغنا الغرفة الواقعة أسفل غرفة الأنسة ستانجرسون، وهناك، أزحته نحو الجدار حتى كاد أن يلتصق به، وأمرته ألا يتحرك قيد أنملة. في تلك الأثناء انتهزت فرصة مرور سحابة كثيفة، ثم تقدمت بضع خطوات أسفل النافذة المواربة. ولكن من الواضح أن الشخص الذي سيسعى للقفز عبر النافذة سيتعرض لكسر في الرقبة. أليس من المتوقع أن المجرم أحضر معه حبلاً؟ لا بد أنه توقع كل شيء، ووضع في حسبانته جميع الاحتمالات، ليتني أسير أغوار المشهد المهيّب الذي يدور خلف هذا الباب مخيماً عليه الصمت! عدت إلى الأب جاك، ثم همست في أذنه قائلاً: "أحضر لي درجاً خشبياً!" في بداية الأمر راودتني فكرة تسلق الشجرة التي استخدمتها منذ أسبوع، كمرصد لمراقبة غرفة الأنسة، ولكنني أدركت على الفور أن النافذة مواربة بطريقة لا تسمح لي برؤية أي شيء يقع في الداخل، كما أنني لا أود فقط رؤية ما يدور من أحداث في الداخل، بل سماع كل كلمة تنطلق من الأفواه، بل واتخاذ ردة فعل مناسبة.

اعتلت ملامح الانزعاج والتوتر وجه جاك، فراح يرتجف قليلاً.. توارى عن ناظريّ برهة من الوقت، ثم عاد بدون درج ملوحاً لي، من بعيد، بإيماءات متلاحقة تحثني على الركض مهولاً نحوه في أسرع وقت ممكن، عندما صرت قريباً منه، همست قائلاً: "هيا، اتبعني". توجهنا إلى الجزء الخلفي من القصر، وفور وصولنا هناك، فتح فاه قائلاً بصوت خفيض:

- جئت لجلب الدرج من الغرفة السفلية للبرج الرئيسي، والتي تستخدم كمخزن لي وللبستاني، تملكني الذهول حين أبصرت باب الغرفة مفتوحاً على مصراعيه، والدرج غير موجود في مكانه، وعندما غادرت البرج، أصابني الفزع حين وقعت عيناى على هذا المشهد المروع!

ثم أشار إلى الناحية الأخرى من القصر، موجهاً أنظاري نحو درج مستند إلى الطُئُوف الداعمة للشفرة؛ أسفل النافذة التي أبصرتها مواربة قليلاً. في الواقع، أعاقني هذه الشرفة البارزة عن رؤية الدرج الخشبي، أدركت للتو أنه من السهل للغاية التسلل إلى القاعة الدائرية الواقعة في الطابق الأول عبر صعود هذا الدرج الخشبي، ولم يعد هناك أي مجال للشك في أن المجرم مجهول الهوية سلك هذا المسار لبلوغ غايته المنشودة. ركضنا بسرعة نحو الدرج، ولكن حين أمسكت به بكلتا يديّ، أشار الأب جاك إلى باب موارب لغرفة صغيرة تقع في الطابق الأرضي، وتبرز عن المبنى في نهاية الجناح الأيمن من القصر، كما يشكل سقفها الشرفة التي أشرت إليها للتو.. دفع الأب جاك الباب قليلاً، ثم تطلع إلى الداخل، وهمس في أذني قائلاً: "ليس هنا".

- من؟

- الحارس!

ثم أردف هامساً في أذني: "لا شك أنك على دراية بأن الحارس يقطن في هذه الغرفة منذ إجراء عدة ترميمات في البرج الرئيسي"، وبإيماءة معبرة، راح يشير إلى الباب الموارب، والدرج، ثم الشرفة والنافذة التي أغلقتها منذ برهة من الوقت والتي تقع في نهاية القاعة الدائرية.

ما الأفكار التي راودت ذهني في تلك الأثناء؟ هل كان لدي متسع من الوقت للاستغراق في تفكير عميق؟ طغت مشاعري على جموح أفكاري.

في الواقع، إذا أمكنني الجزم بأن الحارس قد تسلل بالفعل إلى غرفة الأنسة (أقول إذا، لأنني حتى هذه اللحظة، بصرف النظر عن الدرج الخشبي المنتصب، وغرفة الحارس المهجورة، لا أملك دليلاً واحداً يدفعني للاشتباه في تورط الحارس)، فمن البديهي أن أضطر لصعود هذا الدرج ثم تسلل عبر هذه النافذة، فجميع الغرف الواقعة خلف غرفته الجديدة، والتي تشغلها أسرة رئيس الخدم، وطباخة القصر تقف حائلاً بينه وبين الوصول إلى الردهة والدرج الرئيسي للقصر. "إذا كان الحارس هو من سلك بالفعل هذا المسار"، فأظن أنه لم يجد أدنى صعوبة عندما حل المساء في اختلاق ذريعة ما، متوجهاً إلى القاعة، ليتيقن من أن هذه النافذة يسهل فتحها بأقل مجهود ودون تكبد أي عناء بمجرد دفعها من الخارج، لجوء المجرم إلى فتح النافذة من الداخل يثبت قطعاً وبما لا يدع مجالاً للشك، أنه أحد سكان القصر، ما لم يكن متواطئاً مع شخص آخر، وهو أمر يظل خارج دائرة توقعاتي، ما لم.. ما لم تكن الأنسة ستانجرسون على علم بأن النافذة يسهل فتحها من الخارج.

ولكن ما السر المريع الذي يدفع الأنسة ستانجرسون إلى إزالة العقبات الواقعة حائلاً بينها وبين من حاول إنهاء حياتها؟ حملت الدرج الخشبي، ثم توجهنا إلى الجزء الخلفي من القصر. لا تزال نافذة الغرفة مواربة، والستائر غير متداخلة مع بعضها البعض، فهناك شعاع قوي من الضوء يتسرب عبرها، منبسطاً على العشب أمام قدمي.. قمت بتشيتب الدرج أسفل النافذة متوخياً الحذر كي لا ينبعث أي ضجيج، ثم شرعت في صعود الدرج ببطء شديد حاملاً هراوتي، بينما ظل الأب جاك متسماً في موضعه في الأسفل.. كتمت أنفاسي، أكملت صعودي، ناقلاً قدمي بحذر لا متناهٍ. فجأة، لاحت في السماء سحابة قاتمة كثيفة، وسرعان ما انهارت الأمطار بغزارة. استوقفتني بغتة صرخة الدعسوقة المنذرة بالشؤم في منتصف المسافة، حينئذ، تملكني شعور بأن هذه الصرخة تنبئ من ورائي، على بعد أمتار قليلة مني.

هل من المعقول أن تُعد هذه الصرخة بمثابة إشارة متفق عليها! هل أحد المتواطئين مع المجرم يراقبني منذ صعود الدرج؟ ربما انطلقت هذه الصرخة بهدف حث المجرم على الفرار هارباً عبر النافذة! ربما! يا لها من كارثة! المجرم يتطلع الآن عبر النافذة،

أشعر بأنه يطل برأسه من الأعلى متفحصاً إياي، أكاد أسمع أنفاسه، لم أجرؤ على رفع رأسي والنظر إلى الأعلى، فقد تيبست رأسي مكانها، وكدت أفقد توازني، هل رأي؟ هل أطل برأسه سابراً أغوار الظلام؟ لا! لم يرن. انتابني شعور بأنه انطلق بعيداً، داخل الغرفة متسللاً على أطراف أصابعه.. صعدت بضع درجات أخرى حتى بلغت هامتي الحجر الداعم لمتكاً النافذة، تجاوز جبيني الحجر، ورحت أتطلع بعينين قلقتين عبر الفتحة التي تتوسط الستائر.

يجلس المجرم الآن أمام مكتب السيد ستانجرسون مديراً ظهره لي ومنهمكاً في الكتابة على ضوء شمعة صغيرة، ولكن بينما هو منكب على المكتب أمام الضوء، ينعكس ظله المشوه على الجدار، حيث يبدو كوحش كاسر محني الظهر. الأمر المثير للذهول هو أن الأنسة ستانجرسون ليست في غرفتها، كما أن غطاء فراشها لم يُسَط. أين تبيت هذه الليلة؟ ربما في الغرفة المجاورة برفقة الخادمتين. هذا مجرد افتراض، ابتهج قلبي فرحاً برؤية المجرم بمفرده، سأُنصب له فخاً دون أن يكدر أي شيء صفوي أو يعكر مزاجي.

ولكن من ذلك الرجل المنهمك في الكتابة والمنكب على المكتب وكأنه جالس بين جدران منزله؟ لو لم تكن هناك آثار لأقدام المجرم على بساط القاعة، لو لم تكن هناك نافذة مفتوحة على مصراعيها، لو لم يكن هناك درج منصوب أسفل النافذة، لتملكني يقين راسخ بأن هذا الرجل مجهول الهوية والغريب يملك الحق في الجلوس بين جدران هذه الغرفة، وأنه اعتاد ولوجها لأسباب تظل، حتى هذه اللحظة، في طي المجهول. لم يعد ثمة مجال للشك بأن هذا الغريب الملتف بمالة من الغموض هو المجرم المتسلل إلى الغرفة الصفراء، والذي أجبرت الأنسة ستانجرسون على تحمل طعناته الغادرة، دون توجيه أصابع الاتهام إليه. آه! ليتني أرى وجهه، ثم أباغته، وألقي القبض عليه! لو أنني ففرت إلى الداخل الآن، فمن المتوقع أنه سيلوذ بالفرار عبر غرفة المعيشة، ومن هناك سينطلق إلى القاعة، ولن أتمكن حتماً من اقتفاء أثره. (عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة)! ما الذي يفعله هنا بمفرده في غرفة الأنسة ستانجرسون؟ ماذا يكتب؟ ولمن؟

هبطت الدرج، ثم تقدمت بضع خطوات، فتبعني الأب جاك، مدركاً أننا سنعود إلى القصر. سأرسله ليقظ السيد ستانجرسون، وسينتظرنني هناك دون أن يبوح له بشيء، بينما سأتولى بنفسني مهمة إيقاظ فريدريك لارسان، كم يشكل هذا الأمر عبئاً كبيراً عليّ! كم وددت إنجاز المهمة بمفردي وإحراز تقدم ملموس يؤهلني للظفر بالغنائم رغماً عن أنف لارسان الغارق في سبات عميق! ولكن الأب جاك والسيد ستانجرسون رجلان طاعنان في السن، وواهنان، ولم يتمكننا من مساعدتي في إلقاء القبض على القاتل، بيد أن لارسان رجل يتمتع بالقوة، ومعتاد على الاشتباك مع الخصوم، وطرحهم أرضاً، وتكبييل أياديهم بالأصفاد. فتح لارسان باب غرفته مدهوشاً، منتفخ العينين، وهو على أهبة الاستعداد ليكيّل لي سيلاً من الشتائم والسباب، مذهولاً أمام تخيلات مراسل صحفي شاب يخبره بأن المجرم وقع حتماً في المصيدة.

قال لارسان: "كم يبدو هذا الأمر غريباً! ظننت أنني تركته في باريس بعد ظهر اليوم".

ارتدى المحقق ثيابه في لمح البصر، ووضع مسدسه في جيبيه، ثم توجهنا إلى القاعة، فسألني بلهفة: "أين هو؟".

- في غرفة الأنسة ستانجرسون.

- وأين الأنسة ستانجرسون؟

- ليست في غرفتها!

- حسناً، فلنلقِ القبض عليه الآن.

- ليس الآن! سيلوذ بالفرار في حالة استشعار الخطر. في الواقع، أمامه ثلاثة منافذ للهروب، الباب، والنافذة، وغرفة المعيشة التي تمكث فيها الخادمتان.

- سأطلق النار عليه.

- وإذا أفلت منك؟ أو أصيب بجرح سطحي؟ سيهرب أيضاً، ناهيك عن أنه دون أدنى شك يحمل سلاحاً. لا، اسمح لي أن أخوض التجربة بمفردي، وسأتكفل بكل شيء.

- كما يحلو لك.

عندئذ، تيقنت من أن جميع نوافذ القاعتين موصدة بإحكام، والتمست من السيد لارسان أن يتمركز في نهاية القاعة الدائرية

أمام النافذة التي أغلقتها منذ قليل. التفت إلى لارسان قائلاً: "التمس منك ألا تبرح موقعك مهما حدث، أكثر الاحتمالات ترجح أن المجرم سيعود إلى النافذة محاولاً الهرب منها، تبين جلياً أنه تسلل إلى الداخل من خلالها، ومن المنطقي أنه سيتخذ منها منفذاً للهروب، هناك مسؤولية جسيمة ملقاة على عاتقك".

- وماذا ستفعل أنت؟

- سأقفز إلى داخل الغرفة وسأشن هجوماً ضارياً على المجرم.

- إذن، تزود بمسدسي، وأعطني هراوتك.

- شكراً لك يا سيدي، أنت رجل طيب.

أخذت مسدس فريد، سأخوض حرباً ضروساً بمفردي مع هذا الخصم العنيد المنهمك في الكتابة بين جدران غرفة النوم، ولا شك أنني في أمس الحاجة لسلاح ناري. تركت لارسان متمركزاً أمام النافذة رقم (5) وفقاً للمخطط الذي صُمم بواسطتي، ثم شققت طريقي متوخياً أقصى درجات الحذر، متجهاً نحو شقة السيد ستانجرسون الواقعة في الجناح الأيسر من القصر.. رفعت عيني فأبصرت السيد ستانجرسون واقفاً بجوار الأب جاك الذي امثل لتعليماتي، وأخير سيده فقط بضرورة ارتداء ملابسه في أسرع وقت ممكن، وببضع عبارات موجزة أطلعت السيد ستانجرسون على ما يجري من أحداث، فأحضر مسدسه ثم تبعني، وتوجهنا نحن الثلاثة على الفور إلى القاعة. لم يمضِ من الوقت سوى عشر دقائق منذ أن أبصرت عيني المجرم جالساً أمام مكتب الأنسة، تملكك السيد ستانجرسون رغبة ملحة في اقتحام الغرفة على الفور عازماً الانقضاض على المجرم وتمزيقه إرباً إرباً، شددت على ضرورة التأني، وعدم التسرع، وعدم المجازفة بإنهاء حياة المجرم، فمن الأفضل إلقاء القبض عليه حياً.

وفور أن أقسمت له بأن الأنسة ليست في غرفتها، وأنها بمنأى عن أي خطر، هدأ روعه وخمدت ثورته، ثم تركني لأدير مقاليد الأمور. أخبرت الأب جاك والسيد ستانجرسون بضرورة البقاء في مكانيهما، وتلبية ندائي فور استدعائهما أو إطلاق رصاصة من مسدسي، التمسيت من الأب جاك التمرکز أمام النافذة الواقعة في نهاية القاعة اليمنى (النافذة المشار إليها بالرقم 2 في مخططي). اخترت هذا المكان لكي يتخذ الأب جاك موضعاً للمراقبة لأنني توقعت أن المجرم عقب مطاردته من قبلي سيغادر الغرفة، ثم سيجتاز القاعة بسرعة البرق، محاولاً أن يلوذ بالفرار عبر النافذة التي تركها مفتوحة، وعندئذ، سيلمح لارسان بمجرد بلوغ مفترق القاعتين متمركزاً ومنهمكاً في مراقبة القاعة الدائرية، ولذلك سيواصل طريقه مجتازاً القاعة اليمنى، وهناك، سيصطدم بالأب جاك الذي سيتصدى له حتماً وسيمنعه من القفز إلى الحديقة عبر النافذة المفتوحة في نهاية القاعة اليمنى. في الواقع، تستند هذه النافذة من الخارج على دعامة بارزة، بيد أن جميع النوافذ الأخرى في القاعتين، والتي تقع على نفس الارتفاع، من المستحيل أن يقفز عبرها أي شخص دون أن يتعرض لكسر في رقبته.. تفحصت بسرعة جميع الأبواب والنوافذ وتيقنت من أنها موصدة بإحكام.

طلبت من السيد ستانجرسون أن يتمركز أمام بسطة الدرج، على مسافة ليست ببعيدة من غرفة معيشة الأنسة. تشير جميع التوقعات إلى أن المجرم بمجرد الهجوم عليه في غرفة النوم، سيلوذ بالفرار عبر غرفة المعيشة مهولاً إلى القاعة، وهناك سيصطدم برجلي الكامنين له في جميع المنافذ المحتملة، سيقع حتماً في الفخ ولن يتمكن من الإفلات من براثننا. تبدو هذه الخطة هي الأكثر ملائمة، والأكثر ضماناً، والأكثر بساطة. وهكذا، عقب إلقاء نظرة خاطفة، والتيقن من أن جميع معاوني متمركزين في مواقعهم، غادرت القصر، ثم هرولت راكضاً باتجاه الدرج الخشبي المستند إلى الجدار، وشرعت في الصعود ممسكاً بمسدس لارسان.

لو أن البعض سيمتلكهم الدهول، وسيطلقون العنان لسخريتهم من مبالغتي في اتخاذ هذا الكم الكبير من الإجراءات الاحترازية، فدعوني أضع نصب أعينهم لغز الغرفة الصفراء المكتنف بالغموض، والحيل الماكرة التي لجأ إليها القتال، وإذا رأى البعض أن جميع ملاحظاتي تتسم بقدر كبير من الدقة، في وقت يتعين فيه على المرء اتخاذ ردة فعل فورية وقرار حاسم، سأجيبهم بأنني وددت أن أستفيض في سرد تفاصيل خطة الهجوم التي صُمت وأُنجزت بطريقة أسرع من صياغتها بتأني بواسطة القلم. قصدت اللجوء إلى السرد المتأن والمتسم بالدقة والشمول للتيقن من عدم إغفال الظروف التي شكلت هذه

الظاهرة المثيرة للغبابة، والتي، حتى إشعار آخر، تبدو أكثر تعقيداً من نظريات البروفيسور ستانجرسون حول "تفكك المادة وانحلالها"، بل أود قول "التفكك اللحظي للمادة".

## الفصل السادس عشر

### ظاهرة غريبة بشأن تفكك وانحلال المادة

#### (تابع) مقتطفات من يوميات جوزيف روليتاني.

تابع روليتاني سرده للأحداث:

ها قد بلغت هامتي الحجر الداعم لمتكأ النافذة.. تجاوز جيني الحجر، ورحت أتطلع بعينين قلقتين عبر فتحة صغيرة تتوسط الستائر الجامدة كالصخر، متحرقة شوقاً لرؤية ملامح الدهول التي ستعلو وجه المجرم. ليت يدير ظهره إلي! هل لا يزال منكباً على الكتابة أمام المكتب الخشبي؟ ربما نهض عن مقعده، وجلس في موضع آخر، ربما غادر الغرفة، ولكن كيف بمقدوره أن يلوذ بالفرار! هل نجح في الهروب عبر الدرج الخشبي المنتصب أمام النافذة؟ سأستجمع الآن ما تبقى من رباطة جأشي، وسأطل برأسي مرة أخرى.

تطلعت بشغف عبر الفتحة الصغيرة، لا يزال المجرم جالساً أمام الشمعة الصغيرة، وها هو ظل المشوه الضخم منعكس على الجدار.. توقف عن الكتابة، ولم تعد الشمعة في موضعها على المكتب الخشبي، ها هو ينحني قليلاً نحو الأرض أمام الشمعة التي تبدل مكانها الآن. يا له من تصرف مشوب بالغرابة! ولكنه يصب بالطبع في مصلحتي، فقد رحت ألتقط أنفاسي المتهذجة، وصعدت درجة أخرى، ها قد بلغت الجزء العلوي من الدرج وتشبثت يدي اليسرى بمتكأ النافذة، صرت قاب قوسين أو أدنى من بلوغ ضالتي المنشودة، فراح قلبي يقفز طرباً وسعادة.

وضعت المسدس بين أسناني، وتشبثت يدي اليمنى أيضاً بمتكأ النافذة. لا بديل الآن عن مباغته خصمي اللدود، سأرفع جسدي مستنداً على ساعدي، ثم سأقفز إلى الداخل، تناهى إلى مسامع عدوي صوت احتكاك الدرج بالجدار، وسرعان ما ارتفع ظل الضخم، ورأيت ينهض عن مكانه ويستدير نحوي، رأيت رأسه. هل أبصرت ملامح وجهه؟ لا تزال الشمعة على أرضية الغرفة، ولم أرَ بوضوح سوى الساقين، وبدءاً من حافة المكتب الخشبي فما أعلى، لم أبصر سوى ظلال مبهمه، وسواد حالك، سبرت أغوار الظلام، فرأيت شخصاً ملتجئاً كثيف الشعر ذا عينين مرعبتين كعيني الغراب، ووجه غارق في الشحوب، اخترقت عيناى أستار الظلام، واستطعت تمييز بشرته الشقراء الضاربة إلى الحمرة، لم تسبق لي رؤية ملامح أشبه بهذه من قبل. باختصار، وفور رؤية هذه الصورة المترنحة في الظلام، انتابني للوهلة الأولى شعور بأن هذه الملامح غير معروفة بالنسبة لي، أو على الأقل، غير مألوفة لعيني.

والآن، وجب التحرك بأقصى سرعة ممكنة، ينبغي عليّ أن أسابق الريح، وأبأغته كالصاعقة! ولكن أدار لي الحظ ظهره، فبينما أرفع جسدي مستنداً على ساعدي، وأضع ركبتي على الحجر الداعم لمتكأ النافذة، لمحي الرجل بطرف عينه فانتفض قافراً واندفع بسرعة البرق نحو باب غرفة المعيشة، كان لديه متسع من الوقت ليفتح الباب ويلوذ بالفرار، ولكنني اندفعت وراءه مسكاً بمسدسي، وصحت بأعلى صوتي قائلاً: "لقد نلت منه".

اجتزت الغرفة في لمح البصر، في حين أنني لمحت بطرف عيني خطاباً موضوعاً على المكتب الخشبي، كنت على وشك الإمساك بالمجرم في غرفة المعيشة، لولا أنه صفع الباب المؤدي إلى القاعة في وجهي.. أطلقت ساقى للريح وراءه، وكنت على بعد ثلاثة أمتار منه.. شرعت في مطاردته برفقة السيد ستانجرسون، ووفقاً لما توقعت، شق طريقه متجهاً نحو القاعة اليمنى، أي اتخذ المسار المعد مسبقاً لكي يلوذ بالفرار، صحت بكل ما أوتيت من قوة، قائلاً: "النجدة يا جاك! النجدة يا لارسان! لم يعد بإمكانه الهروب منا!". أطلقت صيحة انتصار مدوية تمتزج بالبهجة العارمة.. بلغ الرجل الآن تقاطع القاعتين، ولم يفصلنا عنه سوى ثانيتين، سيقع الفأر حتماً في المصيدة! اصطدمنا جميعاً ببعضنا البعض عند تقاطع القاعتين: كنت أنا والسيد ستانجرسون نركض قادمين من أحد طرفي القاعة اليمنى، بينما جاء الأب جاك مهولاً من الطرف الآخر لنفس القاعة، في حين أن لارسان ركض مهولاً مجتازاً القاعة الدائرية بمفرده.. اصطدمنا ببعضنا البعض، وسقطنا جميعاً على الأرض، ولكن لم نجد أي أثر للمجرم! رحنا نرتجف، ونحدق في وجوه بعضنا بعضاً بذهول، وبأعين مدعورة، تحيم علينا أجواء هذا الواقع المرير: "لم نجد أي أثر للمجرم".

تساءل الجميع: "أين هو؟ أين هو؟ أين هو".  
أطلقت صيحة غضب عارم فاقت ذعري بأضعاف قائلًا: "من المستحيل أن يفر هاربًا".  
صاح لارسان مدهوشًا: "كدت أن ألمسه بيدي".

قال الأب جاك مرتجفًا: "كدت أن أصطدم به، شعرت بحرارة أنفاسه تلفح وجهي".  
ركضنا كمن أصيبوا بمس من الجنون بين جدران القاعتين، وشرعنا في تفحص جميع النوافذ والأبواب بإمعان، ولكن تملكنا  
الذهول فور التيقن من أنها جميعاً موصدة بإحكام. في الواقع، لم يكن إقدام المجرم المطارد مجهول الهوية على فتح أحد  
الأبواب أو إحدى النوافذ، دون أن تبصره أعيننا، أمراً أكثر غموضاً وتعقيداً من تواريه عن الأنظار؟ أين هو؟ أين هو؟ من  
البديهي أنه ليس بمقدوره الفرار هارباً عبر باب أو نافذة أو أي شيء آخر، ومن المنطقي أيضاً أنه لم ينفذ عبر أجسادنا!  
ينبغي الاعتراف بأن قواي قد خارت ونال مني الإحباط والإعياء. في الواقع، لم تقع أعيننا على شيء يسترعي الانتباه بين  
جدران القاعة، لم نبصر أي باب أرضي، أو أية فتحة سرية في الجدران، أو أي شيء آخر يمكن للمجرم أن يتوارى بين  
طياته، لم نتوان عن تحريك المقاعد عن أماكنها ونزع جميع اللوحات الجدارية، لا شيء! لا شيء! لم يعد أماننا سوى  
تفحص الأواني الفخارية، لو كانت هناك بالفعل أوانٍ فخارية!

## الفصل السابع عشر

### قاعة يكتنفها الغموض

واصل روليتابي سرد يومياته على النحو التالي:

لاحت الأنسة ماتيلد فجأة على عتبة غرفة معيشتها، ثم راحت تحديق إلينا بذهول بينما نذرع القاعة جيفة وذهاباً يحدونا الأمل في فك طلاسم اللغز المثير للحيرة. تعصف مشاعر التيه والانزعاج بقلوبنا، بين الفينة والأخرى، وكأن كل واحد منا تلقى رصاصة في الرأس، فتهشمت جمجمته، وسقط المنطق صريعاً، فتمزق العقل إرباً إرباً. تملكنا شعور أشبه بشعور المرء حين يضنيه الإعياء، فيختل توازنه، ويُشل تفكيره، ثم تتلاشى إرادته! انهار البنيان العقلائي، فبينما تبدو الأمور جلية للعيان، يتلقى العقل ضربة موجعة تسقطه صريعاً خامد الأنفاس على الثرى.

ولحسن الحظ، لاحت الأنسة "ماتيلد" فجأة على عتبة غرفة معيشتها، فحين أبصرتها عيناى، رحلت أجمع شتات أفكاري الفوضوية المتناثرة، انتشر أريج عطرها، مدغداً أنفي، أشتم الآن أريج عطر السيدة ذات الرداء الأسود، عزيزتي السيدة ذات الرداء الأسود، التي لم تبصرها عيناى منذ زمن طويل! يا إلهي! مرت عشر سنوات من عمري، نصف سنّى حياتي، منذ أن رأيته آخر مرة! أشتم نفس العطر الذي كان يفوح دائماً من السيدة ذات الرداء الأسود، والتي لطالما أثارت إعجابي بمشاعرها الأمومية المتدفقة في ريعان شبابي. وبفضل ذكرى أريج عطر المحفورة في ثنايا وجداني، عزيزتي ذات الرداء الأسود، انتفضت ناهضاً عن مقعدي مقتنفاً أثر الأنسة ذات الرداء الأبيض باهرة الجمال، الغارق وجهها في شحوب مرعب، والتي لاحت الآن على عتبة القاعة المكتنفة بالغموض، حيث تالألأ شعرها الذهبي اللامع المنسدل خلفها كاشفاً عن أثر الجرح الغائر في صدغها والذي كاد أن يودي بحياتها.

هل أصابني البلاهة الذهنية أم توقف عقلي عن التفكير حين لمحت شحوبها الممتزج بجمال أخاذ وسحر لا يقاوم؟ ترتدي ثوباً منزلياً أبيض رائعاً، ولاحت كشبح عليل.. أخذها والدها بين ذراعيه مقبلاً إياها بشوق ولهفة وكأنها عادت إلى الحياة بعد أن نشب الموت مخالبه في جسدها. لم يجزؤ على طرح أي سؤال عليها، بل اصطحبها إلى غرفته، حيث تبعناها. ظلت الخادمتان تراقبان المشهد المثير بعينين مذعورتين، فقالت الأنسة بنبرة ملؤها الهدوء: "ما الداعي لهذه الضجة الهائلة؟ حسناً، الأمر بسيط للغاية، أبسط مما تتخيلون، خطرت ببالي فكرة عدم النوم بمفردي في غرفتي، ولذلك قررت الخلود إلى النوم في غرفة معيشتي برفقة خادمتيّ الأمينتين، فعمدت إلى إغلاق الباب كي لا يكدر أحد صفونا. في الواقع، منذ الليلة المشؤومة التي وقعت فيها الجريمة لاتزال الهواجس المرعبة والمبهمة تطاردني من حين لآخر، فينقبض قلبي ذعراً، وتصيبني نوبات من الهلع".

ولكن لايزال في جعبتي الكثير من التساؤلات التي تفرض نفسها: "ما الدافع وراء إقدام الأنسة ستانجرسون، هذه الليلة بالأخص -التي تسلل فيها المجرم إلى القصر- على مغادرة غرفتها، وقضاء أمسية لطيفة برفقة خادمتيها؟ لماذا قاومت مراراً وتكراراً، رغبة والدها في المبيت بين جدران غرفة معيشتها لكي يظل بجوارها وييث الطمأنينة في قلبها المنزعج؟ ما السر وراء اختفاء الخطاب الذي أبصرته عيناى موضوعاً على مكتبها الخشبي في غرفة نومها؟

من المنطقي أن الإجابات ستأتي على النحو التالي: يبدو أن الأنسة ستانجرسون كانت على علم بأن المجرم سيعود إلى القصر، ولم يكن بيدها حيلة لتمنعه من التسلل إلى القصر، لم تخبر أحداً بهذا الأمر بالغ الخطورة حتى لا يُزاح الستار عن هوية المجرم، ويظل مجهولاً للجميع، حتى بالنسبة لوالدها، باستثناء روبرت دارزاك، الذي من المتوقع أنه على علم بهوية المجرم، ربما جمع بينهما أحد اللقاءات! لايزال صدى العبارة التي ذكرت في حديقة القصر الجمهوري يتردد في أذني: "هل يتوجب عليّ ارتكاب جريمة للنيل منك؟". ضد من سيرتكب دارزاك جريمة، ضد العقبة التي تقع حائلاً بينه وبين معشوقته، ضد المجرم اللعين؟ تلوح في أذني الآن أيضاً العبارة التي تفوه بها السيد دارزاك: "كم أود أنه أمزقه إرباً إرباً بيدي"، رداً على هذا السؤال الذي طرحته عليه: "هل تمنع يا سيد روبرت في أن أنصب كميناً للإيقاع بالمجرم؟". عندئذ، أحبته قائلاً: "أصدق ما تقوله يا سيدي، ولكنك لم تحب عن سؤالي". لا شك أن السيد دارزاك يعرف المجرم، أو ربما تربطه به علاقة وثيقة ولذلك يخشى أن يُزاح الستار عن هويته، في حين أنه يرغب في تمزيقه إرباً. في الواقع، لم يزودني دارزاك بما ينبغي في

جعبته من أسرار لسبيين اثنين: أولاً، لأنني أجبرته على البوح بسر خطير، وثانياً لأنه آثر أن يظل الأمر طي الكتمان. أقف الآن بين جدران الغرفة، جدران غرفة نوم الأنسة ستانجرسون، أجول بناظري في شتى أرجاء المكان، أنطلع بين الفينة والأخرى إلى المكتب الخشبي الذي ترك الخطاب موضوعاً عليه منذ برهة. أخفت الأنسة ستانجرسون الرسالة؛ فمن الواضح أن المجرم دُون أسطرها ليبلغها بأمر خفي على الأذهان، انتابتي القشعريرة حين أبصرت الأنسة المسكينة ترتجف هلعاً، راحت تنتفض ذعراً إثر سماع القصة المثيرة للذهول التي رواها السيد ستانجرسون، والذي ذكر لها أن المجرم تسلل إلى القصر وظل ماكنّاً في غرفتها، مشيراً إلى محاولة نصب كمين له والانقضاض عليه. ولكن، من الواضح، من الواضح للغاية أن روعها لم يهدأ إلا حينما ذكر لها أن المجرم نجح في الاختفاء والإفلات من برائتنا عبر اللجوء إلى حيلة ماهرة مبهمة لا يصدقها العقل.

ثم خيم الصمت.. يا له من صمت مطبق قاتل! اتجهت جميع الأنظار نحوها تحترقها كالسهام، ظلت أعيننا -أعين والدها ولارسان والأب جاك وأنا- مثبتة عليها لبرهة. ما الأفكار التي تدور الآن من حولها وتكاد تحترق جدار الصمت؟ في الواقع، عقب ما جرى من أحداث هذه الليلة، وبعد لغز الغرفة الصفراء المغلف بهالة من الغموض، والتحقق من تسلل المجرم إلى غرفتها ومكوته بين جدرانها، يُمكن إنجاز جميع الأفكار التي تحوم حولها، والتي طرأت ببال الأب جاك، وتحوّل في ذهن السيد ستانجرسون، في بضع كلمات يود جميع الحاضرين إلقتها على مسامعها: "أوه! يا من تحبّين بين ضلوعك الدامية سرّاً خطيراً، أليس من المفترض أن تبوحي لنا بتفاصيله، فرمّا بمقدورنا أن نمد لك يد العون، ونمنحك طوق النجاة". أوه! كم أود أن أمد لها يد العون وأنقذها من بين براثن خصمها العنيد، أرغب في إنقاذها من سطوة عنادها، واشتباها الآخرين في تورطها، يعتصر قلبي ويتمزق شفقة عليها. نعم، أشعر أن عيني تغورقان بالدموع كلما أدركت معاناتها وما يتوارى من بؤس وشقاء خلف قضبان روحها.

ها هي الفتاة التي تضمخت بعطر السيدة ذات الرداء الأسود، ها هي تعود أخيراً إلى غرفتها التي لا تود أن تستقبلني بين جدرانها، وها هي لاتزال غارقة في لجة من الصمت الحذر، وها نحن ملتفون حول الفتاة المتشحة بالغموض منذ وقوع جريمة الغرفة الصفراء، يحدونا الأمل في كسر جدار الصمت اللعين، والبوح بما سيذهل عقولنا. لا شك أن تحرقنا شوقاً لمعرفة الحقيقة وتأهينا للانخيل عليها بسيل من الأسئلة الحائرة شكل عبئاً إضافياً عليها. ما الذي يضمن لها ألا يؤول فك طلاسم اللغز المريع إلى نتائج كارثية أكثر بشاعة ووحشية من التي وقعت بالفعل؟ ما الذي يضمن لها ألا تلقى حتفها؟ ولكنها كانت على شفا حفرة من الموت! ولا ندري ما جرى خلف الكواليس، أو بالأحرى أغلبنا لا يزالون يرزحون تحت وطأة التخبط والغموض. ولكن، لو أن الغيوم انقشعت وزال الغموض، ستتجلى الحقيقة بأكملها أمام ناظري. من هو المجرم؟ وإلى أن تنقشع الغيوم، سألتزم الصمت بدافع الشفقة عليها، فمما لا شك فيه أنها تعرف يقيناً الحيلة الماهرة التي لجأ إليها المجرم ليفر هارباً من الغرفة الصفراء، وبالرغم من ذلك، آثرت أن تلتزم الصمت المطلق. ولكن متى سأفتح فاهي؟ حينما يُكشف النقاب عن هوية المجرم، وعندئذ، سأتحاذب معها أطراف الحديث بشأنه.

ها هي ترمقنا، بين الفينة والأخرى، بنظرات غير مكترثة، وكأنها لا تعباً بأمر تجمهرنا بين جدران غرفتها، وأخيراً، كسر السيد ستانجرسون حاجز الصمت مخبراً الجميع أنه من الآن فصاعداً لن يبرح شقة ابنته الوحيدة، فشعرت الأنسة بأنه من غير المجدي أن تعارض القرار الصائب والحتمي الذي تشبث به السيد ستانجرسون. أخبرها أنه لن يتركها، بدءاً من هذه الليلة، وها هو يوجئها لأنها نخضت عن فراشها، ثم فجأة راح يلقي على مسامعها خطب طفولية موجزة.. ثم أخذ يبتسم لها، لم يعد يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل! كاد الأستاذ ذائع الصيت أن يفقد عقله، وراح يهذي بكلمات غير متناسقة تنم عن غرق ذهنه في فوضى عارمة، كلمات لم ندرك سوى القليل من فحواها.

في نهاية المطاف، تفوهت الأنسة ستانجرسون بكلمتين ملؤها الألم والحسرة: "أبي! أبي!", انفجر السيد ستانجرسون منتحباً، وأجهش الأب جاك بالبكاء، كما اضطر فريدريك لارسان أن يشيح بوجهه بعيداً محاولاً إخفاء اضطراب مشاعره، أما أنا، فلم أستطع تحمل المشهد المؤثر، تخدر عقلي، وتبلدت مشاعري، وتكدر قلبي. هذا هو اللقاء الأول الذي يجمعنا - أنا والسيد لارسان - والأنسة ستانجرسون منذ وقوع جريمة الغرفة الصفراء. كان السيد لارسان قد أصر مراراً وتكراراً، مثلما

فعلت أنا، على استجواب الفتاة البائسة، بيد أن جميع مساعيه باءت بالفشل الذريع، ولطالما تلقينا هذا الرد المثير للاندھاش: السيدة ستانجرسون أصابها الوهن والسقم وغير قادرة على الحديث، فقد أُنْهكتها استجوابات قاضي التحقيق إلى حد كبير. في الواقع، لم تبدِ الأنسة أي استعداد لتمد لنا يد العون طوال بحثنا الدؤوب، وهذا أمر لم يفاجئني ألبتة، ولكنه لطالما أثار اندھاش لارسان.

أجهش الجميع بالبكاء، وظل صدى هذه الكلمات يتردد في عمق أعماقي: "أنقذوها! أنقذوها رغماً عنها! أنقذوها دون المجازفة بحياتها! أنقذوها حتى لو أثرت التزام الصمت!"، آه! ليت هذه الفتاة، التي تشيح بوجهها بعيداً عنا، ويعتصر قلبها حزناً وألماً على والدها، تدرك أنني قادر على إنقاذها من بين برائن عدوها اللدود. نعم، نعم، سأطلق العنان لأفكاري ولخيالي، وسأحقق ما عجز عنه الآخرون.

تقدمت بضع خطوات نحوها تحذوني الرغبة في التحدث إليها، أود أن ألتمس منها أن تمنحني ثقتها المطلقة، أود أن ألقى على مسامعها بضع كلمات لتدرك أنني على علم بحيلة المجرم الماكرة التي لجأ إليها للهروب من الغرفة الصفراء، وأني خمنت أبرز ملامح أسرارها، وأن قلبي يكاد يتمزق شفقة عليها، ولكن لسوء الحظ أصدرت إيماءة توجي بأن ندعها وشأنها، فقد أضناها الإرهاق والتعب، وترغب في نيل قسط وافر من الراحة. التمس منا السيد ستانجرسون أن نعود إلى غرفنا على الفور، ثم أعرب لنا عن خالص شكره، تمنينا له ليلة هانئة، ثم تبعنا الأب جاك إلى القاعة، وتناهى إلى مسامعي صوت لارسان يتمتم قائلاً: "يا للغرابة! سيجن جنوني!"، دعاني فريدريك لارسان لدخول غرفته، وقبل أن يغلق الباب خلفنا، استدار ملتفتاً نحو الأب جاك، وسأله قائلاً:

- هل تمكنت من رؤيته؟

- من؟

- المجرم!

- بالطبع يا سيدي! أبصرت رجلاً ملتجياً كثيف الشعر، ذا بشرة شقراء ضاربة إلى الحمرة.

صحت مدهوشاً: "هذه هي نفس الملامح التي رأيته".

قال لارسان: "وأنا أيضاً".

جلست بمفردي مع فريد العظيم نتجاذب أطراف الحديث بين جدران غرفته. استمر الحديث قرابة الساعة، وناقشنا القضية من مختلف الزوايا. من الواضح أن فريد -بناءً على كم هائل من الأسئلة التي طرحها على مسامعي، والشروحات التي أسهب في عرضها- تحدوه قناعة راسخة، بالرغم مما رآه، وبالرغم مما أبصرته أعين الجميع، بأن المجرم فر هارباً عبر ممر سري اعتاد التسلل إلى القصر من خلاله. ثم أردف قائلاً: "ولأنه اعتاد التردد على المكان، فهو يعرف جيداً هذا الممر السري".

- إنه شخص طويل القامة، وممشوق القوام.

تمتم فريد قائلاً: "وهذا يؤكد صحة افتراضاتي".

- أدرك ما الذي يدور في خلدك، ولكن كيف تفسر وجود اللحية الصهباء والشعر الكثيف؟

- لحية زائفة، وشعر مستعار.

- لاتزال شكوكك تحوم حول روبرت دارزاك! ألم يحن الوقت للعدول عن فكرتك؟ لدي يقين تام بأنه بريء.

- حسناً! أرجو ذلك، ولكن جميع الأدلة تشير إلى تورطه، هل لاحظت آثار الأقدام المطبوعة على البساط بالخارج؟ تعالَ معي لتتفحصها.

- رأيتهما، نفس آثار الحذاء العصري الأنيق التي اكتشفناها بجوار حافة بركة المياه.

- إنها آثار أقدام روبرت دارزاك، هل ستنكر ذلك؟

- بالطبع، ربما جانبنا الصواب.

- هل لاحظت أن آثار الأقدام تأخذ اتجاهاً واحداً، ولم تظهر في الاتجاه المعاكس؟ عندما هرب المجرم من الغرفة، وركضنا وراءه لكي نمسك به، لم تترك خطاه أية آثار على الأرض أو البساط.

- ربما ظل المجرم قابلاً بين جدران الغرفة لبضع ساعات، فجف الوحل الذي تلتخ به الحذاء، أبصرناه يفر هارباً، ولكن لم يصدر عنه أي صوت.

توقفت فجأة عن التفوه بمثل هذه العبارات غير المتسقة، والمفتقرة إلى المنطق، وغير الملائمة، ثم أومأت بإصبعي إليه ملتمساً منه أن يرهف السمع:

- هناك صوت ينبعث من الطابق السفلي، أغلق أحد الأبواب.

نهضت عن مقعدي ثم تبعتي لارسان.. هبطنا الدرج وغادرنا القصر. اصطحبت فريد إلى الغرفة الصغيرة البارزة التي تطل شرفتها على نافذة القاعة الدائرية، ثم أشرت بإصبعي إلى بابها المغلق الذي يتسرب الضوء من أسفله، والذي فُتح منذ بضع لحظات، ثم أغلق. قال فريد: "لا شك أنه الحارس".

همست في أذنه قائلاً: "هيا، فلنذهب لرؤيته".

اتخذت قراري، ولكن أي قرار؟ هل أيقنت أن الحارس هو الجاني؟ هل يُمكنني الجرم بمثل هذه المعلومة؟ تقدمت بضع خطوات، ثم رحت أطرق باب الغرفة بحدة. لا شك أن البعض يظنون بأن قرار تفحص غرفة الحارس تأخر كثيراً، وأنه كان من المنطقي - عقب التحقق من أن المجرم نجح في الفرار هارباً من القاعة - الشروع في اقتفاء أثر الجاني في كل مكان، والبحث عنه حول القصر، وفي الحديقة، في كل مكان. ولكن، يُمكن تقديم جواب وافيٍ وشفاف رداً على هذا الاعتراض، وسيكون على النحو التالي: لجأ القاتل إلى حيلة سحرية مأكرة وغير معروفة للهروب من القاعة، فقد توارى عن أنظارنا بغتة ودون سابق إنذار، لقد فر من بين أيدينا حينما أوشكنا على الإمساك به. في الواقع، أصبنا جميعاً بالذهول والصدمة، ولم يدر في خلدنا أنه من الممكن العثور عليه في حديقة غارقة في ظلام الليل الحالك، كان اختفاؤه المفاجيء بمثابة صاعقة وقعت على رؤوسنا.

فُتح الباب على الفور بمجرد الطرق عليه، ولاح الحارس سائلاً إيانا عما نريده بنبرة ملؤها الهدوء، كان يرتدي ثياب النوم متأهباً للخلود إلى الفراش الذي لم يُيسط غطاءه بعد. ولجنا الغرفة، فأبدت دهشتي قائلاً: "لم تخلد إلى النوم بعد، أليس كذلك؟!"

أجابنا بنبرة حادة قائلاً: "لا، خرجت للتنزه قليلاً رغباً في استنشاق الهواء في الحديقة والغابة، ثم عدت أدراجي. والآن، أشعر بالنعاس، طابت ليلتكم!"

قلت: "أرجو أن تسمعي بانتباه، هناك درج خشبي ظل منصوباً بالقرب من نافذتك لفترة من الوقت".

- درج خشبي؟ لم أبصر شيئاً. طابت ليلتكم!

أمرنا بمغادرة غرفته على الفور، وفور خروجنا، رحت أتطلع إلى لارسان المتعذر سبر أغواره، ثم تساءلت: "ألم تفتح لنا هذه الزيارة آفاقاً جديدة؟".

بدا فريد متعكر المزاج، وحينما عدنا إلى القصر، تناهى إلى مسامعي صوته وهو يتمتم قائلاً:

- سيسير كل شيء على ما يرام، ولكن من المثير للغربة أن أخطأ في حساباتي بشأن هذا الأمر!

تملكني شعور بأنه أراد أن يردد هذه العبارة على مسامعي بدلاً من مخاطبة نفسه بها، ثم أردف قائلاً:

- على أية حال، ستجلي الغيوم قريباً، وستسطع الحقيقة كالشمس في كبد السماء.

## الفصل الثامن عشر

### روليتاي يرسم دائرة بين نتوي جبهته

(تابع) مقتطفات من يوميات جوزيف روليتاي

انصرف كل منا متوجهاً إلى غرفته بعد مصافحة بالأيدي خيم عليها الحزن والإحباط. أحسست ببهجة عارمة تغمر قلبي فور إدراكي الشكوك التي ساورت ذهن المحقق متقد الذكاء، والذي يبدو أنه سيسعى جاهداً لإعادة حساباته متداركاً تناقضات منهجيته العقيمة، لم أخلد إلى فراشي وانتظرت بفارغ الصبر بزوغ أضواء فجر يوم جديد. غادرت القصر، ورحلت أتجول بين جنبات الحديقة متفحصاً آثار الأقدام المتجهة نحو القصر والتي غادرتها، لم يسفر بحثي الدؤوب عن شيء نظراً لامتزاج وتداخل آثار الأقدام مع بعضها البعض. فضلاً عن ذلك، أود أن أنتهز هذه الفرصة مشيراً إلى أنني لست معتاداً على تعليق أهمية كبيرة على آثار الأقدام التي تُكتشف خارج إطار مسرح الجريمة، من الواضح أن المنهجية المتبعة لكشف النقاب عن هوية المجرم عبر اقتفاء آثار القدمين تتسم بالبدائية والتخلف. في الواقع، هناك العديد من آثار الأقدام المتطابقة تماماً مع بعضها البعض، ولا يجوز، بأية حال من الأحوال، الاستناد إليها كدليل.

وفي خضم حيرتي، وتشتت أفكارتي، توجهت إلى الفناء الرئيسي، ثم انهمكت في تفحص جميع آثار الأقدام التي وقعت عليها عيني، يحدوني الأمل في العثور على أول دليل يمكنني من التثبت بشيء معقول وملمس يُعتبر بمثابة نقطة انطلاق لبناء سلسلة من البراهين المنطقية لأحداث القاعة المكتنفة بالغموض. ولكن كيف يُمكنني إقامة البراهين والحجج المنطقية؟ آه! سأقيم البراهين المنطقية ساعياً لبلوغ غايتي المنشودة وتحقيق مآربي! جلست بعد أن تملكني اليأس واستبد بي الإحباط، على أحد أحجار الفناء الرئيسي المهجور. أدركت أن ما أسعى لفعله منذ أكثر من ساعة، لا يغدو من وجهة نظري، سوى عمل زهيد يُمكن لأي شخص أن ينجزه. سأسعى جاهداً لتدارك الخطأ، مثلما فعل المحقق الشهير، وسأقتفي أثر بعض الخطوات التي ستبوح لي بالعديد من الأسرار.

شعرت بدونيتي، وأدركت أنني أقل ذكاءً من رجال الأمن والمحققين الذين يبدع الروائيون المعاصرون في تصوير شخصياتهم؛ أقصد محققي الشرطة الذين اكتسبوا طباعاً متفردة عبر قراءة روايات "إدجار بو" أو "كونان دويل". آه! يا لغرابة هؤلاء المحققين نتاج الإبداع الأدبي، الذين يشيدون جبلاً من الحمق والبلاهة والغباء، بخطوة واحدة على الرمال، وبرسم صغير ييدهم على أحد الجدران! وأنت يا عزيزي فريدريك لارسن، ألسنت أحد هؤلاء المحققين نتاج الإبداع الأدبي! لا شك أنك تعكف على قراءة الكثير من روايات "كونان دويل" يا صديقي! سيدفعك شيرلوك هولمز إلى ارتكاب الكثير من حماقات، حماقات فكرية تفوق تلك التي نقرأها في الروايات، حماقات ستدفعك إلى إلقاء القبض على شخص بريء، واتباع منهجية كونان دويل، نجحت في إقناع قاضي التحقيق ومدير الأمن، الجميع. وها أنت تتحرق شوقاً لوضع يدك على دليل أخير، دليل أخير! أخبرني إذن، أين دليلك الأول أيها البائس؟! فكل ما يخضع لتقييم حواسك لا يعد دليلاً منطقياً، وها أنا سأنهمك أيضاً في تفحص الآثار الملموسة، ولكن بغية أن تمنحني فقط فرصة التيقن بشأن الدائرة التي رسمها عقلي.

آه! كم بدت هذه الدائرة - في كثير من الأحيان - ضيقة، بل ضيقة للغاية، ولكن بالرغم من ضيقها إلا أنها تتسم بالضخامة، طالما أنها حوت بداخلها الحقيقة بأكملها وبأدق تفاصيلها! نعم، نعم، أقسم لك أن الآثار الملموسة لم تكن، من وجهة نظري، سوى مجرد وسيلة لبلوغ الغاية، ولم تجعل مني شخصاً فاقداً البصيرة، شخصاً يتحسس طريقه في الظلام الدامس! ولهذا ستحسم المعركة لي، وسأنتصر على خدعك المضللة وتفكيرك الهمجي يا فريدريك لارسن! حسناً! حسناً! سأظفر بالفوز، بالرغم من أن الحادث الذي وقع ليلة البارحة في قاعة يكتنفها الغموض، لا يتوافق مع الدائرة التي رسمها عقلي. ها أنا شارّد الذهن، أتفحص بامعان آثار الأقدام، وتكاد أنفي تلتصق بالأرض كخنزير غائص في الوحل يبحث، بشكل عشوائي، بين القمامة عما يسد رمقه. هيا! هيا يا روليتاي يا صديقي، ارفع رأسك عالياً، من المستحيل أن يظل الحدث الذي وقع بين جدران القاعة المكتنفة بالغموض خارج إطار الدائرة التي رسمها عقلك. لاتزال الأمور تخضع لسيطرتك! ولذلك، ينبغي أن ترفع رأسك. اضغط بقوة بكلتا يديك على نتوي جبهتك، لتتذكر أنه حينما أقدمت على

رسم هذه الدائرة، تشكّلت ملاحظتها في عقلك مثلما يرسم المرء شكلاً هندسياً على الورق، ولذلك سوف تبلي بلاء حسناً! حسناً، لا تتسمر في مكانك. انطلق نحو القاعة المكتنفة بالغموض متوكئاً على الدائرة التي رسمت في عقلك، مثلما يتوكأ فريدريك لارسان على عصاه، وسرعان ما سيتبين لك حتماً أن فريد العظيم ليس سوى مجرد شخص أحمق. جوزيف روليتابي، 30 أكتوبر، ظهراً.

وهكذا، استغرقت في تفكير عميق، وُترجمت أفكارى لأفعال، شبت نيران الحماسة في قلبي، فعدت إلى القاعة، وبالرغم من أنني لم ألاحظ شيئاً غير مألوف أو مغايراً لما رأيته ليلة البارحة، أوحى لي الدائرة التي رسمتها في عقلي بضرورة وجود شيء بالغ الأهمية لا بديل عن التشبث به حتى لا أنهار ساقطاً.

آه! ومع ذلك، سيتطلب الأمر مجهوداً هائلاً لاستكشاف الآثار الملموسة التي ستُدرج، بل والتي ينبغي أن تدرج في الدائرة الأكثر اتساعاً التي رسمتها هنا، بين نتوئي جبهتي! جوزيف روليتابي، 30 أكتوبر، منتصف الليل.

## الفصل التاسع عشر

### روليتاي يدعوني لتناول العشاء في فندق البرج

سلمني روليتاي، في وقت لاحق، دفتر يومياته الذي دون فيه - في صباح اليوم الذي أعقب الليلة المثيرة المشوبة بالغموض - أدق تفاصيل لغز القاعة المتعذر تفسيره، عندما التقيت به في قصر "جلاندييه" توجهنا إلى غرفته، وراح يقص على مسامعي أدق التفاصيل التي ذكرتها لكم، بما في ذلك تفاصيل الساعات القليلة التي قضاها هذا الأسبوع في باريس، والتي لسوء الحظ لم تمده بشيء جديد.

وقع حادث القاعة المكتنفة بالغموض في ليلة 29 أكتوبر، أي قبل ثلاثة أيام من عودتي إلى القصر، وهذا يعني أنني ألتقيت بصديقي يوم 2 نوفمبر، وبناء على برقية صديقي الذي استدعاني للحضور ويرفقي مسدسين، عدت إلى قصر جلاندييه يوم الثاني من نوفمبر انصياعاً لرغبته. وها أنا أجلس في غرفة روليتاي الذي انتهى للتو من سرد تفاصيل قصته المثيرة. وبينما راح يقص على مسامعي الأحداث المثيرة للفضول، لم يتوقف برهة عن مداعبة تحذب عدستي النظارة التي عثر عليها فوق المنضدة، وأدركت الأهمية البالغة التي تشكلها هذه النظارة الأنفية المصممة لعلاج طول النظر فور رؤية ملامح وجهه المشعة بالبهجة. من الواضح أن النظارة تعد أحد الأدلة الملموسة التي يتوجب عليه إدراجها في الدائرة التي رسمها في عقله. يبدو أن المنهجية المثيرة للغرابة، والفريدة من نوعها التي لجأ لصياغتها عبر توظيف مصطلحات وعبارات تتوافق مع طريقة تفكيره، لم تعد تثير دهشتي، ولكن في كثير من الأحيان، كان لازماً عليّ تتبع مسارات فكره لكي أدرك فحوى عباراته المشوبة بالغموض، فليس من السهل سبر أغوار جوزيف روليتاي.

تُعد منهجية تفكيره واحدة من أكثر الأشياء المثيرة للفضول التي لاحظتها طوال حياتي. ظل روليتاي يتأرجح بين جنبات الحياة متسلحاً بها دون أن يساوره الشك في أي شيء مثير للدهشة يعترض طريقه، أدار الجميع رؤوسهم نحو هذه المنهجية، عندما رأوها تمر بجوارهم مرور الكرام، فتوقفوا ليتأملوها وكأنهم يمعنون النظر في شبح غير مألوف صادفهم في طريقهم، وكأنهم يقولون لأنفسهم: "من أين جاء هذا الشيء! وإلى أين سيذهب؟ وعلى هذا الغرار، يُمكننا القول: "من أين تنبع منهجية جوزيف روليتاي، وإلام ستؤول؟". يمكنني الاعتراف بأنه لم يساوره الشك للحظة في تفرد هذه المنهجية غير المسبوقة، ولم ينزعج من أن يتبناها أي شخص آخر.

سألني جوزيف روليتاي عما يدور في ذهني بشأن القصة التي رواها على مسامعي للتو، أخبرته أن سؤاله زج بي في دوامة من الحيرة، ولذلك أسدي لي نصيحة بأن أسعى جاهداً لرسم دائرة في عقلي. صحت قائلاً: "حسناً، ومن الواضح أن نقطة انطلاق تفكيري ستكون كالتالي: لا شك أن المجرم المطارد ظل لبرهة من الوقت في القاعة". توقفت عن الحديث، فقال صديقي مدهوشاً: "هذه نقطة انطلاق رائعة. لا تتوقف، امضِ قدماً بأقصى سرعة ممكنة. هيا، ابذل القليل من الجهد".

- سأحاول جاهداً، ما بين لحظتي مطاردته وتواريه عن الأنظار، لم يكن بمقدوره الفرار هارباً عبر أحد الأبواب، أو إحدى النوافذ، ولذلك لجأ للهروب عبر ممر سري.

تطلع روليتاي نحوي مُبدياً الشفقة، ثم ارتسمت على ثغره ابتسامة ساخرة، وأخبرني على الفور أنني لجأت لاستخدام منهجية تفكير عقيمة.

- ماذا قلت؟ منهجية تفكير عقيمة؟ أنت تحذو حذو فريديريك لارسان!

ولأن جوزيف روليتاي مر بأوقات تأرجحت فيها مشاعره بين الإعجاب المطلق بفريديريك لارسان والإزدراء به، فتارة يصبح مُعجباً: "يا له من شخص عبقر"، وتارة أخرى يشكو قائلاً: "يا له من شخص يتسم بالفظاظة"، فبناء على هذا التأرجح، جاءت اكتشافات لارسان في بعض الأحيان، داعمة لمنطقه وتقديره للأمور، وفي أحيان أخرى تعارضت مع منهجيته شكلاً وموضوعاً. في الواقع، تعد هذه النقطة هي أحد أبرز ملامح شخصية الشاب غريب الأطوار. نخضنا عن مقعدينا، ثم اصطحبني صديقي إلى حديقة القصر، حين وطئت أقدامنا الفناء الرئيسي قرنا مغادرة القصر، وتوجهنا نحو المخرج، ولكن تناهى إلى مسامعنا صوت ارتطام مصراع إحدى النوافذ بأحد الجدران، فالتفتنا إلى الورا، وللتو أبصرنا في

الطابق الأول من الجناح الأيسر للقصر، شخصاً، غريباً بالنسبة لي، ذا بشرة قرمزية، حليق اللحية والشارب، يتطلع عبر النافذة.

تتم روليتابي مدهوشاً: "عجباً! إنه السيد آرثر رانس!".

طأطأ صديقي رأسه، ثم سار مسرع الخطى، وهو يردد بصوت خفيض:

- إذن، هل بات الليلة الماضية بين جدران القصر؟ ما الذي جاء به إلى هنا؟

حينما غادرنا القصر، سألته عن هذا المدعو آرثر رانس، والعلاقة التي تربطه به. عندئذ، راح يذكرني بتفاصيل قصته المثيرة للفضول التي سردها على مسامعي صباحاً، ثم أخبرني أن السيد آرثر رانس هو أحد علماء أكاديمية فيلادلفيا الذين تجاذب معهم أطراف الحديث أثناء حفل الاستقبال الذي أقيم في القصر الجمهوري.

- ولكن، ألم يكن من المفترض أنه سيغادر فرنسا عقب هذه الأمسية؟

- نعم، ولذلك تملكيني دهشة عارمة حين رأيته للتو، ولا سيما هنا، بين جدران قصر جلاندييه، لم يصل إلى القصر هذا الصباح، أو ليلة البارحة، لا شك أنه قد وصل قبل العشاء، ولم أره، لماذا لم يخبرني حارس القصر أو زوجته بهذا الأمر؟

أوضحت لصديقي أنه لم يُخبرني، حتى الآن، بالأسباب الكامنة وراء إطلاق سراح حارس العقار وزوجته. تفصلنا الآن بضعة خطوات عن حجرة الحارس.. اتجهنا بسرعة نحو السيد برنييه وزوجته، فأشرق وجههما الطلق بابتسامة عريضة. يبدو أن ذكريات احتجاجهما المؤقت بين جدران السجن تُحييت من ذهنيهما، ولم يعد لها أي أثر. وجه صديقي الشاب إليهما سؤالاً بشأن موعد وصول آرثر رانس إلى القصر، فأخبراه أنهما ليسا على علم بأنه جاء إلى القصر. من المحتمل أنه حضر إلى القصر ليلة البارحة، ولم يكن لزاماً عليهما أن يفتحا البوابة على مصراعها أمامه لكي يسمحا له بالدخول، فالسيد آرثر رانس، الذي يبدو شغوفاً بممارسة رياضة المشي، لا يجيء إلى القصر بواسطة السيارة، فقد اعتاد النزول في محطة بلدة "سان ميشيل" الصغيرة، ومن هناك يشق طريقه مجتازاً الغابة، ثم يجيء إلى القصر. من المؤكد أنه وصل إلى الحديقة ماراً بمغارة القديسة جينيفيف، ثم قفز من فوق جزء غير مرتفع من السياج.

وكلما تنطلق الإجابات من بين شفاة البواب وزوجته، كلما يعلو الاستياء والتجهم ملامح وجه روليتابي الذي عجز عن إخفاء ضجره وتأففه المتواصل، اكتسى وجهه بتعابير تنم عن الانزعاج والحيرة، فبعد ما بُذل من جهود حثيثة، ومضنية على مدار الأيام الماضية، وسبرٌ دقيق ومتأنٍ لأغوار سكان القصر والمحيطين به، صار لزاماً عليه الآن إدراك الدوافع الكامنة وراء اعتياد آرثر رانس المجيء إلى القصر. وبوجه استولت عليه سحابة من الغم والكآبة، طلب روليتابي المزيد من الإيضاحات:

- أخبرتني للتو أن السيد آرثر رانس اعتاد المجيء إلى القصر. متى أتى إلى هنا آخر مرة؟

- من الصعب تحديد ذلك يا سيدي، نظراً لأننا احتُجزنا لفترة من الوقت، ولم تتمكن من معرفة أي شيء يدور في الخارج، ثم أن هذا الرجل، عندما يجيء، لا يمر عبر البوابة المكلفان بحراستها، ولا نراه أثناء المغادرة.

- حسناً، هل تعلمان متى جاء إلى هنا لأول مرة؟

- أوه! نعم يا سيدي... منذ قرابة التسع سنوات!

- لقد جاء بالفعل إلى فرنسا منذ تسع سنوات، ولكن كم عدد المرات التي أتى فيها إلى القصر؟

- ثلاث مرات.

- ومتى كانت آخر مرة جاء فيها إلى القصر قبل اليوم؟

- قبل أسبوع من وقوع جريمة الغرفة الصفراء.

التفت روليتابي هذه المرة نحو زوجة الحارس سائلاً إياها:

- في إحدى شقوق الأرضية الخشبية، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي، في إحدى شقوق الأرضية الخشبية.

- شكراً لكما، وأرجو أن تُعدا العدة جيداً لهذه الليلة.

تفوه روليتابي بهذه الجملة الأخيرة واضعاً إصبعه على شفثيه في إشارة لهما بالتزام الصمت وكتمان السر. غادرنا الحديقة

منطلقين نحو فندق البرج، فسألت صديقي:

- هل اعتدت تناول الطعام في هذا الفندق؟

- في بعض الأحيان.

- ولكن، أليس من المفترض أن تُقدم إليك وجبات الطعام في القصر؟

- نعم، اعتاد الخدام أن يحضروا إلينا -أنا ولارسان- وجبات الطعام في إحدى غرفنا.

- ألم يدعُك السيد ستانجرسون، منذ الإقامة في القصر، لتناول الطعام برفقته؟

- لم يوجه إليَّ الدعوة مطلقاً.

- هل تظن أن وجودك في القصر يكدر صفوه؟

- لا أدري، ولكن تصرفاته توحى بأن وجودنا لا يزعجه.

- هل اعتاد أن يطرح عليك الأسئلة؟

- مُطلقاً! تحجرت الأفكار في ذهنه، فقد أصيب بصدمة مروعة وتملكه شعور بالقهر حينما ظل متسماً في مكانه أمام باب الغرفة الصفراء لا حول له ولا قوة، وعاجزاً عن إنقاذ ابنته الوحيدة التي تنازع سكرات الموت في الداخل، كما استبد به اليأس عندما لم يجد أثراً للمجرم عقب تحطيم الباب. تملكته قناعة تامة بأن الجميع ليس بمقدورهم إحراز أي تقدم ملموس، ولا سيما بعد أن باءت جميع محاولاته بفشل ذريع، بيد أنه التزم بنصيحة فريدريك لارسان منصاعاً لأوامره حينما أخبره بضرورة ألا يحبط همنا ويثبط عزائمنا.

انغمس روليتاني مرة أخرى في تأملاته العميقة، ثم استفاق أخيراً من شرود ذهنه، وأخبرني بتفاصيل نجاحه في إطلاق سراح الحارس وزوجته:

- التقيت مؤخراً بالسيد ستانجرسون حاملاً ورقة بيضاء، والتمست منه أن يكتب هذه العبارات: "أنعهد، بغض النظر عما يثار من أقاويل، بإبقاء خادمي المخلصين، بيرنيه وزوجته، في قصري"، ثم طلبت منه أن يذيل هذه العبارات بتوقيعه. أخبرته أن هذه الورقة ستمهد الطريق أمامي لتجاذب أطراف الحديث مع حارس القصر وزوجته اللذين لا شك أنهما لم يتورطا في ارتكاب الجريمة. أظهر قاضي التحقيق الورقة المذيلة بتوقيع السيد ستانجرسون أمام الخادمين، فانفكت عقد لسانيهما، وتلاشى خوفهما من فقدان وظيفتيهما، وأخبراه أنهما خانا العهد، وتعديا على ممتلكات السيد ستانجرسون، فعكفا على صيد الأرانب دون إذن سيدهما، وأنهما ليلة وقوع الجريمة ظلا على مقربة من الجناح متأهبين لإجراء عمليات الصيد.

وهكذا، اعتادا بيع الأرانب القليلة التي يكتننها بهذه الطريقة غير المشروعة - دون علم السيد ستانجرسون - إلى صاحب الفندق، الذي لم يتوانَ عن تقديمها في شكل وجبات إلى المترددين على الفندق، أو ربما لجأ إلى بيعها بسعر باهظ في باريس، لقد أدركت هذه الحقيقة منذ أول يوم وطئت فيه قدماي القصر، أتذكر تلك العبارة التي تفوهت بها إثر ولوجنا فندق البرج منذ أكثر من سبعة أيام: "آن الأوان لتناول اللحم المزهب". تناهت هذه العبارة إلى مسامعي في صباح نفس ذلك اليوم، حينما توقفنا أمام بوابة الحديقة، ولا شك أنك سمعتها أيضاً، لكن يبدو أنك لم تعلق عليها أهمية كبيرة، لا شك أنك تذكر أنه حينما أوشكنا على الوصول إلى بوابة القصر، تسمرنا لبضع لحظات في مكاننا، ورحنا نتطلع إلى رجل غريب الأطوار يقف أمام سور الحديقة، ويذرع المكان جيئةً وذهاباً متطلعاً باستمرار إلى ساعته، لقد كان هذا الرجل هو فريدريك لارسان بشحمه ولحمه المنهمك في عمل دؤوب. في تلك الأثناء، انبعث صوت أجش من خلفنا، حيث كان صاحب الفندق متسماً على عتبة باب فندقه مخاطباً أحد الأشخاص في الداخل بهذه الكلمات: "آن الأوان لتناول اللحم المزهب".

لماذا "آن الأوان"؟ في الواقع، يتعين على شخص مثلي، يسعى دائماً لكشف الغموض الذي يكتنف الأحداث والوقائع المهمة، ألا يدع أية تفاصيل تسقط سهواً منه. ينبغي أن يكون مرهف السمع ومفتوح العينين. من الضروري أن نسعى دائماً لإدراك فحوى كل شيء نراه أو نسمعه، ولا ندع الأحداث تمر مرور الكرام. في تلك الأثناء، كانت أقدامنا قد

وطئت بالفعل أرض بلدة صغيرة تعيش حالة من الغليان إثر وقوع جريمة مروعة، قاذبي حدسي وفطرتي إلى الاشتباه في أن أية عبارة ستُقال ربما سترتبط بالحادث المأساوي الذي وقع في ذلك اليوم. ظلت هذه العبارة القصيرة "آن الأوان" تعني لي (منذ وقوع الاعتداء)، سعت جاهداً منذ انطلاق تحقيقاتي، إلى كشف النقاب عن العلاقة الكامنة بين هذه العبارة المبهمة ووقوع الجريمة.. توجهنا إلى فندق البرج لكي نتناول الغداء، وهناك ذكرت على الفور هذه الجملة المشوبة بالغموض، وعندئذ لم يتمكن الأب ماتييو من إخفاء دهشته وانزعاجه نظراً لما تشكله من أهمية كبيرة.

كان خبر إلقاء القبض على حارس العقار وزوجته قد تنامي إلى علمي، وعندما أشار إليهما الأب ماتييو في حديثه ذكر أنهما صديقان ودودان، وأنه حزين لإلقاء القبض عليهما، ترابطت أفكاري في انسجام بديع، فقلت لنفسي: "سيتعين علينا الآن، عقب إلقاء القبض على الصديقين المقربين، تناول اللحم المزهَّب"، ألقى القبض على الصديقين، إذن، لم يعد هناك المزيد من الصيد الثمين! كيف قاذبي حدسي إلى فكرة بهذه الدقة تتعلق بالصيد الثمين! الكراهية التي يضرها الأب ماتييو في قلبه إزاء حارس بوابة قصر السيد ستانجرسون (الرجل الأخضر)، أوحى إليّ بفكرة صيد الأرناب غير المشروع.

وبما أنه من الواضح أن حارس القصر وزوجته لم يكونا في فراشهما وقت وقوع الجريمة، فلماذا غادرا غرفتهما في تلك الليلة؟ هل لأتهما متواطئان في الجريمة؟ لم أمل إلى تصديق هذا الافتراض، لأنني أدركت وقتئذ، لأسباب سأخبرك بها لاحقاً، أن المجرم ارتكب الجريمة بمفرده ولم يعاونه أي شريك، وأن هذه المأساة المروعة تخفي بين طياتها لغزاً محيراً يجمع بين الأنسة ستانجرسون والمجرم، لغز وقف أمامه حارس العقار وزوجته عاجزين لا حول لهما ولا قوة. أزيح الكثير من الغموض بشأن الحارس وزوجته فور انقشاع الغيوم عن قصة صيد الأرناب غير المشروع.

اقتنعت مبدئياً بهذه الفكرة، ورحت أبحث عن دليل - بين جدران حجرتهم الصغيرة - يقطع شكي بيقيني. تسللت إلى الداخل كما تعلم، وعثرت أسفل فراشهم على شراك وأسلاك نحاسية، فكرت قائلاً: "تباً لهما! لهذا السبب غادرا حجرتهما وظلا في الحديقة ليلاً". ولذلك، لم تتباني أية دهشة حينما رأيتهما ملتزمين بالصمت أمام القاضي، وبالرغم من الاتهام الخطير الذي وجه إليهما والذي ينطوي على التورط في ارتكاب جريمة قتل، لم يعتزفا على الفور بلجوئهما إلى الصيد غير المشروع. أنقذهما سلوكهما المعيب من بطش محكمة الجنايات، لكنهما طُردا من القصر، ولأتهما ظلاً واثقين تمام الثقة من براءتهما، تشبهاً بأمل التيقن منها قريباً، وأصرا على عدم الاعتراف بجريمة الصيد غير المشروع، تملكهما شعور بضرورة البوح بسرهما في اللحظة المناسبة! وسرعان ما أقرأ بذنبهما وخيانتهم للعهد فور قراءة التعهد المذيل بتوقيع السيد ستانجرسون. في الواقع، لم يألوا جهداً عن تزويدي بالأدلة اللازمة التي تثبت براءتهما، فأطلق سراحهما، وعبرا لي عن خالص امتنانهما وعرفانهما بالجميل. لماذا لم أطلب بإطلاق سراحهما على الفور؟ لأنني لم أتيقن آنذاك أنهما غير متورطين في جرائم أخرى، باستثناء جريمة الصيد غير المشروع... تزايدت قناعتني ببراءتهما بمرور الأيام، وعقب وقوع حادث القاعة المكتنفة بالغموض، بما أنني كنت في حاجة ماسة لأناس أوفياء يمدون إليّ يد العون، قررت الاعتماد عليهما، ومنحهما فرصة ثمينة لا تعوض، ملتمساً إطلاق سراحهما، هذا كل شيء!

تلك هي العبارات التي تفوه بها روليتابي، ولم يسعني سوى إبداء دهشتي، مرة أخرى، إزاء بساطة التفكير وعبقريّة التسلسل المنطقي اللتين قادتاه إلى بلوغ الحقيقة بشأن قضية تواطؤ حارس العقار وزوجته، من الواضح أن القضية لم تكن بالغة التعقيد، ولكنني أدركت في قرارة نفسي أن صديقي الطموح سينجح يوماً، بناءً على هذا التسلسل المنطقي البسيط، في إزاحة الستار عن تفاصيل الليلتين المريرتين اللتين سادتهما أجواء الذعر والرعب في "الغرفة الصفراء"، و"القاعة المكتنفة بالغموض". ها نحن نفق الآن أمام فندق البرج.. ولجنا إلى الداخل، ولكن هذه المرة لم نر الأب ماتييو، واستقبلتنا زوجته ببشاشة وابتسامة مرحبة، لقد أعطيت آنفاً وصفاً دقيقاً للغرفة التي نجلس بين جدرانها، كما أعطيت لمحة عن الحساء الشقراء ذات العينين الساحرتين الواسعتين التي وضعت نفسها، على الفور، تحت إمرتنا متأهبة لإعداد وجبة الغداء. سألها روليتابي: "كيف حال الأب ماتييو؟".

- لم يتحسن كثيراً يا سيدي، لا يزال راقداً في الفراش.

- لا يزال مصاباً بالتهاب المفاصل، أليس كذلك؟

- اضطرت، ليلة البارحة، إلى إعطائه جرعة أخرى من المورفين. لا يوجد سوى هذا الدواء الذي يسكن آلامه. تحدثت المرأة بنبرة رقيقة للغاية، وعبرت ملامحها عن عدوثة وحلاوة ونقاء لا مثيل لهم. لقد كانت حقاً امرأة بارعة الجمال هادئة الطباع، ذات عينيْن سوداوين لامعتين تفيضان عشقاً. ولا شك أن الأب ماتيو - لو لم يكن يعاني من التهاب المفاصل - قضى برفقتها أسعد سنين حياته. ولكن، هل عاشت هذه المرأة حياة سعيدة بصحبة شخص فظ الملامح والطباع مصاب بداء المفاصل؟ من الواضح أن المشهد الذي رأيته سابقاً يثبت لنا خلاف ذلك، وبالرغم من حلاوة روحها وملاحتها الأخاذة انتابني شعور بأنها لم ترزح يوماً تحت وطأة الإحباط واليأس.. توجهت على الفور إلى مطبخها لكي تعد لنا وجبة الغداء، بعد أن تركت على طاولتنا زجاجة من عصير التفاح المخمر. صب روليتابي لنا الشراب، حشا غليونه وأشعله، ثم راح يشرح لي بهدوء السبب الكامن وراء استدعائي للحضور إلى القصر وبرفقتي مسدسان. أخذ روليتابي يتأمل حلقات الدخان المتصاعدة من غليونه قائلاً: "نعم يا صديقي العزيز، أتوقع مجيء المجرم هذه الليلة".

ساد صمت قصير حرصت ألا أكسر جداره، فأردف صديقي قائلاً:

- بالأمس، عندما تأهبت للخلود إلى فراشي، طرق السيد روبرت دارزاك باب غرفتي، ثم أخبرني أنه من المقرر أن يتوجه إلى باريس في صباح اليوم التالي، ومن الضروري ألا يتوانى عن القيام برحلته. أدركت أن الدافع وراء هذه الرحلة يبدو حتمياً ومشوباً بالغموض، حتمياً لأنه بات من المستحيل عدول دارزاك عن فكرة القيام برحلته، ومشوباً بالغموض لأنه من المستحيل أيضاً الكشف عن الغرض وراء هذه الرحلة، استطرد دارزاك: "سأرحل، ولكنني سأضحى بنصف عمري كي لا أترك الأنسة ستانجرسون في هذه اللحظات العصيبة". أخبرني أنه يعتقد بأن الخطر لا يزال يهدق بحياة الأنسة، واعترف قائلاً: "سيقع أمر ما في الليلة التالية لن يثير دهشتي كثيراً، ومع ذلك، ينبغي عليّ البقاء بعيداً، لن أتمكن من العودة إلى القصر إلا بعد صباح الغد".

طلبت منه التكرم بإعطائي بعض التفسيرات والإيضاحات، وأخبرته بما خلصت إليه من استنتاجات. في الواقع، تنبع فكرة الخطر المهدق من التزام العجيب والغريب بين غياب السيد دارزاك عن القصر والاعتداءات الوحشية التي تستهدف الأنسة ستانجرسون، فقد اضطرت إلى مغادرة القصر ليلة الأحداث المثيرة التي وقعت في قاعة يكتنفها الغموض، ولم يكن بمقدوره المكوث في القصر أيضاً ليلة وقوع جريمة الغرفة الصفراء، ونحن على علم بذلك. على الأقل، نحن على علم بذلك، استناداً لما أدلى به من تصريحات. يتضح جلياً أن السيد دارزاك أضحي مسلوب الإرادة، وينصاع صاغراً ذليلاً لسطوة شخص يتلاعب به، ولذلك سيغيب عن القصر هذه الليلة أيضاً. جميع هذه الأفكار جالت في خاطري وقصدت إخباره بها. أجبني قائلاً: "ربما!". سألته عما إذا كانت سطوة هذا الشخص أقوى من إرادة الأنسة ستانجرسون، فأقسم لي نافياً هذا الأمر، وأخبرني أن قرار الرحيل شخصي دون ضغط أو إلحاح من الأنسة ستانجرسون. باختصار، أوضح لي أنه يتوقع احتمالية وقوع اعتداء آخر نظراً لتكرار التزام المثير للغرابة الذي ألقى الضوء عليه آنفاً، والذي أشار إليه قاضي التحقيق.

أردف قائلاً: "إذا أصيبت الأنسة ستانجرسون بأي مكروه، فسُكُت نهاية حياتنا، لأنها ستزقد مرة أخرى بين الحياة والموت، أما أنا سيمتلكني حتماً شعور بالقهر لأنني لن أكن قادراً على درء الهجوم الذي من المتوقع أن تتعرض له، وسأكون أيضاً مجبراً على التزام الصمت بشأن المكان الذي قضيت فيه ليلتي، أدرك تماماً ما يحوم حولي من شكوك، وأعلم أن قاضي التحقيق وفري دريك لارسان (المحقق غريب الأطوار الذي اقتفى أثري في آخر مرة توجهت فيها إلى باريس) موقنان بأنني المجرم الحقيقي، صحت فجأة: "لماذا لا تذكر لنا اسم القاتل طالما أنك تعرفه؟!". اعتلت وجهه ملامح الانزعاج والقلق فور إبداء دهشتي، ثم أجبني بنبرة مترددة: "أنا! هل أنا أعرف اسم القاتل؟ وما أدراني باسمه؟"، أجبت على الفور: "الأنسة ستانجرسون!".

عندئذ، اكتسى وجهه بشحوب الموتى حتى أنني ظننت أنه سيصاب بالإغماء، فأدركت أنني أصبت كبدا الحقيقة: الأنسة ستانجرسون وخطيبها يعرفان اسم القاتل!، وعندما استفاق السيد دارزاك من صدمته مستعيداً رباطة جأشه، التفت إليّ قائلاً: "سأتركك الآن يا سيدي. منذ أن وطئت قدميك عتبة هذا القصر، توسمت فيك ذكاء استثنائياً وعبقريّة متفردة من نوعها، وها أنا ألتمس منك أن تسدي إليّ معروفاً. ربما أبالغ في تحوفي بشأن وقوع اعتداء على الأنسة غداً، وربما جانبني

الصواب، ولكن بما أنه من المحتمل وقوع أي شيء غير مألوف، فأني أعول عليك كثيراً لدرء أي هجوم محتمل، وإفساد مخططات عدونا اللدود المتواري عن الأنظار، واتخاذ جميع التدابير اللازمة لحماية الأنسة ستانجرسون وعزلها في غرفتها، لا تدع أحداً يقتحم غرفتها مهما كلفك الأمر، ولا تغفل عن حراستها. لا تدع النوم يداعب جفنيك، ولا تخلد إلى الراحة ثانية واحدة، المجرم الذي نخشاه يتفنن في اختراع صنوف الحيل والألاعيب، وربما يتمتع بقوة خارقة لا تُضاهى، ستنتقدها حيلتي هذه من براثن العدو الذي لن يجرؤ على الاقتراب منها لو علم أنك متأهب لدرء أي هجوم يشن ضدها، سألتها قائلاً: "هل السيد ستانجرسون على علم بكل هذه الأمور؟"

- لا، لم أتحدث معه.

- لماذا؟

- لأنني لا أرغب في أن يردد السيد ستانجرسون نفس الكلمات التي ألقيتها أنت للتو على مسامعي: "أنت تعرف حتماً اسم القاتل!"، وبما أنك أبدت دهشة عارمة حينما أخبرتك للتو بأن المجرم ربما يأتي غداً، فكم سيكون مقدار الدهشة التي ستتتاب السيد ستانجرسون لو سمع نفس هذه العبارات! لا شك أنه لن يصدق بأن تكهناتي المشؤومة تنبع من فكرة التزامن المشوبة بالغرابة والتي من المحتمل أنها ستثير دهشته نظراً لعدم توافقها مع المنطق، أبوح لك الآن بكل شيء يخالجي ويعتلج في صدري يا سيد روليتاي لأنني أثق فيك ثقة عمياء، وأعلم جلياً أن الشكوك لا تساورك بشأني. تابع روليتاي حديثه قائلاً:

- ظل الرجل المسكين يمنحني بقدر المستطاع إجابات غير متوافقة وغير متناسقة، وقد أدركت جلياً أنه يعاني أشد معاناة وقلبه يعتصر ألماً وحزناً. أحسست بالشفقة عليه ورثيت لحاله، ولا سيما حينما تيقنت من رغبته في مفارقة الحياة بدلاً من البوح باسم القاتل حاذياً حذو الأنسة ستانجرسون التي تؤثر أن تلقى حتفها بدلاً من توجيه أصابع الاتهام إلى الرجل الغامض مجهول الهوية الذي شق طريقه بمكر نحو الغرفة الصفراء والقاعة المكتنفة بالغموض، أخبرته أن المجرم ربما يخطط لاختطاف السيدة ستانجرسون، أو ربما يسعى لاختطافهما معاً واحتجازهما بطريقة مشينة، وأن أكثر ما أخشاه هو أن يتنامى إلى علم السيد ستانجرسون يوماً ما خبر مفاده أن ابنته الوحيدة وقعت فريسة بين يدي مجرم حقير لا يعرف قلبه الرحمة ولا الشفقة. أخبرته أيضاً أنه لم يأل جهداً في إزاحة الستار عن الكثير من الأمور المبهمة، وأنه ينبغي عليه التزام الصمت التام طالما أنه ليس بمقدوره البوح بأية تفاصيل أخرى، قطعت له وعداً ببذل قصارى جهودي لدرء أي هجوم محتمل، والبقاء مستيقظاً طوال الليل عازماً ألا أخلد إلى الفراش، ألح على ضرورة إقامة حواجز منيعة يتعذر اختراقها حول غرفة الأنسة ستانجرسون، وحول غرفة معيشتها المخصصة لمبيت خادمتيها، وحول الغرفة التي اعتاد السيد ستانجرسون أن ينام فيها عقب وقوع أحداث القاعة المكتنفة بالغموض. باختصار، حول الشقة بأكملها.

لم أدرك وقتئذ أن إصرار السيد دارزاك على بذل كل ما في وسعي للحيلولة دون تسلل أي شخص إلى غرفة السيدة ستانجرسون ينبع من رغبته في خلق ومراكمة كم هائل من العقبات والعوائق أمام المجرم الذي - دون أدنى شك - ستخور قواه، وستشيط عزيمته مقررراً أن يعود أدراجه، مجرراً أذيال الخيبة، دون ترك أي أثر وراءه، وهذا ما استشفيت به بوضوح من عبارته الأخيرة التي تفوه بها مُلقياً عليّ تحية الوداع: "عندما سأرحل، بمقدورك تجاذب أطراف الحديث مع السيد ستانجرسون، والأب جاك، وفريدريك لارسن، وجميع من يقطنون القصر، بشأن الشكوك والمخاوف التي تساورك إزاء ليلة الغد، وبالتالي، سيكون بمقدورك - حتى أن أعود أدراجي - إعداد العدة وإقناعهم بفكرة إخضاع غرفة السيدة ستانجرسون لحراسة مكثفة، تلك الفكرة التي طرأت على ذهنك أنت وليس على ذهني".

انصرف الرجل المسكين المثير للشفقة غير مدرك لما ينبغي عليه أن يقول إزاء صمتي المطبق وعينيّ اللتين تبوحان بتخميني لتفاصيل ثلاثة أرباع سره الخطير. نعم، نعم، من الواضح أنه كان يزرع تحت وطأة التيه والعجز واليأس، ولذلك جاء ليُبوح بما يخالج صدره عازماً التخلي عن الأنسة ستانجرسون فور أن لاحت في رأسه فكرة التزامن العجيب الغريب والمثير للفضول. عندما رحل، استغرقت في تفكير عميق، وكان من الضروري تدبير حيلة أكثر مكرراً ودهاءاً من خدعته، حتى لا يشك المجرم العازم على شق طريقه نحو غرفة الأنسة ستانجرسون، ولو لوهلة واحدة أننا نترقب مجيئه للإيقاع به في الفخ. لا شك أنني

سأضع أمامه حاجزاً من العقبات المتعذر اختراقها، حتى لو كلفني الأمر حياتي، ولكنني سأسمح له بالتقدم بضع خطوات عازماً أن أتفحص بإمعان ملامح وجهه المثير للفضول!

استطرد روليتابي واضعاً غليونه على الطاولة، ومحتسباً كأسه: "نعم يا صديقي، ينبغي تفحص ملامح وجهه المشوبة بالغموض بإمعان، فقط ليتمكن من يقين راسخ بأنه لم يجانبني الصواب حينما تشكلت ملامح الدائرة التي رسمتها في عقلي". في تلك الأثناء، أحضرت لنا زوجة صاحب الفندق عجة لحم الخنزير المقدد، فراح روليتابي يداعبها بنظراته، وأخذت ترمقه بنظرات ساحرة ملؤها الرقة والرشاقة. التفت إليّ روليتابي قائلاً: "الأمر المثير للغرابة هو أن هذه الحسناء يشع وجهها بهجة وسعادة كلما أصبح الأب ماتييو طريح الفراش جراء الإصابة بداء التهاب المفاصل".

لم أعر أدنى انتباه لألاعيب روليتابي العبثية أو لابتسامات الحسناء، بل انصب جل تفكيري على آخر كلمات تفوه بها صديقي الشاب، وردة الفعل المشوبة بالغموض والغرابة التي لجأ إليها السيد روبرت دارزاك. وفور انتهاء روليتابي من تناول وجبته، والتيقن من انصراف زوجة صاحب الفندق، استأنف فتح خزان أسرار مستطرداً:

- استوقفتني مراراً وتكراراً هذه العبارة التي تفوه بها السيد روبرت دارزاك: "ربما سيجئ المجرم ليلة الغد"؛ ولذلك أرسلت إليك برقية هذا الصباح، في وقت مبكر من اليوم، والآن يمكنني الجزم بأن المجرم سيأتي، دون أدنى شك، وها أنا أتحرق شوقاً لخوض معركة شرسة ضده.

- وما الذي يمنحك هذا اليقين؟ ربما سيجئ المجرم إلى هنا بمحض الصدفة، وربما...  
قاطعني روليتابي بابتسامة ساخرة قائلاً:

- توقف عن هذا الهراء، أثق تمام الثقة أن المجرم سيأتي في تمام العاشرة والنصف، وتيقنت من هذه المعلومة قبل وصولك يا عزيزي، وبالتالي قبل أن ندير رأسينا ونبصر آرثر رانس يتطلع عبر إحدى النوافذ المطلة على الفناء الرئيسي.

- آه! حقاً! ولماذا يتملكك اليقين من قدومه في تمام الساعة العاشرة والنصف؟

- لأنه تبين بالدليل القاطع أن الأنسة ستانجرسون سمحت للمجرم بالتسلل إلى داخل غرفتها في تمام العاشرة والنصف، وفي نفس الليلة، جاءني السيد دارزاك ملتمساً مني اتخاذ ما يلزم من احتياطات للحيلولة دون وصوله إلى غرفة خطيبته. صحت قائلاً: "أوه! أوه! هل هذا ممكن حقاً!".

ثم أردفت بصوت خفيض: "ولكن، ألم تخبرني أن الأنسة ستانجرسون معجبة بالسيد دارزاك؟".  
- نعم، لم أقل سوى الحقيقة.

- إذن، ألا ترى الأمر مشوباً بالغرابة والغموض؟

- بالطبع، أصغر تفاصيل هذه القضية تتسم بالغرابة يا صديقي، ولكن، دعني أؤكد لك أن الأمور المشوبة بالغرابة التي تعرفها تعد شيئاً لا يذكر إذا ما قورنت بأمور أكثر غرابة تتحرق شوقاً لوقوعها!

- ألا ينبغي الاعتراف بأن الأنسة ستانجرسون والرجل الذي أراد أن يريها قتيلة يتبادلان الرسائل؟

- أعترف بذلك يا صديقي، هذا أمر لا يقبل الجدل، أنت تبلي بلاءً حسناً! لقد أخبرتك بأمر الخطاب الذي أبصرته عيناى موضوعاً على مكتب الأنسة ستانجرسون الخشبي، الخطاب الذي تركه المجرم ليلة وقوع أحداث القاعة المكتنفة بالغموض، الخطاب الذي فقد أثره، والقابح حتماً في أحد جيوب الأنسة ستانجرسون. من بمقدوره أن يزعم بأن المجرم - عبر أسطر هذه الرسالة المفقودة - لم يُخطر الأنسة ستانجرسون بضرورة تحديد موعد قادم سيؤتي ثماره المنشودة؟ وأخيراً، ألم يُخطر المجرم الأنسة ستانجرسون - فور التحقق من رحيل السيد دارزاك - أن الموعد المحدد ينبغي أن يكون خلال ليلة الغد؟

ضحك صديقي هازئاً، ثم لاذ بالصمت، فتساءلت في قرارة نفسي، قائلاً: "هل يضحك هازئاً وساخراً مني؟".

فُتح باب الفندق، فانتصب روليتابي واقفاً حتى أنه تملكني شعور بأنه تعرض لصدمة كهربائية في مقعده، وصاح قائلاً:  
- السيد آرثر رانس!

لاح السيد آرثر رانس أمام أعيننا، ثم ألقى علينا التحية ببرود شديد.

## الفصل العشرون

### تصرف الأنسة ستانجرسون المثير للفضول

سأل روليتابي الرجل الأنيق قائلاً:

- هل تذكرني يا سيدي؟

- بالطبع، أنت الفتى الصغير الذي التقيت به في حفل استقبال القصر الجمهوري، (احمرت وجنتي روليتابي غضباً وخجلاً حينما نعته الرجل بصفة الصغير)، وها أنا قد تركت غرفتي، وغادرت القصر، وجئت لأصافحك، أنت فتى واعد تفيض ملامحك بالبهجة والإشراق.

مد الرجل الأمريكي ذراعه للأمام، فانيسطت أسارير وجه روليتابي مصافحاً إياه بحرارة ومطلقاً إحدى ضحكاته الخافتة، قدمني إلى السيد آرثر رانس، ثم دعاه لتناول طعام الغداء برفقتنا.

- أشكرك يا سيد روليتابي، سأتناول طعام الغداء مع السيد ستانجرسون.  
من الواضح أن السيد رانس يتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة.

- ظننت يا سيدي أنه لن يحالفني الحظ لنيل شرف رؤيتك مرة أخرى، ألم يكن من المقرر أن تغادر فرنسا في اليوم التالي لحفل الاستقبال الذي أقيم في القصر الجمهوري؟

أبدينا - أنا وصديقي الشاب - عدم الاكتراث إزاء ذكر كلمتي "حفل الاستقبال"، في حين أننا تأهبنا للإصغاء بانتباه بالغ لكل كلمة سيتفوه بها العالم الأمريكي. تشير ملامح وجهه الوردية المائلة للون الأرجواني، وجفناه المتناقلان، وبعض التشنجات العصبية اللاإرادية التي تصدر عنه من حين لآخر، أنه مدمن للكحول. هل يُعقل أن يكون هذا الشخص الطفيلي رفيقاً للسيد ستانجرسون؟ هل من المنطقي أن تجمععه علاقة صداقة وطيدة بالأستاذ الجليل ذائع الصيت؟

أخبرني فريدريك لارسان الذي اعترته دهشة عارمة، مثلنا تماماً، إثر رؤية الرجل الأمريكي في القصر، بناء على تحريات مكثفة أجراها، أن السيد رانس أدمن شرب الكحول منذ خمسة عشر عاماً فقط، أي عقب مغادرة السيد ستانجرسون وابنته لفيلا دلفيا، طوال الوقت الذي قضاه السيد ستانجرسون في أمريكا، ربطته علاقته وثيقة بآرثر رانس الذي تردد على منزله كثيراً. في تلك الأثناء، صنف السيد آرثر رانس على أنه أحد أشهر علماء فراسة الدماغ في الولايات المتحدة الأمريكية، ونجح، عبر تجاربه الجديدة والمبتكرة، إحداث طفرة هائلة في هذا المجال. وأخيراً، من الجدير بالذكر أن العلاقة الوثيقة التي تجمع بين الرجلين، تعود إلى أن العالم الأمريكي الشهير أسدى، ذات يوم، خدمة جليلة إلى الأنسة ستانجرسون، فقد جازف بحياته، ونجح في السيطرة على الخيول الجامحة التي كانت تجر آنذاك عربتها. ومن المحتمل أيضاً أنه عقب وقوع هذا الحادث، توطدت أواصر الصداقة، لفترة من الوقت، بين رانس وابنة البروفيسور، ولكن من المؤكد أنهما لم يخوضا غمار أية علاقة رومانسية.

كيف نجح فريدريك لارسان في الحصول على هذه المعلومات الثمينة؟ لم يخبرني، لكنه بدا واثقاً إلى حد كبير من تحرياته. لو كنا على علم بهذه التفاصيل الثمينة قبل أن نلتقي بالسيد آرثر رانس في فندق البرج، لكان من المحتمل ألا نغير اهتماماً كبيراً لأمر وجوده في القصر. تنامي إلى علمنا أنه يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، وأجاب بشكل منطقي وبديهي للغاية على سؤال روليتابي: "عندما علمت بالاعتداء الذي وقع على الأنسة ستانجرسون، أرجأت عودتي إلى أمريكا، ورغبت في الاطمئنان، قبل مغادرتي، على صحة الأنسة ستانجرسون والتأكد من تماثلها للشفاء بالرغم من إصابتها بطعنة قاتلة، ولذلك، لن أغادر إلا حينما تستعيد كامل صحتها".

عندئذ، أخذ السيد آرثر زمام المبادرة في الحديث متجنباً بكل الطرق الإجابة على عدد من الأسئلة التي طرحها عليه صديقي الشاب، وتشاطر معنا آراءه وأفكاره دون أن نطلب منه ذلك حول الجريمة المروعة التي وقعت، ومن الواضح للغاية أن أفكاره ووجهة نظره تتوافق شكلاً وموضوعاً مع ما راود ذهن فريدريك لارسان من أفكار، أي أن العالم الأمريكي تساوره الشكوك أيضاً حول تورط السيد روبرت دارزاك في القضية المشوبة بالغموض، لم يذكر اسم روبرت دارزاك بالطبع، ولكن لم يتطلب الأمر قدراً كبيراً من النباهة لسبر أغوار ما يتوارى خلف حججه وتبريراته، أشار إلى أنه على علم بالجهود الجبارة

التي بذلها الشاب روليتابي ساعياً لفك طلاسم لغز الغرفة الصفراء، وأخبرنا أن السيد ستانجرسون أطلعته على الأحداث الأخيرة التي وقعت بين جدران القاعة المكتنفة بالغموض. وبناء على ما سمعناه من آرثر رانس، يمكن الجزم بأنه سعى جاهداً لإلصاق التهمة بروبرت دارزاك، وأعرب عن أسفه، مراراً وتكراراً، لغياب السيد دارزاك عن القصر أثناء وقوع أحداث هذه المأساة المعقدة الملتفة بهالة من الغموض، وللتو أدركنا فحوى ما تفوه به من عبارات.

في نهاية المطاف، أعرب رانس عن وجهة نظر مفادها أن السيد دارزاك يعتبر شخصاً ملهماً يتمتع برؤية ثابتة ومهارة لا تُضاهى، وقد أبلى بلاءً حسناً حينما سمح للسيد جوزيف روليتابي بالبقاء في القصر لأنه سينجح - إن عاجلاً أم آجلاً - في كشف النقاب عن هوية المجرم الخطير. في الواقع، اكتسبت عبارته الأخيرة بنبوة ملؤها السخرية، ثم نهض عن مقعده، وألقى علينا التحية مغادراً الفندق. تطلع إليه روليتابي، عبر النافذة، وهو ينطلق بعيداً، ثم قال متنهداً:

- يا له من رجل غريب الأطوار.

سألته بلهفة قائلاً: "هل تظن أنه سيقضي هذه الليلة بين جدران القصر؟".

تملكتني دهشة عارمة حين وقعت على مسامعي هذه الإجابة: "الأمر لا يعني على الإطلاق".

أخذني روليتابي في نزهة قصيرة في أرجاء الغابة المفعمة بالخضرة الزاهية، ثم توجهنا إلى مغارة القديسة جينيفيف، وطوال هذا الوقت، سعى صديقي جاهداً تجاذب أطراف الحديث معي بشأن أمور أخرى مغايرة لتلك التي تستحوذ على جل تفكيره. شرعت الشمس تلملم أذيالها نحو المغرب، وانتابني دهشة عارمة لرؤية صديقي الشاب غير مبالي بالتخاذ ما يلزم من تدابير قبل حلول المساء، استوففني هذا الأمر، فأشرت إليه ألا يتوانَ عن إعداد العدة قبل أن تغرق الدروب المحيطة بالقصر في ظلام دامس. عندئذ، أخبرني أنه اتخذ جميع التدابير الاحترازية، ولن يدع المجرم يفر من يده مرة أخرى، وعندما أعربت عما يساورني من شكوك بشأن إلقاء القبض على المجرم مُبدياً مخاوفي من تواريه عن الأنظار في لمح البصر مرة أخرى، أجابني قائلاً: "هذا ما آمله، وتحدوني الرغبة في تكرار الأمر هذه الليلة".

لم أرد الإلحاح عليه، فبناء على تجاربي السابقة، أدركت جلياً أن إصراري لن يجدي نفعاً ولن يؤخذ بعين الاعتبار، أراد روليتابي أن ييث الطمأنينة في قلبي، فأخبرني أن القصر يخضع لرقابة وحراسة مكثفة من قبل حارس القصر وزوجته منذ بزوغ أول أضواء الفجر، وليس بمقدور أحد التسلل إلى الداخل دون أن يكون على علم بذلك، كما أشار إلى أنه في حالة عدم ظهور أي زائر غريب، ستتحول جميع الأنظار مباشرة نحو من يقطنون بين جدران القصر.

أشارت عقارب الساعة التي أخرجها روليتابي من جيبه إلى السادسة والنصف مساءً، فنهض عن مقعده، ثم أشار إليّ أن أسير وراءه، وبدون اتخاذ ما يلزم من احتياطات، أو السعي للسير بخطى مكتومة الوقع، أو محاولة إلزامي الصمت، قادي إلى القاعة، ومن ثمّ، توجهنا إلى القاعة اليمنى، وأكملنا سيرنا وصولاً إلى بسطة الدرج التي اجتزناها بخطى مسرعة. توقفنا لبرهة نلتقط أنفاسنا، ثم استأنفنا سيرنا في نفس القاعة "الجناح الأيسر"، مروراً بشقة السيد ستانجرسون، كان السيد آرثر رانس يقطن في غرفة تقع في نهاية هذه القاعة قبل برج القصر بمسافة قصيرة، وقد تملكنا اليقين من هذه المعلومة لأننا أبصرناه، في وقت سابق، يتطلع عبر نافذة هذه الغرفة المطلّة على الفناء الرئيسي. يُطل باب هذه الغرفة على القاعة، ويقع في مواجهة النافذة الشرقية التي تقع في نهاية القاعة اليمنى الأخرى، بالجناح الأيمن، والتي تتركز أمامها الأب جاك، في وقت سابق، بناء على الأوامر الصادرة من قبل روليتابي، عندما يدير المرء ظهره لباب الغرفة، أي بمجرد أن يغادر الغرفة يصير بمقدوره رؤية القاعة بأكملها وفقاً لهذا التتابع: الجناح الأيسر، بسطة الدرج، الجناح الأيمن. من البديهي أن تظل القاعة الدائرية متوارية عن الأنظار.

قال روليتابي: "أنت مكلف بمراقبة هذه القاعة الدائرية، عندما أستدعيك، ستأتي على الفور وتكمن هنا".

أدخلني حجرة صغيرة مثلثة الشكل غارقة في الظلام تطل على القاعة وتقع بزواية مائلة على يسار باب غرفة آرثر رانس... كان بمقدوري، من هذه الزاوية، رؤية جميع ما يقع بين جدران القاعة، وكأنني أقف أمام باب غرفة آرثر رانس، كما يُمكنني أيضاً مراقبة باب غرفة العالم الأمريكي، من الواضح أن باب غرفتي، التي سأخذها حتماً كمرصد للمراقبة مزود بلوح زجاجي غير مصقول، فقد كانت الغرفة غارقة في ظلام حالك، في حين أن القاعة ظلت مغمورة بأضواء المصاييح المتوهجة، أدركت

للتو أن هذه الغرفة تُعد بمثابة موقع مثالي للتجسس. أليس من المفترض أن المهمة المزمع إنجازها تُعد جريمة تجسس كاملة الأركان؟ ومن المؤكد أنني أشتنر بكل جوارحي من الإقدام على ارتكاب مثل هذه الفعلية الحمقاء، فضلاً عن أن غريزتي الطبيعية تحضني على عدم الانخراط في هذه اللعبة القذرة، أليس من البديهي أن تتعارض كرامة مهنتي مع مثل هذا السلوك الشائن؟ في الواقع، كيف سيكون موقفني لو رأيته رئيس نقابة المحامين! لم يجلب بخاطر روليتاني، ولو للحظة واحدة، أنه باستطاعتي عدم الانصياع لأمره، مصمماً ألا أسدي له هذه الخدمة.

ولكنني عزمت العدول عن فكري، ورغبت في أن أسدي له هذا المعروف، أولاً، لأنني خشيت ألا أبدو، في نظره، شخصاً يتسم بالجن والندالة، وثانياً، لأنه تملكني يقين راسخ، في قرارة نفسي، أنه لدي الحق دائماً في تقصي الحقيقة في أي زمان ومكان بصفتي هاوٍ، وأخيراً، لأنه فات الأوان على الانسحاب من أرض المعركة. ألم تحاصرني هذه الوسوس من قبل؟ لماذا لم تعد تتسلط على عقلي الآن؟ باختصار، لأن نيران فضولي المتقدة التهمت جميع الأفكار التي لاحت في الأفق، ثم أنني سأسدي معروفاً سيساهم في إنقاذ حياة فتاة مهيضة الجناح، ولا يوجد أية لوائح مهنية بمقدورها أن تعوق عطائي ونبلي السخيين والغير محدودين.

عدنا أدراجنا مجتازين القاعة، وفور مرورنا أمام شقة الأنسة ستانجرسون، فُتح باب غرفة المعيشة، ولاح رئيس الخدم المكلف بإحضار وجبة العشاء (اعتاد السيد ستانجرسون تناول الطعام برفقة ابنته في غرفة المعيشة الواقعة بالطابق الأول منذ ثلاثة أيام)، ولأن الباب الغرفة ظل موارباً لبرهة، أبصرنا بوضوح الأنسة ستانجرسون - والتي اغتنمت فرصة غياب رئيس الخدام وانشغال والدها بالتقاط شيء سقط للتو على الأرض، وتصب على عجل جزءاً من محتوى قارورة صغيرة داخل كأس السيد ستانجرسون.

## الفصل الحادي والعشرون

### ترقب الفرصة

من الواضح أن تصرف الآنسة ستانجرسون المثير للفضول، والذي كدر صفوي وأثار حفيظتي لم يحرك ساكناً على الإطلاق لدى صديقي الشاب.. عدنا أدراجنا إلى غرفته، ولم يتطرق إلى الحديث عن المشهد الصادم الذي وقع للتو وأثار ذهولنا، بل اكتفى بإعطائي التعليمات الأخيرة بشأن ما يتوجب عليّ القيام به هذه الليلة. سنذهب أولاً لتناول العشاء، ثم سأكمن في مخبئي السري الغارق في الظلام مترقباً انطلاق الصفر.

استطرد صديقي قائلاً: "سيتعين عليك إخطاري بوقوع أي شيء غير مألوف تراه قبلي، من البديهي أنك ستري المجرم قبل أن أراه، حينما يجتاز القاعة اليمنى، أي لو قرر أن يسلك أية طريق أخرى غير القاعة الدائرية، نظراً لأنك ترى القاعة اليمنى بأكملها، وليس بمقدوري سوى رؤية القاعة الدائرية، ولكي تنذريني بوقوع أمر غير مألوف، ما عليك سوى أن تفك رباط ستار نافذة القاعة اليمنى الواقعة على مسافة قريبة من الغرفة الغارقة في الظلام، سينبسط الستار من تلقاء نفسه حاجباً النافذة، وللتو سيتشكل مربع مظلم يتخلله مربع آخر من الضوء، طالما أن أضواء القاعة ستظل مشتتة، وللقيام بهذه الخطوة، عليك فقط أن تمد يدك خارج الغرفة الصغيرة الغارقة في الظلام، أما أنا فسأظل قابلاً في أحد أركان القاعة الدائرية التي تتقاطع بزاوية عمودية مع القاعة اليمنى، وسألمح عبر نوافذها، جميع المربعات الضوئية التي تنجم عن نوافذ القاعة اليمنى، عندما يصبح المربع المضئ المنشود مظلماً، سأدرك للتو فحوى رسالتك.

- وماذا بعد؟

- ستراي وقتنذ بوضوح قابلاً في أحد أركان القاعة الدائرية.

- وماذا سأفعل؟

- ستسير باتجاهي على الفور، خلف المجرم الذي سأفحصه بعيني.

- ولكن، ماذا لو نجح في الهروب؟

قال روليتابي بنبرة ملؤها البرودة:

- حسناً سيفعل! لا أرغب في إلقاء القبض عليه، سيلوذ بالفرار هابطاً الدرج، بأقصى سرعة ممكنة، ثم سيجتاز ردهة الطابق السفلي قبل أن تبلغ أنت بسطة الدرج، بما أنك ستظل قابلاً في نهاية القاعة، سأدعه يفر هارباً فور رؤية ملامح وجهه المشوب بالغموض، لست أبغي سوى رؤية ملامح الوجه، وعندئذ سأتدبر أمره، حتى وإن ظل على قيد الحياة، لو نجحت في الإمساك به حياً، فرما سألحق الأذى بالآنسة ستانجرسون وبالسيد دارزاك اللذين لن يغفرا لي حماقتي! وكم أكن لهما كل تقدير واحترام، فهما من أناس طيبين.

حينما رأيت الآنسة ستانجرسون تضع مادة منومة في كأس أبيها لكي يغط في سبات عميق، عازمة أن تتجاذب أطراف الحديث مع الشخص الذي كاد أن يريدها قتيلاً، أدركت أنني سأزيد الأمور تعقيداً لو أن حُطتي كللت بالنجاح مُحضراً لوالدها رجل الغرفة الصفراء، والقاعة المكتنفة بالغموض، موثق اليدين ومكتم الفم. كم كان من دواعي سروري تلاشي المجرم وذوبانه كفض ملح ليلة وقوع حادث القاعة المكتنفة بالغموض! أيقنت حتماً أنني أسير على الدرب الصحيح حينما تهللت فجأة أسارير وجه الآنسة ستانجرسون، فور أن تنامي إلى علمها خبر هروب المجرم، وأدركت آنذاك ضرورة إلزام المجرم بالصمت، مهما كلفني الأمر، لكي أبلغ غايتي، وأنجح في إنقاذ هذه الفتاة التعيسة من برائته المسمومة.

ولكن، هل سأردبه قتيلاً كي أحقق بغيتي؟ هل ستتلوث يداي بدماء إنسان! كم تبدو هذه المهمة عسيرة! فضلاً عن أن هذا ليس من شأني! من ناحية أخرى، إلزام المجرم بالصمت دون أن تُقدم الآنسة على منحي ثقته، أو البوح لي بأسرارها، سيغدو مهمة صعبة تنطوي، في المقام الأول، على تخمين كل شيء استناداً على لا شيء! ولكن لحسن الحظ يا صديقي، سأطلق شرارة تخميناتي، أو بالأحرى، سأطلق العنان لأفكاري، ولا أسعى هذه الليلة لشيء سوى أن يطل عليّ المجرم بوجهه القبيح الغارق في الغموض، وأن يدخل في إطار.

- الدائرة التي رسمها عقلك.

- بالتأكيد يا صديقي. في الواقع، لن تصيبي الدهشة على الإطلاق حينما أرى ملامح وجهه.
- ولكنني ظننت أنك رأيته بوضوح في تلك الليلة التي قفزت فيها داخل الغرفة.
- لسوء الحظ، ظلت الشمعة على أرضية الغرفة، كما أن لحية المجرم الكثيفة حجبت ملامح وجهه.
- وهل ستتمكن من رؤية ملامحه بوضوح هذه الليلة؟
- بالطبع، فالقاعة مزودة بأضواء باهرة، ثم أنني أعرفه، أو على الأقل شكلي عقلي ملامحه، ولم يتبق سوى أن تبصره عيناى.
- ولكن، بما أن خطتك تنطوي فقط على رؤيته والسماح له بالفرار هارباً، فلماذا نحن مسلحان؟
- لأنه لو علم بأنني أترصده محاولاً الإيقاع به، سيشتن هجوماً ضارياً علينا، ولذلك، من الضروري أن نتأهب للدفاع عن أنفسنا.
- وهل أنت واثق من أنه سيأتي هذه الليلة؟
- مثلما أنا واثق من رأيي لك! دبرت الآنسة ستانجرسون، في تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح هذا اليوم، حيلة مكرة لتصير بمفردها هذه الليلة، فقد تذرعت ببعض الحجج الواهية، وسعت لمنح خادمتيها إجازة لمدة أربع وعشرين ساعة، كما أنها لجأت لوضع مادة منومة في كأس والدها الذي أبدى رغبة جارفة في السهر بجوار فراشها طوال فترة غياب الخادمتين. من الواضح أن تزامن رحيل دارزاك، والتدابير غير المسبقة المتخذة من قبل الآنسة ستانجرسون لتتوارى عن أعين الجميع، يؤكدان بما لا يدع مجالاً للشك، أن المجرم الذي يخشاه دارزاك، وتتأهب الآنسة ستانجرسون للقاءه، قادم لا محالة.
- هذا أمر مرعب!
- بالطبع.
- إذن، لا أحد سوانا يعلم أن المجرم سيتسلل ليلاً إلى داخل القصر، أليس كذلك؟
- لا، هناك شخصان آخران على دراية بالأمر؛ الحارس وزوجته اللذان عهدت إليهما مسؤولية مراقبة القصر من الخارج. أعتقد أن مراقبتهم للمجرم قبل ولوج القصر لن تُجدي نفعاً ولكن لا غنى عنها، ولا سيما بعد أن يغادر المجرم القصر، فرما "ينهي حياتنا".
- هل تعتقد أنه سيجرؤ على قتلنا؟
- سيزهق أرواحنا إذا شاء!
- لماذا لم تُطلع الأب جاك على الأمر؟ سيكون خير معين لنا، أليس كذلك؟
- أجب روليتابي بسرعة خاطفة قائلاً: "لا".
- التزمت الصمت لبرهة من الوقت، ثم انتابني رغبة جارفة في معرفة ما يدور في ذهن روليتابي، فسألته بعفوية:
- لماذا لم تُطلع السيد آرثر رانس على تفاصيل ما سيجري الليلة؟ أظن أنه لن يتوانى عن مد يد العون لنا.
- أجب روليتابي بنبرة مغلفة بالدعابة قائلاً:
- أترغب في إطلاع جميع سكان القصر على أسرار الآنسة ستانجرسون! فلنذهب لتناول العشاء. لقد حان الوقت، سنتناول طعام العشاء برفقة فريدريك لارسان، لو لم يكن قد غادر القصر مقتفياً أثر روبرت دارزاك، هذا الرجل غريب الأطوار يلزمه كظله، ولكن عجباً! من المستحيل أن يغادر القصر هذه الليلة!
- تنهى إلى مسامعنا صوت ضجيج ينبعث من الغرفة المجاورة، فقال روليتابي: "لا شك أنه فريدريك لارسان".
- عندما سنجلس إلى المائدة لتناول الطعام برفقة المحقق، لن نتطرق إلى أية تفاصيل بشأن المهمة التي سننجزها الليلة، أليس كذلك؟
- بكل تأكيد، نحن نعمل لحسابنا الخاص.
- ثم أردف روليتابي ساخراً: "ستكلل خطتنا بالنجاح، وسنظفر بالغنائم، أليس كذلك؟".
- توقف عن الزهو بنفسك.
- تناولنا طعام العشاء بصحبة فريدريك لارسان الذي أخبرنا أنه عاد إلى القصر للتو، وأصر على دعوتنا للجلوس على

مائدته.. تناولنا العشاء وسط أجواء ملؤها البهجة والدعابة، ولم أجد أدنى صعوبة في إدراك أن كلا الرجلين - روليتابي وفردريك لارسان، يجنّبان بين جوانحهما جزءاً كبيراً من الحقيقة الصادمة، أوضح روليتابي للمحقق أنني جئت لزيارته من تلقاء نفسي، وأنه ألح عليّ كي أبقى برفقته لبضع ساعات بين جدران القصر لأساعده في تحرير مقال من المقرر أن يُنشر في جريدة العصر. كما أخبره أيضاً أنني سأغادر القصر متوجهاً إلى باريس، ومستقلاً قطار الساعة الحادية عشر، حاملاً في جيبتي نسخة من المقالات اليومية التي يسرد المراسل الشاب عبر سطورها تفاصيل المشاهد الرئيسية لأسرار القصر.. ارتسمت على ثغر لارسان ابتسامة شخص يتعذر تضليله أو التلاعب به، حريص كل الحرص، بدافع التهذيب واللياقة، ألا يقحم أنفه في شؤون غيره.

راح الخصمان العنيدان يتجادبان، لفترة طويلة من الوقت، أطراف الحديث، متوخيين أقصى درجات الحيطة والحذر بشأن مجيء السيد رانس المبالغت إلى القصر، وحياته التي قضاها في أمريكا، تحدوها الرغبة في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول شخصيته المبهمة، أو على الأقل حول طبيعة العلاقة التي تربطه بأسرة ستانجسون. في تلك الأثناء، ارتسمت فجأة علامات الإرهاق والتعب على وجه لارسان الذي أخذ يخرج الكلمات من فمه بصعوبة بالغة، قائلاً:

- أظن يا سيد روليتابي أن الوقت يداهمننا، ولم يتبقّ أمامنا سوى بضع ليالٍ في هذا القصر.

- أشاطرك الرأي سيد فريد.

- هل تعتقد يا صديقي أن ملف القضية أُغلق بشكل نهائي؟

- بالطبع يا سيدي، ولم يعد هناك المزيد من المعلومات التي ينبغي أن نسعى للتزود بها.

- هل توصلت إلى الجاني؟

- وأنت؟

- بالطبع.

- وأنا أيضاً.

- هل هو نفس المجرم الذي تلوح صورته في ذهني الآن؟

- لا أظن ذلك، لو لم تكن وجهة نظرك قد تغيرت.

ثم أردف روليتابي بنبهة أكثر جدية: "السيد دارزاك بريء، ولم يقترف ذنباً".

- هل أنت واثق؟ حسناً، لم تتبدل وجهة نظري، من المتوقع أن يحدث الصراع بيننا، أليس كذلك؟

- نعم، تحتدم نيران الصراع الآن، وسألحق بك هزيمة نكراء يا سيد فريدريك لارسان.

ضحك فريد مصافحاً الفتى وقائلاً: "الشباب لا يهابون شيئاً".

أجاب روليتابي بنبهة تردد صداها في أرجاء الغرفة: "لا يهابون أعنى الصعاب!".

ولكن فجأة، وبدون سابق إنذار، وضع لارسان الذي نحض عن مقعده متمنياً لنا ليلة سعيدة كلتا يديه على صدره، ثم راح يترنح، كان لزاماً عليه الاستناد إلى روليتابي كي لا يسقط منهراً على الأرض بعدما كسا الشحوب ملامح وجهه، ثم فتح فاه قائلاً:

- أوه! ما الذي يجري؟ هل دُس لي السم في الطعام؟

رمقناه بنظرات حائرة، انحال عليه روليتابي بسيل من الأسئلة، بيد أنه لم ينبس بكلمة واحدة، سقط منهراً على أحد المقاعد، ولم ننجح في انتزاع أية معلومة منه، تسلل إلينا قلق عارم، فقد تناولنا نفس أصناف الطعام التي لمستها يدي فريدريك لارسان، أحطنا به يتملكنا شعور بالعجز، سكن الألم الذي باغته، بيد أن رأسه المتثقل مال نحو أحد كتفيه، تراخى جفناه بتثاقل فتورات عيناه الذابلتان المنهكتان، انحنى روليتابي متفحصاً نبضات قلبه التي تسارعت بشكل ملحوظ.

عندما استقام صديقي منتصباً، تبدلت ملامح وجهه من الانزعاج والدعر إلى الهدوء التام، ثم همس في أذني قائلاً:

- إنه يغط في سبات عميق.

غادرنا غرفة المحقق بعدما أغلق صديقي الباب، ثم قادني إلى غرفته، فطرحت بلهفة سؤالاً الملح على مسامعه:

- نفس المادة المنومة، أليس كذلك؟ هل ترغب الآنسة ستانجرسون في أن ينال جميع سكان القصر قسطاً وافراً من الراحة هذه الليلة؟

أجابني روليتاي شارد الذهن: "ربما".

صحت متعجباً: "وماذا عنا! وما أدراكنا أننا لم نبتلع نفس هذه المادة المنومة؟".

سألني روليتاي بنبرة ملؤها البرود: "هل تشعر بتوعك؟".

- لا أشعر بشيء على الإطلاق.

- هل تشعر برغبة في النعاس؟

- لا.

- حسناً يا صديقي، قم بتدخين هذا السيجار الفاخر!

قدم إليّ سيجاراً كوبيّاً فاخراً منحه إياه السيد دارزاك، أما هو فشرع في إشعال غليونيه الذي يكاد ألا يفارق فمه. لم نبرح الغرفة حتى الساعة العاشرة، ولم ننس بكلمة واحدة، ظل روليتاي غائصاً في مقعد وثير مشعلاً غليونيه، شارد الذهن وزائع النظرات. عندما حلت الساعة العاشرة، خلع صديقي حذاءه، ثم أوماً إليّ بيده، فأدركت أنني مجبر على خلع حذائي، حاذياً حذوه، همس روليتاي في أذني بصوت خفيض للغاية لدرجة أنني خمنت الكلمة التي تفوه بها دون سماعها: "المسدس!".

أخرجت مسدساً من جيب سترتي، فهمس روليتاي مرة أخرى في أذني قائلاً: "تزود بالسلاح!".

أمسكت بمسدسي، ثم سار صديقي نحو باب الغرفة، وفتحته بحذر شديد، فلم ينبعث منه أي صرير، وطئت أقدامنا أرضية القاعة الدائرية، وعلى الفور أوماً إليّ روليتاي بيده مرة أخرى، فأدركت أنه يأمرني باتخاذ موقعي في الغرفة الغارقة في الظلام، وحين تقدمت بضع خطوات للأمام تبني روليتاي، وأوقفني ليعانقني، ثم رأيته يعود أدراجه إلى غرفته متوخياً أقصى درجات الحذر. أثار هذا العناق الحار دهشتي فانتابني بعض القلق، ثم أكملت السير على أطراف أصابعي في القاعة اليمنى دون أن يعيقني شيء.

اجتزت بسطة الدرج، ثم واصلت طريقي في قاعة الجناح الأيسر حتى بلغت الغرفة المظلمة، وقبل اتخاذ موقعي داخل الغرفة تلفت حولي، ثم ألقيت نظرة متمعنة على رباط ستار النافذة. في الواقع، أدركت للتو أن كل ما سيتوجب عليّ فعله هو لمس هذا الرباط بأصبعي حتى ينبسط الستار الثقيل فجأة من تلقاء نفسه، حاجباً مربع الضوء عن روليتاي، تلك هي الإشارة المتفق عليها، أوقفني صوت وقع أقدام أمام باب غرفة آرثر رانس، لم يخلد رانس إلى فراشه بعد! ولكن كيف لا يزال مراكناً بين جدران القصر بالرغم من أنه لم يتناول طعام العشاء مع السيد ستانجرسون والأنسة؟

قبع في غرفتي الغارقة في الظلام، وأدركت للتو موقعها المتميز، فقد صار بمقدوري رؤية القاعة بأكملها يغمرها الضوء المتقد كقرص الشمس في وضوح النهار، سأرى بوضوح كل ما سيقع هناك، ولكن أي حادث سيقع؟ ربما أمر بالغ الخطورة. لاحظت في ذهني ذكرى عناق روليتاي الحار، فانقبض قلبي، لا يتعانق الأصدقاء بمثل هذه الطريقة سوى في المناسبات الخاصة أو حينما يحدق بهم الخطر! إذن، هل هناك خطر كبير يحيق بحياتي؟ أبقيت قبضتي محكمة على مؤخرة مقبض مسدسي، ورحت أنتظر وقوع أمر مباغت، لست بطلاً خارقاً، ولكنني شخص لا يتسم بالجبن.

انتظرت قرابة الساعة، وطوال هذا الوقت، لم تلمح عيناى شيئاً غير مألوفاً، توقف المطر الذي ظل يهطل بغزارة منذ حوالي الساعة التاسعة مساءً. أخبرني صديقي أنه ربما لن يقع شيء غير مألوف قبل حلول منتصف الليل أو الواحدة صباحاً، ومع ذلك، لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف حينما فُتح باب غرفة آرثر رانس، فقد تناهى إلى مسامعي صوت صريره الخافت. يبدو أن الباب فُتح من الداخل بأكبر قدر من الحذر، ظل الباب مفتوحاً لبضع ثوانٍ بدت لي قرناً من الزمان. ونظراً لأن الباب ظل مفتوحاً على القاعة، أي دُفع للخارج، لم أتمكن من رؤية ما يجري داخل الغرفة، أو ما يدور خلف الباب.

في تلك الأثناء، سمعت ضجيجاً غير مألوف ينبعث للمرة الثالثة من الخارج، أي من الحديقة، ولكنني لم أعر هذا الأمر

اهتماماً كبيراً. ولكن أثناء هذه المرة الأخيرة، انبعث الضجيج بقوة وبوضوح حتى أنني تذكرت على الفور ما قُص على مسامعي آنفاً بشأن صيحات الدعسوقة المندرة بالسوء، والتي لطالما صاحبت جميع الوقائع المأساوية التي حدثت في القصر، ولذلك لم أقف على كبح جماح رعشة باردة سرت في بدني. وللتو أبصرت شخصاً واقفاً خلف الباب ثم أغلقه. في بداية الأمر، لم أتمكن من تمييز ملامح وجهه، فقد أدار ظهره نحوي، وانحنى قليلاً إلى الأمام متفحصاً صرة كبيرة بعض الشيء. ولكن عقب إغلاق الباب حمل الصرة، واستدار نحو الغرفة المظلمة، وعندئذ تعرفت على ملامحه، الشخص الذي غادر للتو غرفة آرثر رانس في هذا الوقت المتأخر من الليل هو حارس القصر، الرجل الأخضر بشحمه ولحمه، مرتدياً نفس الثياب التي رأيته حينما التقيت به لأول مرة أمام فندق البرج، عندما أتيت إلى القصر، والتي كان يرتديها أيضاً عندما رأيته أنا وروليتياني في صباح أحد الأيام، متأهباً لمغادرة القصر. لا شك أنه الحارس، فقد تفحصت بإمعان ملامحه التي يبدو أنها تنم عن قلق بالغ.

عندما دوت صرخة الدعسوقة للمرة الرابعة، خارج القصر، أودع الحارس صرته في القاعة، ودنا بضع خطوات من النافذة الأخرى. تسمرت في مكاني، ولم أجازف بأية ردة فعل كي لا يشعر بوجودي. عندما بلغ النافذة، ألصق جبهته وأنفه بزجاجها، وراح يتطلع عبرها لمدة نصف دقيقة، إلى حديقة القصر المنبسطة فوقها ضوء القمر الخافت المتسرب من وراء سحابة كثيفة. رفع الرجل الأخضر ذراعه مرتين، ثم أصدر إيماءة لم أدرك فحواها. ابتعد عن النافذة، ثم حمل صرته، وسار مجتازاً القاعة نحو بسطة الدرج.

لقد أوصاني روليتاني قائلاً: "عندما تلاحظ شيئاً غير مألوف، فُك رباط الستار"، وها أنا قد أبصرت الآن شيئاً غريباً. هل هذا هو الشيء الذي كان يتوقعه روليتاني؟ هذا ليس من شأني، وكان لزاماً عليّ فقط أن أنصاع صاغراً للأوامر التي أصدرها صديقي. فككت رباط الستار بينما كاد قلبي أن يتوقف هلعاً، وصل الرجل إلى بسطة الدرج، ولكن أصابني دهشة صاعقة حينما رأيته يهبط الدرج المؤدي إلى الردهة بدلاً من مواصلة طريقه مجتازاً القاعة.

ما الذي يتوجب عليّ فعله الآن؟ رحت أنطلع ببلاهة إلى الستار الثقيل المنبسط للتو حاجباً النافذة، أعطيت الإشارة المتفق عليها، بيد أنني لم أر روليتاني منزوياً في أحد أركان القاعة الدائرية، لم يظهر أحد، فتملكتني الحيرة، مرت نصف ساعة، وكأنها قرن من الزمان. ما الذي بمقدوري فعله لو أن عيني وقعت على أمر غير مألوف؟ أصدرت الإشارة، ومن المستحيل أن أعطيها مرة أخرى. من ناحية أخرى، لو جازفت مجتازاً القاعة الآن ربما سأفسد جميع خطط روليتاني. في الواقع ليس بيدي أية حيلة، وإذا وقع شيء لم يضعه صديقي في الحسبان، ليس عليه سوى أن يلقي اللوم على نفسه. لم يعد بمقدوري تحذيره أو إعطاء إشارة أخرى، جازفت بكل شيء لعلني أدرك غايتي: غادرت الغرفة، متسللاً على أطراف أصابعي، متوخياً الحذر كي لا تتبعث مني أية ضوضاء، ثم توجهت نحو القاعة الدائرية.

لم أبصر أحداً في القاعة الدائرية، فانطلقت بسرعة نحو باب غرفة روليتاني. أصغيت بانتباه، ولكنني لم أسمع شيئاً، طرقت برفق على الباب، ولم يتناه إلى مسامعي أي رد، أدت المقبض، وفُتح الباب. ولجت الغرفة، فأبصرت روليتاني ممدداً بطول أرضية غرفته.

## الفصل الثاني والعشرون

### جثة مثيرة للفضول

انحنيت بقلق بالغ متفحصاً جسد صديقي، وغمرت ببهجة عارمة حين تيقنت أنه يغط في سبات عميق! تخدرت أطرافه وغرق في نوم عميق مثلما حدث مع فريدريك لارسان. وقع روليتاي ضحية للمادة المنومة التي دُست في طعامنا. لماذا لم ألقِ نفس المصير! شردت بذهني مفكراً، فأدركت أن المادة المنومة دُست في كؤوس النبيذ أو أكواب المياه، وتجلت هذه الحقيقة أمام عيني: "لم أعتد احتساء النبيذ أو شرب الماء أثناء تناول الطعام"، لقد حبتني الطبيعة بالبدانة في وقت مبكر، فاعتدت اتباع نظام غذائي قاسٍ لإنزال الوزن، وضعت يدي على كتفي روليتاي وهزته بقوة، لكنه لم ينتبه إليّ، من الواضح أن الأنسة ستانجرسون هي من دبرت هذه الفعلة الشنعاء.

لا شك أن الأنسة، بعدما نجحت في وضع المادة المنومة في كأس والدها، ارتابت بشأن يقظة الشاب نافذ البصيرة الذي تطابقت توقعاته مع الواقع، وكان على علم بكل شيء! تذكرت فجأة أن رئيس الخدم نصحنًا باحتساء نوع فاخر من النبيذ الأبيض، ولا شك أن هذا النبيذ هو الذي وضع أيضاً على مائدة البروفيسور والأنسة. مرت أكثر من ربع ساعة دون جديد يذكر، ولذلك، عقدت العزم في ظل هذه الظروف العصيبة التي تتطلب كامل اليقظة على اللجوء إلى وسائل أكثر فاعلية. سكبت ملء إبريق من الماء البارد على وجه روليتاي.. فتح عينيه أخيراً! ثم بدت عيناه المتسمرتان في الفراغ بلا حياة أو نظرات، لاحت بوادى الانتصار في الأفق، أليس كذلك؟ أردت تحقيق انتصارٍ مدوّ، فوجهت إلى صديقي صفتين خفيفتين على خديه، ورفعته قليلاً. يا لسعادتي الغامرة! شعرت بأن يديه تتشبثان بذراعي، وسمعته يتمتم قائلاً:

- استمر، دون أن تتبعث عنك أية ضوضاء.

من المستحيل مواصلة صفعه دون انبعاث أية ضوضاء، شرعت في هزه مرة أخرى، فتمكن من الوقوف منتصباً على ساقيه، لقد كتبت لنا النجاة! فتح روليتاي فاه قائلاً: "دُس لي المنوم في الشراب! شعرت بتوعك لمدة ربع ساعة قبل الاستسلام للنوم، ولكن فات الأوان! ابقِ بجواري!"

لم يكد صديقي ينهي عبارته حتى انطلقت صرخة مروعة مزقت سكون الليل، ودوت أصداؤها في شتى أرجاء القصر، صرخة مرعبة تنم عن موت محقق. صاح روليتاي: "وقع ما لا يُحمد عقباه! لقد فات الأوان!". أراد روليتاي أن ينطلق بسرعة نحو الباب، بيد أنه أصيب بالدوار مستنداً إلى الجدار، اندفعت بسرعة البرق نحو القاعة مُحكماً قبضتي على مسدسي، ورحت أركض كمن جن جنونه باتجاه غرفة الأنسة ستانجرسون، وفور أن بلغت تقاطع القاعتين، أبصرت شخصاً يفر هارباً من شقة الأنسة ستانجرسون، ثم وصل، في عدة قفزات متلاحقة، إلى بسطة الدرج. لم أستطع التحكم في أعصابي، فأطلقت النار، دوى صوت الطلق الناري في القاعة محدثاً ضجة تصم الآذان، ولكن الرجل واصل قفزاته المتهورة هابطاً الدرج. ركضت وراءه صائحاً بأعلى صوتي: "توقف أيها المجرم! توقف! وإلا أردتلك قتيلاً"، عندما انطلقت مسرعاً بدوري نحو الدرج، أبصرت في مواجهتي السيد آرثر رانس قادمًا من نهاية القاعة الواقعة في الجناح الأيسر من القصر، وهو يصيح مذعوراً: "ما الذي يجري؟ ما الذي يجري؟".

وطئت أقدامنا الجزء السفلي من الدرج في نفس اللحظة تقريباً، كانت نافذة الردهة مفتوحة على مصراعها، فأبصرنا بوضوح هيئة المجرم الذي لاذ بالفرار، وبدافع غريزي أطلقنا رصاص مسدسينا نحوه، لم يفصل بيننا وبينه أكثر من عشرة أمتار، تعثر المجرم وسار مترنحاً، فظننا أنه سيسقط منهازاً على الأرض. عندئذ قفزنا من النافذة، بيد أن الرجل ملمم شتات قواه المبعثرة مستأنفاً الركض، لم أزل مرتدياً جوربي، وأخذ الأمريكي يركض بجواري حافي القدمين يحدونا الأمل في الإمساك بالمجرم، "لو لم يسقط قتيلاً برصاص أحدنا"، أطلقنا نحوه آخر رصاصاتنا، ولا زلنا نراه يفر هارباً، ركض مهولاً بمحاذاة الجانب الأيمن للفناء الرئيسي باتجاه نهاية الجناح الأيمن للقصر، نحو ركن مُحاط بمجموعة من الحفر والأسوار شاهقة الارتفاع التي من المستحيل أن يتسلقها هارباً، سُدت في وجهه كل المخارج، ولم نبصر أمامنا سوى باب الغرفة البارزة التي يشغلها الحارس.

وبالرغم من أن المجرم أصيب حتماً بإحدى رصاصات مسدسينا، إلا أنه ظل على بعد حوالي عشرين متراً... وفجأة،

فُتحت إحدى نوافذ القاعة فوق رأسينا، وتناهى إلى مسامعنا صوت روليتايي يصيح بنبرة يكسوها اليأس قائلاً: "أطلق النار يا برنييه! أطلق النار!". أومض البرق فأبصرنا الأب برنييه حاملاً بندقيته عند باب البرج الرئيسي للقصر. أصاب برنييه الهدف المنشود، فرأينا المجرم من مسافة بعيدة يسقط منهاراً على الأرض، ركضنا أنا وبرنييه والسيد آرثر رانس مهرولين نحوه، ثم أدركنا غايتنا بعد مرور عشرين ثانية تقريباً، "ها هو المجرم قد صار جثة هامدة ملقاة عند أقدامنا ولا تحرك ساكناً". من الواضح أن لارسان استفاق أخيراً من سباته العميق إثر سماع الجلبة المدوية ودوي إطلاق الرصاص المتواصل، ففتح نافذة غرفته للتو، وصاح بأعلى صوته، مثلما فعل آرثر رانس منذ قليل، قائلاً: "ما الذي يجري؟ ما الذي يجري؟". وبينما ننحن قليلاً لتحذونا رغبة ملحة في تفحص الجثة الهامدة المغلفة بالغموض، تقدم روليتايي نحونا، فصحت قائلاً:

- لقد أردينا قتيلاً! أردينا قتيلاً!

- حسناً فعلتم! أحضروه إلى ردهة القصر.

ثم أردف، بعد أن عدل عن فكرته، قائلاً:

- لا! لا! ضعه في غرفة الحارس!

طرق روليتايي على باب غرفة الحارس، ولكن لم يجبه أحد من الداخل، وهذا أمر بطبيعة الحال لم يثر دهشتي. قال المراسل الشاب: "من الواضح أن الحارس ليس هنا، وإلا لكان قد خرج بالفعل! أحمّلوا الجثة إلى الردهة". انحولكت ظلمة الليل جراء توارى القمر وراء سحابة كثيفة فور تجمعنا حول جثة المجرم الهامدة، ولم يكن بمقدورنا سوى تحسسها بأيدينا دون القدرة على تمييز ملامحها. في الواقع أردنا فقط إشباع نهم فضولنا الظامى! جاء الأب جاك مهرولاً ليساعدنا في حمل الجثة ونقلها إلى ردهة القصر، وُضعت الجثة أخيراً على الدرجة الأولى من الدرج، وطوال سيرتي - أي أثناء حمل جثمان المجرم - شعرت بأن الدم يتدفق من أحد الجروح الغائرة.

ركض الأب جاك مهرولاً باتجاه غرفة المطبخ، ثم عاد حاملاً مصباحاً.. انحنى قليلاً نحو وجه المجرم، واستطعنا التعرف على ملامح الحارس الذي أطلق عليه صاحب فندق البرج اسم "الرجل الأخضر"، والذي أبصرته منذ ساعة تقريباً يغادر غرفة آرثر رانس حاملاً صرة، ولكن لم يكن بمقدوري أن أخبر أحداً بما رأيت عيناى سوى روليتايي، تلك هي الخطوة التي أقدمت عليها بعد مرور بضع دقائق. تاهت الكلمات المعبرة عن الدهشة البالغة، بل أقول خيبة الأمل الصادمة والمروعة التي أبداها كل من جوزيف روليتايي وفردريك لارسان المنضمين إلينا في الردهة، راح الرجلان يتحسسان الجثمان متفحصين هيئة المجرم المفارق للحياة، معني النظر في ثيابه المخملية خضراء اللون، ثم قال بصوت واحد: "مستحيل! هذا أمر مستحيل!".

أبدى الأب جاك حزناً مصطنعاً مصحوباً بنواح مثير للسخرية، وزعم أننا أخطأنا الهدف المنشود، وأن الحارس لا يجرؤ على المساس بسيدته، أجبرناه على التزام الصمت، فقد انفجر في البكاء، وكأن من لُقي حتفه للتو هو ابنه الوحيد، جال في خاطري أن هذا الكم الهائل من المشاعر المبالغ فيها يعود إلى قلق وخوف الأب جاك، من اعتقاد البعض بأنه مبتهج بموت الحارس المأساوي، فالجميع على علم بأنه يضمّر في قلبه كرهاً شديداً تجاه الحارس، لفت انتباهي أن الأب جاك هو الشخص الوحيد - من بين جميع الواقفين حفاة الأقدام أو الذين يرتدون جوارب دون أحذية - الذي يرتدي ثيابه بأكملها.

ظل روليتايي جاثياً على ركبتيه في الردهة متفحصاً بإمعان الجثة التي أضاءها مصباح الأب جاك، شرع في تجريد الحارس من ملابسه! وكشف عن صدره العاري الغارق في الدماء، وفجأة تناول المصباح من يد الأب جاك مسلطاً الضوء على الجرح الغائر، ثم نحض عن الأرض، وقال بنبرة مدهوشة تمتزج بتهكم فظ:

- الرجل الذين تظنون أنه لُقي حتفه إثر إطلاق الرصاص عليه، مات جراء تلقيه طعنة نافذة في القلب.

ظننت مرة أخرى أن روليتايي أصيب بمس من الجنون، فانحنيت متفحصاً الجثة، وأدركت أن الحارس لم يفارق الحياة إثر إطلاق الرصاص عليه، وأن أداة مذبحة حادة اخترقت بالفعل جزءاً من منطقة الصدر.

## الفصل الثالث والعشرون

### الأثر المزدوج

لم أستفق من ذهولي إلا عندما ربت صديقي على كتفي قائلاً:

- اتبعني!

- إلى أين؟

- إلى غرفتي.

- ماذا سنفعل هناك؟

- سندرس الأمر.

يتوجب عليّ الاعتراف بأنني تحت وطأة دهشتي العارمة صرت عاجزاً عن تمنع الأمر، بل عن التفكير أيضاً، وفي خضم ليلة مأساوية مرعبة، وعقب أحداث لا يتطابق ما نجم عنها من فزع وهلع مع تنافرها وعدم اتساقها، وجدت صعوبة بالغة في إدراك كيف يمكن لروليتيابي أن يزعم بأنه "سيدرس الأمر"، بينما نقف حائرين أمام جثة الحارس والأنسة ستانجرسون التي ربما تختصر الآن. ولكن روليتيابي أقدم على هذه الخطوة برباطة جأش كقائد عظيم في خضم معركة شرسة. أغلق روليتيابي باب غرفته، وأشار إليّ بالجلوس على أحد المقاعد، ثم جلس على مقعد مقابل بكل هدوء مشعلاً غليونه بشكل عفوي، ومستغرقاً في تفكير عميق، غفوت قليلاً عندما نحضت من نومي، أدركت للتو أن الصباح قد حل، وأن عقارب ساعتي تشير إلى الثامنة، لم أبصر روليتيابي جالساً في مقعده، فنهضت عن فراشي ورأيت الباب يفتح فجأة، ثم ظهر صديقي، أدركت، من ملامح وجهه، أنه لم يضع وقته هباءً، بينما كنت أنا أغط في سبات عميق.

سألته على الفور: "كيف حال الأنسة ستانجرسون؟".

- حالتها الصحية تبعث على القلق، ولكنها ليست خطيرة.

- متى غادرت الغرفة؟

- عندما بزغ أول خيط من خيوط الفجر.

- هل سعيت لاكتشاف شيء ما؟

- بالطبع.

- وإلام توصلت؟

- آثار أقدام شخصين مثيرة للفضول من الممكن أن تربك حساباتي.

- ألم تربك حساباتك بعد؟

- لا.

- هل تعني لك شيئاً ما؟

- بالطبع.

- هل الأمر يتعلق بجثة الحارس التي أصابتنا بالصدمة والذهول؟

- لم تعد جثة الحارس أمراً مثيراً للذهول، فقد تمكنت هذا الصباح، بينما كنت أتجول بين جنبات الحديقة المحيطة بالقصر، من العثور على آثار بارزة لأقدام شخصين سارا جنباً إلى جنب خلال الليلة الماضية، من الواضح أن آثار أقدام هذين الشخصين طُبعت، في وقت واحد، على الأرض، ولم يفترق أحدهما عن الآخر. اتجها نحو منتصف الفناء الرئيسي، ثم انطلقا شاقين طريقهما باتجاه غابة البلوط.

اجتزت الفناء الرئيسي وعيناي مثبتتان على هذا الأثر المزدوج، وعلى الفور، لحق بي فردريك لارسان الذي أبدى اهتماماً بالغاً باكتشافني المثير للذهول. في الواقع، لاحظت في ذاكرتنا صورة آثار الأقدام المزدوجة التي عُثر عليها عقب وقوع جريمة الغرفة الصفراء: آثار الحذاء العصري الأنيق، وبجوارها آثار الحذاء الضخم البارزة في الأرض، ولكن، أثناء استكمال التحريات حول واقعة الغرفة الصفراء، تلاقت آثار الحذاء العصري الأنيق بآثار الحذاء الضخم البارز أمام حافة بركة المياه، ثم

توارت عن الأنظار ووفقاً لما استنتجناه أنا ولارسان، تبين أن هاتين الهيئتين المختلفتين لآثار الأقدام تعود إلى شخص واحد لجأ إلى تبديل نوعين من الأحذية ، ولكن هذه المرة ظلت آثار أقدام الشخصين بجوار بعضها البعض. في الواقع، أربك مثل هذا الاكتشاف المثير قناعاتي السابقة، وشاطرنى لارسان الرأي، ولذلك، انهمكنا في تفحص هذه الآثار عن كثب دون كلل أو ملل.

أخرجت النعلين الورقيين من حافظتي، النعل الورقي الأول وهو الذي يتطابق مع آثار حذاء الأب جاك الذي عثر عليه لارسان، أي يتطابق مع آثار الحذاء الضخم البارز، وها هو يتطابق تماماً مع آثار أحد الحذاتين الظاهرة أمام أعيننا، أما النعل الورقي الثاني المتطابق مع آثار الحذاء العصري الأنيق، يتطابق تماماً مع آثار الحذاء الآخر، مع مراعاة وجود اختلاف طفيف في مقدمتي آثار الحذاء. باختصار، الاختلاف الوحيد بين الآثار الجديدة وآثار الحذاء العصري الأنيق التي عثر عليها بجوار البركة يتمثل في الطرف الأمامي للحذاء. لم نستطع الجزم بأن هذه الآثار تعود إلى نفس الشخص، ولكن ربما لم يعد بمقدور هذا الشخص مجهول الهوية ارتداء نفس النوع من الأحذية.

وباتباع هذا الأثر المزدوج، سرعان ما اجتزنا أنا ولارسان غابة البلوط، وانتهت بنا الحال إلى حافة بركة المياه التي تسمنا أمامها مذهولين أثناء التحقيق الأول الذي أجريناه. ولكن، هذه المرة، لم تتوار أي آثار أقدام عن الأنظار، بل ظلت بارزة طوال الممر الضيق الصغير، وصولاً إلى الطريق الرئيسة المؤدية إلى إبنائي، وهناك، لاح أمامنا طريق إسفلتي لم تبرز عليه أية آثار للأقدام، فعدنا أدرجنا إلى القصر، دون أن ننسب بكلمة واحدة. افترق أحدنا عن الآخر فور الوصول إلى الفناء الرئيسي، واتبع كل واحد منا مساراً مختلفاً منقاداً وراء أفكاره، ثم التقينا مرة أخرى أمام باب غرفة الأب جاك، أبصرنا الخادم العجوز مستلقياً في الفراش، ولاحظنا على الفور، ثيابه الرثة الملقاة على أحد المقاعد، وحذاءه الموحل المطابق تماماً للحذاء الذي أبصرنا آثاره على الأرض. من الواضح أن الأب جاك، أثناء المساعدة في نقل جثمان الحارس من الفناء الرئيسي للقصر إلى الردهة، وأثناء إحضار مصباح من المطبخ، عمد إلى تبديل الحذاء الذي كان يرتديه، وبلل ملابسه بالمياه، لأن السماء لم تكن تمطر في ذلك الحين. في الواقع، هطلت الأمطار بغزارة قبل وقوع هذه الأحداث، ثم عادت لتمطر بعد ذلك.

أما بالنسبة لمظهره الخارجي، فقد بدا بحالة يرثى لها، استولى الإرهاق والتعب على ملامح وجهه، وظل يتطلع إلينا بعينين رامشتين فزعتين منذ أن وطأت أقدامنا أرضية غرفته. شرعنا في استجوابه، وأخبرنا في بداية الأمر، أنه خلد إلى الفراش فور وصول الطبيب الذي استدعاه رئيس الخدم للحضور إلى القصر، ولكن بعد الإلحاح عليه تبين أنه يختلق الأكاذيب، واعترف أخيراً أنه غادر القصر، وبالطبع، سألناه عن الدافع وراء مغادرة القصر، فأخبرنا أنه شعر بصداق يدك رأسه، وكان بحاجة لاستنشاق بعض الهواء النقي، لكنه لم يتجاوز غابة البلوط، لم تتوان عن فضح أكاذيبه، ووصفنا بدقة الطريق التي سلكها، وكأننا نراه يجتازها أمام أعيننا، انتصب الرجل العجوز جالساً، وراح يرتجف هلعاً. صاح لارسان قائلاً: "في الواقع، لم تسلك الطريق بمفردك!".

حينئذ، تساءل الأب جاك مدهوشاً:

- إذن، هل رأيته؟

سألته بلهفة: "من؟".

- الشبح الأسود!

عندئذ روى لنا الأب جاك تفاصيل رؤيته للشبح الأسود لعدة ليالٍ، لقد ظهر في حديقة القصر بحلول منتصف الليل، وراح ينسل بين الأشجار بمرونة لا تُضاهى. بدا وكأنه "ينفذ" عبر جذوع الأشجار، رآه الأب جاك، مرتين، عبر زجاج النافذة في ضوء القمر فعزم أن يطارد، أخبرنا أنه قبل البارحة كان قاب قوسين أو أدنى من الإمساك به، بيد أنه تلاشى فجأة في أحد أركان البرج الرئيسي، وأخيراً، عندما غادر القصر ليلة البارحة، منزعجاً من جراء وقوع جريمة أخرى، رأى الشبح الأسود يظهر فجأة وسط الفناء الرئيسي، في بداية الأمر، تتبعه بحذر بالغ، ثم راح يتبعه عن كثب. وهكذا، انطلق متوجهاً نحو غابة البلوط، ثم بركة المياه، وأخيراً اجتاز الممر الضيق المؤدي إلى الطريق الرئيسية، وهناك، توارى الشبح فجأة وتلاشى

كالبخار.

سأله لارسان: "لم تر ملامح وجهه؟".

- لا! لم أر سوى أوشحة سوداء.

- وبعد ما جرى من أحداث بين جدران القاعة. لماذا لم تسع للانقضاض عليه وتحاول الإمساك به؟

- لم أستطع! تملكني الفزع، لم أجرؤ سوى على تتبعه.

قلت بنبرة يشوبها التهديد: "لم تتبعه أيها الأب جاك، بل سرت جنباً إلى جنبٍ معه وصولاً إلى الطريق الرئيسية المؤدية إلى إبناي".

صاح قائلاً: "لا! تهاطلت الأمطار بغزارة، فعدت أدراجي على الفور! ولا أدري ما الذي حل بالشبح الأسود!". ظلت عينا الأب جاك مثبتتين عليّ، ثم تركناه وشأنه. عندما غادرنا الغرفة، سألت فريد، بنبرة متكلفة، متطلعاً إلى وجهه ومحاولاً سبر أغواره: "متواطىء في الجريمة، أليس كذلك؟".

رفع لارسان ذراعيه نحو السماء قائلاً:

- كيف لي أن أعلم؟ في مثل هذا النوع من القضايا المشوبة بالتعقيد والغموض، هل نعلم شيئاً؟ قبل مرور أربع وعشرين ساعة، أقسمت أنه لم يكن هناك شريك في الجريمة!

انصرف فريد مخبراً إياي أنه سيغادر القصر، على الفور، متوجهاً إلى محطة قطار إبناي. انتهى روليتابي من سرد تفاصيل مغامراته المثيرة، فسألته قائلاً:

- وماذا بعد؟ ماذا تستنتج؟ بالنسبة لي، ازدادت الأمور تعقيداً، ولم أعد أفهم شيئاً، وماذا عنك؟ هل توصلت لمعرفة أي شيء؟

صاح روليتابي: "كل شيء! كل شيء!".

لم أر في حياتي وجهاً منيراً يشع إشراقاً وجلالاً، كوجه صديقي الذي يشع بهجة الآن، نهض عن مقعده ثم صافحني بحرارة، توسلت إليه قائلاً: "أرجو أن تطلعني على ما يدور في ذهنك الآن!".

حينئذ، أجابني بنبرة حادة قائلاً: "دعنا نطمئن على صحة الآنسة ستانجرسون".

## الفصل الرابع والعشرون

### روليتايي ينجح في التعرف على ملامح المجرم

أنقذت الآنسة ستانجرسون مرة أخرى من براثن موت محقق، فقد تدهورت صحتها بشكل خطير عقب تلقي ثلاث طعنات نافذة في صدرها أثناء ليلة مأساوية، آلت إلى رقادها لفترة طويلة من الوقت بين الحياة والموت، وعندما دبت الحياة من جديد في أعماقها، أخذ الأمل يحدونا في نجاة الشابة التعيسة من سطوة مصير مفرج ومفرج، فأدركنا أنها تستعيد حواسها يوماً فيوماً، إلا أنها ظلت غائبة عن الوعي، أضحت الآنسة المسكينة فريسة للبهزيان، وأظن أنه ليس من قبيل المبالغة الاعتراف بأن إلقاء القبض على السيد روبرت دارزاك بين جدران القصر، في اليوم الذي أعقب العثور على جثة الحارس، زاد الأمور تعقيداً وسوءاً.

وصل السيد روبرت دارزاك إلى القصر قرابة الساعة التاسعة والنصف، وقد رأيته بأم عيني يركض مهولاً في الحديقة، أشعث الشعر، فوضوي الهندام الملطخ بالطين، وهو في حالة يرثى لها، كنت متكئاً آنذاك على حافة نافذة القاعة بجوار روليتايي، وأبصرنا وجهه غارقاً في شحوب كشحوب الموتى. أبصرنا دارزاك من بعيد، فاندفع راكضاً نحونا، وصاح بنبرة ملؤها اليأس والإحباط، قائلاً:

- وصلت بعد فوات الأوان!

صاح روليتايي: "لا تقلق، لا تزال الآنسة على قيد الحياة".

بعد مرور بضعة دقائق، ولج دارزاك غرفة الآنسة، وتناهى إلى مسامعنا نواحه وعويله المنبعث من خلف الباب. تنهد روليتايي قائلاً: "يا لقسوة القدر. آه، ليتني لم أغط في سبات عميق، كان بمقدوري إنقاذ الآنسة المسكينة من براثن خصم عنيد وشرس، وإجباره على التزام الصمت إلى الأبد، وكان من الممكن أيضاً أن يظل الحارس على قيد الحياة!".

جاء السيد دارزاك المنهار في البكاء لرؤيتنا، فأخبره روليتايي بتفاصيل ما جرى، وأنه اتخذ ما يلزم من تدابير لضمان سلامتهما ونجاتهما - دارزاك والآنسة ستانجرسون، وأنه كان قاب قوسين أو أدنى من سحق العدو وإلحاق أشنع الهزائم به بعد أن أبصر بوضوح ملامح وجهه، ولكن القدر وقف له بالمرصاد، فأحبطت خطته، وانتهى الأمر بليلة دامية جراء دس المنوم له في الشراب.

قال له الصحفي الشاب بصوت خفيض: "آه! ليتك منحتني الثقة المطلقة، وليتك أفنعت الآنسة ستانجرسون بأن توليني ثقتها! توترت الأجواء واخترقت سهام الشك قلوب الجميع، الابنة تساورها الشكوك إزاء والدها، والفتاة لا تمنح ثقتها لحبيبها، حينما ألححت عليّ كي أبذل قصارى جهدي لأعزّل تقدم المجرم، كانت الآنسة ستانجرسون تعد العدة لإنهاء حياتي! فاستفقت بعد فوات الأوان شبه فاقد للوعي، جرجرت قدمي بتثاقل صوب هذه الغرفة، حيث استفاقت جميع حواسي فور أن وقعت عيناى على الآنسة التعيسة غارقة في بركة من الدماء".

وبناء على أوامر السيد دارزاك روى روليتايي تفاصيل المشهد المأساوي، فبينما شرعنا في مطاردة القاتل في الردهة، ثم في فناء القصر الرئيسي، ظل روليتايي مستنداً إلى الجدار كي لا يسقط منهراً على الأرض، رفع عينيه قليلاً، فأبصر باب غرفة نوم الآنسة ستانجرسون مفتوحاً على مصراعيه، ملم شتات قواه ثم ولج إلى الغرفة، وعلى الفور أبصر الآنسة جامدة بلا حراك كجثة هامدة مغمضة العينين، ونصف جسدھا العلوي مطروحاً على مكتبها الخشبي، وثيابها ملطخة بالدماء المتدفقة بغزارة من صدرها. يبدو أن روليتايي الذي كان لا يزال وقتئذ واقعاً تحت تأثير المادة المنومة، ظن أنه مستغرق في كابوس مرعب.

عاد روليتايي أدراجه إلى القاعة، وبردة فعل عفوية، فتح مصراعي النافذة، وصاح مخبرنا بوقوع الجريمة، ثم أمرنا بإخماء حياة الجاني، وعاد مهولاً إلى الغرفة المشؤومة، وعلى الفور اندفع بسرعة البرق متوجهاً إلى غرفة المعيشة التي ظل باهما موارباً، ثم راح يهز السيد ستانجرسون الممدد على الأريكة حتى استفاق من سباته العميق، انتصب السيد ستانجرسون واقفاً متسعة عيناه من هول الصدمة والذهول، والتمس من روليتايي أن يمسك بيده ويساعده في بلوغ غرفة الآنسة. وما إن وقعت عيناه على ابنته الغارقة في دمائها حتى أطلق صرخة ألم هائلة تمزق القلوب، ثم صاح قائلاً: "لا تزال على قيد الحياة! لا تزال على قيد الحياة!". استند أحدهما على الآخر ملتمسين شتات قواهما المبعثرة، ثم نجحا، بعد عناء طويل، في حمل الضحية

ووضعها في فراشها.

أراد روليتاني أن يلحق بنا ليطلع على مستجدات الأمور، ولكن قبل أن يغادر الغرفة، توقف لبرهة بجوار المكتب الخشبي وأبصر طرداً، طرداً ضخماً ملقى على الأرض. من الشخص الذي جلب هذا الطرد المفتوح وأودعه هنا على الأرض؟ انحنى روليتاني، فأبصر الكثير من الوثائق والصور الضوئية، وراح يقرأ هذه العبارات: "مكتف تفاضلي لمكشاف كهربائي، الخصائص الجوهرية للمركب الوسطي الناتج عن المادة القابلة للوزن والإيثر عديم الوزن". يا له من لغز عجيب مريب غريب، ويا لسخرية القدر، فبينما يجيء المجرم عازماً إنهاء حياة الأنسة، يُحضر بحوزته كمّاً هائلاً من الوثائق غير المجدية؛ ساعياً لإعادةّها إلى البروفيسور الذي من المتوقع أنه سيضرم فيها النيران غداً، وستتحول حتماً إلى كتلة من الرماد!

في صباح اليوم التالي لهذه الليلة المشؤومة، تملكنا الدهول حين أبصرنا السيد "دو ماركيه" وكاتبه ومجموعة من رجال الدرك يظهرهم فجأة في القصر، شرعوا في استجواب الجميع باستثناء الأنسة ستانجرسون التي بلا شك انتابتها حالة أشبه بالغيوبة، كنت حريصاً ألا أقص على مسامع القاضي تفاصيل اختبائي في غرفة غارقة في الظلام الدامس، ودس المادة المنومة في الشراب. باختصار، لم نبج بأي أمر مثير للريبة يتوارى خلفه سر غامض من المؤكد أنه سيلوح قريباً في الأفق، ولم نشر أو نلمح، من قريب أو بعيد، إلى أن الأنسة ستانجرسون ترقبت قدوم المجرم. لقد كانت الشابة التعيسة قاب قوسين أو أدنى من دفع حياتها ثمناً لهالة الغموض التي تغلف المجرم. تحتم علينا ألا نضيع تضحياتها الثمينة هباءً منثوراً. كرر آرثر رانس على مسامع الجميع، بعفوية مطلقة، - وكم أثار هذا الأمر دهشتي - عبارة تفيد بأنه رأى الحارس للمرة الأخيرة قرابة الساعة الحادية عشرة ليلاً، أوضح أن الحارس أتى إلى غرفته عازماً أن يحمل أمتعته التي كان من المقرر أن يقوم بنقلها، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي إلى محطة "سان - ميشيل"، ودار بينهما حديث مطول حول الصيد الجائر، كان من المتوقع أن يغادر آرثر رانس القصر في الصباح، متوجهاً إلى محطة سان ميشيل سيراً على الأقدام كعادته، ولذلك أراد أن يستغل الحارس العازم على القيام برحلة صباحية إلى البلدة الصغيرة في نقل أمتعته إلى المحطة.

هذا ما جال في خاطري، وما جاء على لسان السيد ستانجرسون عندما أدلى بأقواله، مصرحاً أنه لم يرغب ليلة البارحة، في دعوة صديقه آرثر رانس لتناول الطعام برفقته، وأنه انزوى في غرفته منذ حلول الساعة الخامسة، كان السيد آرثر قد أمر أحد الخدام بأن يحضر إليه الشاي في غرفته زاعماً أنه متعكر المزاج. أفاد برنييه أن الحارس التمس منه في تلك الليلة، أن يعاونه في مطاردة الصائدين الجائرين (لم يعد بمقدور الحارس الآن أن يدلّو بأيّة شهادة مناقضة لهذه الأقوال)، وأنهما اتفقا على أن يلتقيا في مكان يقع على مقربة من غابة البلوط، ونظراً لأن الحارس تولى عن المجيء فقد تسرب القلق إلى قلب برنييه، وانطلق عازماً ملاقة الحارس، سار حتى بلغ البرج الرئيسي، وفور أن اجتاز باباً صغيراً يتوسط الفناء الرئيسي، أبصر رجلاً يركض في الجهة المقابلة، مطلقاً العنان لقدميه وهما تسابقان الرياح متوجهاً صوب نهاية الجناح الأيمن للقصر.

في تلك الأثناء، أطلق برنييه الرصاص خلف الرجل الهارب، ولاح روليتاني متطلعاً عبر النافذة، فوقعت عيناه على برنييه ممسكاً ببندقيته، فما لبث أن أمره بإطلاق النار على المجرم وإردائه قتيلاً. عندئذ، ضغط برنييه بقوة على زناد بندقيته المحشوة بالذخيرة متملكة إياه قناعة راسخة بأنه أصاب الهدف المنشود، أيقن أن مهمته كللت بنجاح باهر، وظل هذا الاعتقاد يحده حتى أخبره روليتاني، الذي شرع في تجريد القتيل من ملابسه، أن الجثة الهامدة التي سقطت للتو فارقت الحياة إثر تلقي طعنة نافذة في القلب، فضلاً عن ذلك ازدادت الأمور غموضاً وتعقيداً، وخيمت أجواء الدهشة والذهول على هذا المشهد المفزع، وانطلاقاً من فكرة أن الجثة الهامدة التي سقطت للتو لا تمت بصلة لجثة المجرم الذي أمطر بوابل من الطلقات النارية، فمن المنطقي أن الهارب توارى عن الأنظار في مكان مجهول، ولكن، "هل بمقدور أي شخص، سواء كان حي أو فارق الحياة، أن يتوارى في مثل هذا الركن الضيق؟!"

هذه هي الأقوال التي أدلى بها الأب برنييه، ولكن قاضي التحقيق علق قائلاً: "وبما أنكم كنتم واقفين في بقعة ضيقة من الفناء، وغارقة في الظلام الحالك، وتعذر عليكم تمييز ملامح وجه الحارس، والتعرف على هويته، كان لزاماً عليكم أن تنقلوه إلى الردهة"، أجاب الأب برنييه:

- طالما أننا لم نر أي جثمان آخر، سواء لشخص أفضت روحه إلى بارئها، أو لشخص لا يزال على قيد الحياة، لم يكن

أمامنا خيار آخر سوى حمل الجثة الهامدة ومغادرة هذا الركن الضيق. في الواقع بلغ عدد الواقفين حول الجثة خمسة أشخاص دون احتساب جثمان القتيل بالطبع، وكان من المستحيل أن يفر أي شخص آخر هارباً أمام أعيننا، وذلك لأن الباب الوحيد الواقع في نهاية الفناء، هو باب غرفة الحارس، وكان مغلقاً بإحكام، وعثرنا على المفتاح في جيب القتيل. ونظراً لأن الاستنتاج المنطقي الذي خلص إليه برنييه، والذي يبدو بديهياً للوهلة الأولى، قاد إلى استنتاج آخر مفاده أن الحارس توفي إثر إصابته بالرصاص وتلقيه طعنة نافذة في القلب، انحال قاضي التحقيق علينا بسيل من الأسئلة. أدرك جميع الحاضرين أن القاضي تحدوه قناعة راسخة بأننا أخفقنا في بلوغ هدفنا المنشود (المجرم الهارب)، وأنا عثرنا على جثة لشخص آخر لا علاقة له بقضيتنا، ووفقاً لما تبادر إلى ذهنه من أفكار، شكلت جثة الحارس "قضية أخرى"، أراد بكل جوارحه ألا يتوانى عن إلقاء الضوء عليها، ومن المرجح أن هذه "القضية الجديدة" تتطابق مع الأفكار التي تراوده منذ عدة أيام، بشأن أخلاق وسلوكيات الحارس وعلاقاته الغرامية، ولا سيما مغامرته الغرامية الأخيرة مع زوجة صاحب الفندق، وتثبت دون أدنى شك، صحة التقارير المرفوعة إليه، والتي تشير إلى تهديدات بالقتل وجهها الأب ماتيو إلى الحارس. وبحلول الساعة الواحدة بعد الظهر، أُلقي القبض على الأب ماتيو بالرغم من الاعتراضات المتواصلة من قبل زوجته الحسنة، وتأوّهه المأجراً الإصابة بداء المفاصل. أُلقي القبض عليه واقتيد تحت حراسة مشددة إلى سجن "كوري"، وبرغم ذلك قُلب مسكنه رأساً على عقب، ولم يعثر على أي دليل إدانة يثبت تورطه في جريمة القتل، بيد أن العبارات المفعمة بالتهديد والوعيد التي راح يكررها على مسامع المارة وناقلي البضائع، في اليوم السابق لوقوع الجريمة، كانت سبباً رئيسياً في توجيه أصابع الاتهام إليه وإثارة الشكوك ضده، وأضرت به أكثر مما لو أنهم نجحوا في العثور على السكين الذي طعن به الرجل الأخضر مخبأ في حجرة نومه.

انتابنا ذهول مفاجع نظراً لتعاقب سلسلة من الأحداث المرعبة المتعذر تفسيرها، وقد بلغ اندهاشنا ذروته حينما أبصرنا فردريك لارسان يصل للتو إلى القصر، حيث كان قد غادر فور رؤية قاضي التحقيق، وها هو يعود أدراجه برفقة أحد موظفي السكة الحديد. لا نزال واقفين في الردهة، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث مع آرثر رانس، وتبادل الآراء بشأن براءة الأب ماتيو من جريمة القتل (على الأقل، تحدثت بمفردتي مع آرثر رانس، وأدلى كل واحد منا بدلوه في هذا الأمر، فقد استغرق روليتاي في شروذ ذهن عميق، وكأنه انحصر في حلم بعيد المنال، غير عابئ بما نردده من عبارات). ظل قاضي التحقيق والكاظم جالسين في غرفة المعيشة الصغيرة خضراء الجدران التي استقبلنا بين جدرانها روبرت دارزاك فور أن وطئت أقدامنا القصر للمرة الأولى. خضع الأب جاك للتو للتحقيق بعد أن استدعاه القاضي، ومكث روبرت دارزاك في الطابق العلوي، في غرفة الأنسة ستانجرسون، برفقة والدها ومجموعة من الأطباء.

ولج فريدريك لارسان إلى ردهة القصر بصحبة موظف السكة الحديد، حيث استطعنا أنا وروليتاي تمييز ملامح الرجل بسهولة فور رؤية لحيته الشقراء الصغيرة غير المشذبة التي تكسو ذقنه، صحت ملتفتاً إلى فريدريك لارسان: "انظر! ها هو موظف محطة (إيبيناي سير أوج)، فأجابني المحقق بابتسامة عريضة مرتسمة على ثغره: "نعم، نعم، أنت على حق، هو بالفعل". عندئذ، استدعى لارسان رجل الشرطة المكلف بالوقوف أمام غرفة المعيشة، أمراً إياه بإخبار قاضي التحقيق بأمر عودته إلى القصر. وعلى الفور غادر الأب جاك الغرفة، ودخل فريدريك لارسان برفقة موظف المحطة.. مرت الدقائق الواحدة تلو الأخرى، وبدا روليتاي متحلياً بأقصى درجات الصبر والحلم. فُتح الباب مرة أخرى، ودخل رجل الشرطة فور أن استدعاه قاضي التحقيق، ثم غادر الغرفة صاعداً الدرج، وهبط بعد بضع دقائق، تقدم رجل الشرطة نحو الباب، ثم فتحه ولم يغلقه وراءه، وقال لقاضي التحقيق: "سيدي القاضي، السيد روبرت دارزاك لا يرغب في النزول".

صاح القاضي قائلاً: "ماذا؟! لا يرغب!".

- أخبرني بأنه لا يستطيع ترك الأنسة ستانجرسون في هذه الحالة التي يُرثى لها.

- هذا رائع، طالما أنه لا يود النزول، إذن، فلنصعد لرؤيته.

غادر القاضي الغرفة، ثم صعد الدرج بصحبة رجل الشرطة مشيراً إلى فريدريك لارسان وموظف المحطة بأن يتبعاه، بينما شرعت أن وروليتاي في صعود الدرج وراءهما. تسمر الجميع في أماكنهم أمام باب غرفة معيشة الأنسة ستانجرسون، ثم شرع

القاضي في قرع الباب، لاحت الخادمة المدعوة "سيلفي"، وهي شابة صغيرة تتدلى بعض خصل شعرها الأشقر الباهت على وجهها الواجم، فسألها قاضي التحقيق بلهفة عطشى:

- هل السيد ستانجرسون هنا؟

- نعم، يا سيدي.

- أخبريه بأنني أرغب في التحدث معه قليلاً.

ذهبت "سيلفي" لاستدعاء السيد ستانجرسون الذي جاء مهرولاً، وبدت هيئته مثيرة للحزن والشفقة، وعيناه مغرورتين بالدموع، فقال للقاضي:

- لقد بلغ السيل الزبى. ماذا تريدون مني؟ أليس من المفترض يا سيدي أن تتركوني وشأني قليلاً في مثل هذا الظرف القاسي والعصيب!

- سيدي، لا بد أن ألتقي بالسيد روبرت دارزاك على الفور، ألا يمكنك إقناعه بمغادرة غرفة الأنسة ستانجرسون؟ وإلا سأكون مضطراً إلى اقتحام الغرفة برفقة رجال الأمن!

لم ينبس البروفيسور بنبتة شفة، بل راح يتطلع إلى القاضي ورجل الشرطة وجميع من رافقوهم، كضحية تنظر إلى جلادها ملتمسة العفو، ثم عاد إلى الغرفة. وسرعان ما غادر روبرت دارزاك الغرفة ممتنع الوجه، كأنه ذرة غبار تتقاذفها الرياح كما ت شاء. ولكن بمجرد أن وقعت عيناه على موظف السكة الحديد، الواقف وراء فريد لارسان، تفاقم وجهه شحوباً، واتسعت عيناه بتعابير الدهشة، ولم يقوَ على كبج جماع تنهيدة مكتومة. تملكنا جميعاً شعور بأن هناك ردة فعل حاسمة وقاطعة ستلقي بحياة روبرت دارزاك إلى التهلكة، تهللت أسارير لارسان، والتمعت عيناه سروراً ككلب صيد نجح أخيراً في اقتناص فريسته.

خاطب القاضي السيد روبرت دارزاك، مشيراً بيده إلى الموظف الشاب ذي اللحية الشقراء: "هل تعرف هذا الشخص يا سيدي؟".

أجاب دارزاك بنبرة حاول عبثاً أن يغلفها بالحزم والصرامة: "نعم، أعرفه، إنه يقطن مدينة "أورليان"، ويعمل موظفاً في محطة "إيناي سير أورج".

- صرح هذا الشاب أنه رآك تغادر محطة إيناي.

- نعم، الليلة الماضية، في تمام الساعة العاشرة والنصف، هذا صحيح!

خيم صمت مطبق، تابع قاضي التحقيق حديثه بنبرة مؤثرة: "سيد دارزاك، ماذا فعلت هناك في تلك البقعة التي تقع على بعد بضعة كيلومترات من القصر الذي تعرضت فيه الأنسة ستانجرسون لاعتداء غاشم كاد أن يريدها قتيلة؟".

غرق السيد دارزاك في لجة من الصمت، لم يخفض رأسه، بيد أنه أرخى عينيه، ربما سعى جاهداً أن يخفي اعتصار قلبه حزناً وألماً، أو ربما خشي من أن يقرأ أحد الحاضرين في عينيه السر المتواري خلف نظراته الحائرة. ألح القاضي قائلاً: "سيد دارزاك، هل بمقدورك أن تخبرني كيف قضيت وقتك الليلة الماضية؟".

رفع السيد دارزاك عينيه ملتفتاً إلى القاضي، متمالكاً أعصابه، ومستعيداً رباطة جأشه، ثم أجاب قائلاً:

- لا أستطيع يا سيدي.

- فكر ملياً يا سيدي! ربما سأكون مضطراً، لو أنك تهاديت في رفضك المشوب بالغرابة، لإصدار أمر بإلقاء القبض عليك.

- أرفض ذلك.

- سيد دارزاك، وفقاً لما ينص عليه القانون، أصدر الآن أمراً بإلقاء القبض عليك.

لم يكد القاضي ينهي عبارته حتى أبصرت روليتابي يندفع فجأة نحو السيد دارزاك. لا شك أنه كان على وشك البوح بسر ما، بيد أن السيد دارزاك أوماً إليه بأن يلزم الصمت، فضلاً عن أن رجل الشرطة كان قد أحكم قبضته على ذراع سجينه، في تلك الأثناء، ترددت أصداً نداء يائس: "روبرت! روبرت!". أدركنا جميعاً أن الصوت ينبعث من فم الأنسة ستانجرسون،

وسرت في أبداننا رعشة قوية حين تناهت إلى مسامعنا نبرة صوتها المكسوة بالألم والحزن، وراحت الحمرة المضرجة والشحوب الممتقع يتناوبان على ملامح وجه لارسان نفسه. أما بالنسبة للسيد دارزاك، فقد لبي نداء خطيبته على الفور، واندفع راكضاً كالسهم المنطلق دون حساب قاصداً الغرفة.

أحاط به كل من القاضي ورجل الشرطة ولارسان، بينما تسمرت أقدامنا أنا وروليتابي على عتبة الباب، يا له من مشهد يمزق القلوب والأكباد والأعصاب: نهضت الأنسة ستانجرسون المكتسية ملامح وجهها بشحوب الموتى عن فراشها بالرغم من تحذيرات الطبيبين ووالدها، مدت ذراعيها المرتعشتين نحو روبرت دارزاك الذي صار حبيساً بين أيدي لارسان ورجال الأمن، انتفض جسدها ثم فُتحت عينها على اتساعهما، أبصرت بتمعن وأدركت كل شيء، وراح ثغرها يهمس بكلمة واحدة، كلمة واحدة تشرجت على شفيتها الزرقاوين، كلمة تغلفت بالصمت، وفي نهاية المطاف سقطت الأنسة مغشياً عليها، أخرجوا دارزاك على الفور من غرفتها، وبينما ننتظر السيارة التي توجه لارسان لإحضارها، توقفنا لبرهة في الردهة، تزايدت مشاعرنا المضطربة تأججاً، وكادت الدموع أن تنهمر من عيني قاضي التحقيق، استغل روليتابي هذه الأجواء التي خيمت عليها مشاعر الحزن الممزوجة بالدهشة والصدمة، وتقدم نحو السيد دارزاك سائلاً إياه:

- ألن تدافع عن نفسك؟

- لا!

- إذن، سأتولى أمر الدفاع عنك يا سيدي.

أجاب الرجل المسكين ترتسم على ثغره ابتسامة محتضرة: "لا يمكنك ذلك، ليس بمقدورك فعل ما عجزنا أنا والأنسة ستانجرسون عن القيام به".

- لا، سأبلغ غاييتي المنشودة.

اكتست نبرة صوت روليتابي بجدوى وثقة مثيرين للغربة والذهول، وأردف قائلاً:

- ستكفل مهمتي بالنجاح يا سيد دارزاك، لأنني على علم بكثير من الأمور التي تخفى عليك.

غمغم دارزاك بنبرة مشوبة ببعض الغضب: "هيا، دعونا ننتقل!".

- أوه! أرجو ألا يتتابك القلق، سأنتقي ما أرغب في جمعه من معلومات كي أتمكن من إنقاذك.

- ينبغي ألا تظل الحقائق في طي الكتمان أيها الشاب، لو كنت ترغب حقاً في أن أظل ممتناً لك.

هز روليتابي رأسه، ثم اقترب من دارزاك حتى كاد أن يلصق به، وهمس في أذنه قائلاً:

- أنصت بإمعان لما سأتلوه على مسامعك، ولعل هذا الأمر سيبيث بعض الثقة في قلبك! لا شك أنك تعرف اسم المجرم،

ومن الواضح أيضاً أن الأنسة ستانجرسون تعرف فقط مجموعة من الحقائق التي تتعلق بالجاني، ولكنني أعرف عنه كل شيء!

اتسعت عينا دارزاك ذهولاً، وأبدت ردة فعله عدم إدراك كلي لفحوى العبارات التي تفوه بها روليتابي للتو. في تلك الأثناء

وصلت السيارة التي يقودها لارسان، فاقتيد دارزاك إليها، وجلس رجل الشرطة بجواره على المقعد الخلفي، أودع المتهم في

سجن "كوربي".

## الفصل الخامس والعشرون

### روليتاي يغادر في رحلة قصيرة

في مساء ذلك اليوم الشاق، غادرنا أنا وروليتاي القصر تغمرنا بهجة عارمة، فلم يتبقَّ بين جدران هذا المكان الموحش شيء يروي ظمأً فضولنا أو يسترعي انتباهنا. أيقنت أخيراً أن هناك كمّاً هائلاً من الألغاز من المتعذر فكّ طلاسمها، وقد ربت روليتاي بوجٍ على كتفي مخبراً إياي أن القصر لم يعد يحوي في جعبته المزيد من الأسرار، فقد انقشعت غيوم الوهم عن عقله وتجلت أمام عينيه الحقيقة واضحة كقرص الشمس في سماء صافية، وطئت أقدامنا باريس بحلول الساعة الثامنة، تناولنا طعام العشاء على عجل، ثم تملكنا التعب والإرهاق، فانصرف كل واحد منا إلى حال سبيله، وتواعدنا بأن نلتقي في صباح اليوم التالي في منزلي.

جاء روليتاي في الموعد الذي حددناه، ثم وُلج إلى غرفتي، فأبصرته مرتدياً بذلة من الصوف الإنجليزي ذات مربعات كبيرة، وقبعة على رأسه، وحاملاً على ذراعه معطفاً فضفاضاً، وممسكاً حقيبة سفر بيده، وأخبرني أنه سيغادر في رحلة قصيرة. سألته مدهوشاً: "كم ستمضي من الوقت في رحلتك؟".

- ربما شهر أو شهرين، الأمر رهن الظروف.
- لم أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة، أردف صديقي قائلاً: "أتدري ما الكلمة التي تلفظت بها الآنسة ستانجرسون بالأمس قبل السقوط مغشياً عليها، حينما رفعت عينها متطلعة نحو السيد روبرت دارزاك؟"
- لا، لم تتناه هذه الكلمة إلى مسامع أحد.
- أما أنا فقد سمعتها بوضوح، قالت: "تكلم!".
- وهل سيوح السيد دارزاك بسرّه؟
- لا، لن ينبس ببنت شفة.

كانت تحدوني الرغبة في إطالة مدة اللقاء وتجادب أطراف الحديث مع صديقي، لكنه صافحني بحرارة وتمنى لي نهاراً سعيداً، ولم يكن لدي متسع من الوقت سوى أن أطرح عليه هذا السؤال:

- ألا تخشى، أثناء فترة غيابك، وقوع جرائم أخرى، وارتكاب المزيد من الاعتداءات الوحشية؟
  - لم أعد أخشى شيئاً من هذا القبيل منذ أن رُج بالسيد دارزاك في السجن.
- انصرف صديقي فور انطلاق هذه العبارة المشوبة بالغرابة من بين شفثيه، ولم ألتق به مرة أخرى سوى بين جدران قاعة المحكمة، أثناء محاكمة دارزاك، حينما مثل أمام القاضي، وشرع في عرض أمور من المتعذر تفسيرها.

## الفصل السادس والعشرون

### جوزيف روليتاي يترب بفارغ الصبر

في الخامس عشر من يناير، أي بعد مرور شهرين ونصف على وقوع الأحداث المأساوية التي سردت تفاصيلها للتو، نشرت جريدة العصر، في العمود الأول من صفحتها الأولى، هذه المقالة المثيرة للفضول:

"هيئة محلفي إقليم "سين وواز" مدعوة اليوم لإصدار حكم بشأن واحدة من أكثر القضايا تعقيداً وغموضاً في تاريخ القضاء، فلم يسبق وأن عُرضت قضية تتغلف بكم هائل من النقاط المبهمة، وغير المفهومة، وغير القابلة للتفسير. وبالرغم من ذلك، لم يتردد ممثل الادعاء العام في أن يضع، في قفص الاتهام، رجلاً يحظى باحترام وتقدير الجميع، وهو عالم جليل، أمل للعلم الفرنسي يلوح في الأفق، رجل كرس جل حياته للعمل، ومشهود له بالكفاءة والنزاهة.

عندما ذاع خبر إلقاء القبض على روبرت دارزاك في شتى أرجاء باريس، اندلعت موجات احتجاج جماعية عارمة في مختلف المؤسسات، فقد أعربت جامعة السوربون بمختلف قطاعاتها، والتي تشوهت سمعتها جراء تصرف متهور مثير للذهول بدر عن قاضي التحقيق، عن ثقتها في براءة خطيب الأنسة ستانجرسون. شن السيد ستانجرسون بنفسه هجوماً حاداً على القضاء الذي ضل حتماً طريقه وانحرف عن مساره، فلا أحد تساوره شكوك في أن ضحية الاعتداء، لو كان بمقدورها التكلم والبوح بما يخالج نفسها، لجاءت مهولة ومثلت أمام هيئة محلفي "سين وواز"، وطالبت بإطلاق سراح الرجل الذي اختارته ليكون زوجاً لها، والذي ترغب النيابة في أن يساق إلى منصة الإعدام، ومن المأمول أن تسترد الأنسة ستانجرسون قريباً وعيها الغارق في لجة من الألغاز العجيبة المعقدة. هل ترغبون في أن تتردى حالتها الصحية مرة أخرى فور أن يتنامى إلى علمها خبر مفاده أن الرجل الذي تعشقه حد الجنون قد فارق الحياة فور أن انحالت عليه سياط الجلادين؟ أوجه هذا السؤال إلى هيئة المحلفين التي ستنظر اليوم في القضية المعروضة عليها.

في الواقع، يحتم علينا واجبنا الوطني ألا ندع هيئة المحلفين المؤلفة من اثني عشر قاضياً يتسمون بالجساسة والجرأة أن ترتكب خطأ جسيماً يظل وصمة عار في جبين القضاء. من الواضح أن المصادفات العجيبة وغير المعقولة، والصمت غير المبرر من قبل المتهم، وعدم الإفصاح عن أية تفاصيل تبرر غيابه عن القصر، وعدم التذرع بحجج أو أعذار، نجحت في تبديل قناعات النيابة العامة، ووجهتها إلى البحث عبثاً عن الحقيقة في مكان آخر تُسج من وحي الخيال، ولا يمت للواقع بصلة. في الواقع، تحوم الكثير من الشبهات حول السيد روبرت دارزاك، ولذلك ينبغي التماس العذر لمحقق مخضرم، متفرد الذكاء والدهاء كالسيد لارسان في الانجراف وراء مظاهر خادعة وخرافات لا أساس لها من الصحة. لاتزال الاتهامات تنهال، حتى هذه اللحظة، كسيل جارف على السيد دارزاك أمام قاضي التحقيق، وها نحن اليوم، نعتزم الدفاع عنه أمام هيئة المحلفين بكل ما أوتينا من قوة، وسنرشد القضاء إلى بصيص النور الذي سيشرق حتماً دياجير الظلام وسيفك طلاسم ألغاز قصر جلاندييه، وذلك، لأننا بكل بساطة نحمل الحقيقة في جعبتنا.

لا شك أن عدم تطرقنا للحديث عن هذه المسائل بالغة الأهمية، في وقت سابق، يصب في مصلحة القضية التي نحن بصدد الدفاع عنها. ولا شك أن قراءنا الأفاضل لم ينسوا التحقيقات المثيرة التي نشرناها بشأن قضية "القدم اليسرى لجثة شارع أويبركامب الشهيرة"، وعملية السطو الشهيرة على "المصرف العالمي"، وقضية "سرقة السبائك الذهبية من فندق "دو لا مونيه". في الواقع، قادتنا جميع هذه التحقيقات إلى استشفاف الحقيقة قبل أن يتمكن لارسان من إزاحة الستار عن جزء كبير منها ببراعة لا تضاهي، أجرى أصغر محررينا هذه التحقيقات المثيرة، وهو شاب يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، ويُدعى جوزيف روليتاي، ومن المتوقع أن يلمع نجمه ويذيع صيته في الغد القريب. فور اندلاع قضية قصر جلاندييه، انطلق مراسلنا الشاب مهولاً إلى مسرح الجريمة، ونجح في اقتحام جميع الأبواب الموصدة في وجهه، وأقام في القصر الذي طرد منه جميع من يمثلون المجال الصحفي. كان شغوفاً بالبحث عن الحقيقة جنباً إلى جنب مع فريدريك لارسان، ونجح في كشف النقاب عن الخطأ الفادح الذي وقع فيه المحقق العبقري، ثم حاول عبثاً أن يبعده عن المسار الخطأ الذي تبناه. رفض فريد العظيم أن يتلقى درساً من مراسل صحفي شاب، ولا شك أننا جميعاً على علم بما ألم بالسيد دارزاك إثر التثبت بعناد لم يجد نفعاً.

والآن، ينبغي أن تعلم فرنسا، بل العالم بأسره أنه، في نفس الليلة التي أُلقي فيها القبض على السيد روبرت دارزاك، توجه الصحفي الشاب إلى غرفة مكتب مدير تحرير جريدتنا، وخاطبه قائلاً:

- سأغادر، وليس بمقدوري إخباركم بالمدة التي سأقضيها في رحلتي، ربما شهر، أو اثنين، أو ثلاثة أشهر، ربما لن أعود أدراجي، سأترك لكم هذه الرسالة، لو لم أعد في اليوم الذي سيمثل فيه السيد دارزاك أمام محكمة الجنايات، فسوف تقومون بفتح غلافها وستقرؤونها على مسامع الجميع، عقب الاستماع إلى إفادة الشهود. لقد رتب الأمر مسبقاً مع محامي السيد روبرت دارزاك، أؤكد لك أن السيد روبرت دارزاك بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب. تحوي هذه الرسالة بين أسطرها اسم المجرم، ولن أفصح عن هويته الآن، فالأدلة التي تدعم اتهامي والمتعذر دحضها، والتي سأعثر عليها حتماً، ستقوده إلى منصة الإعدام.

غادر محررنا، ثم انقطعت أخباره لفترة طويلة من الوقت، لكن شخصاً مجهول الهوية جاء، قبل أسبوع، ملتصقاً بمقابلة مدير التحرير، وخاطبه قائلاً: "تصرف وفقاً لتعليمات جوزيف روليتابي، إذا لزم الأمر، فالرسالة تحمل بين طياتها الكثير من الحقائق". في الواقع، لم يرغب الرجل في الإفصاح عن اسمه.

واليوم هو الموافق الخامس عشر من يناير، وجوزيف روليتابي لم يعد بعد، وربما لن نراه مرة أخرى، هل سنعتبره أحد ضحايا الواجب الصحفي، أو أحد أبطال مهنتنا المحفوفة بالمخاطر؟ ربما فاضت روحه إلى بارئها الآن! سنأخذ بثأره حتماً. سيتوجه مدير تحرير مجلتنا، بعد ظهر اليوم، إلى محكمة الجنايات في فرساي حاملاً الرسالة التي تحوي بين أسطرها، دون شك، اسم القاتل!

وُضعت صورة شخصية لروليتابي أسفل عنوان المقالة.

لا شك أن الباريسيين المتوجهين اليوم إلى فرساي، والذين يعتزمون حضور الجلسة الشهيرة المسماة "بمحاكمة لغز الغرفة الصفراء"، سظل عالقة في أذهانهم ذكرى الحشود الغفيرة المتقاطرة من كل صوب وحذب، والتي اكتظت بها محطة "سان لازار". أثارت المقالة التي نشرتها جريدة العصر صدمة وفضول الكثيرين، فتفاقت حدة المناقشات. بودلت اللكمات والصفعات واللعنات بين أنصار جوزيف روليتابي وأتباع فريديك لارسان. أدلى كل واحد بدلوه في القضية، منحازاً لوجهة نظره الشخصية، دون أن يعير اهتماماً لآراء الآخرين. أولئك الذين تبنا نفس وجهة نظر لارسان في حل ألغاز الجريمة، لم يقبلوا فكرة التشكيك في نفاذ بصيرة وعبقريّة المحقق البارع الذي يحظى بشعبية واسعة، أما الآخرون الذين لجؤوا لافتراضات أخرى تتناقض مع توجهات فريديك لارسان، فقد ادّعوا بطبيعة الحال أنهم منحازون لوجهة نظر جوزيف روليتابي الذي لم يجمعه بهم أي لقاء. توافدت حشود ضخمة متجمهرة حول محكمة الجنايات، وأولئك الذين لم يتمكنوا من التسلل إلى القاعة، ظلوا حتى حلول المساء ملتفين حول المبنى الرئيسي.

أطلقت شائعة مفادها أن الأوامر صدرت بإلقاء القبض على السيد ستانجرسون عقب إدلائه باعتراف ينطوي على محاولة إنهاء حياة ابنته، سادت حالة من الهرج والمرج وبلغ التوتر ذروته، تحرق الجميع شوقاً لظهور روليتابي، وادعى البعض أنهم يعرفونه حق المعرفة، فعندما اجتاز رجل شاب مزوداً بتصريح مرور، المساحة الشاغرة التي تفصل بين الحشود الغفيرة وقاعة المحكمة، اندلعت المشاجرات، وصاح البعض قائلين: "روليتابي! ها هو روليتابي!". قوبل الشهود، الذين تتوافق ملاحظتهم إلى حد كبير مع ملامح صورهم الفوتوغرافية التي نشرتها جريدة "العصر"، بموجة من التصفيق الحار والترحيب، تعالت الاهتافات فور وصول مدير تحرير جريدة العصر، وراح البعض يصفق، والبعض الآخر يطلق الصفارات. تجمهر الكثير من النساء وسط هذه الحشود الغفيرة.

تولى السيد "دو روكو" إدارة جلسة المحاكمة الشهيرة، وهو قاضٍ متشبع بجميع الآراء المعروضة آنفاً والتي ينحاز إليها رجال القضاء، ولكنه شخص يتسم بالشرف والنزاهة. حان وقت استدعاء الشهود، وبرز بالطبع من بينهم السيد ستانجرسون، الذي بدا وكأنه تقدم في العمر عشر سنوات، حيث تعذر تمييز ملامح وجهه، ولارسان، والسيد آرثر رانس، متورد الوجه دائماً، والأب جاك، والأب ماتيوي، المكبلان بالأصفاد واللذان خضعا لحراسة اثنين من رجال الشرطة، والسيدة ماتيوي التي انهمرت الدموع من عينيها بغزارة، والحارس برنبيه وزوجته، والخادمتان المرافقتان للآنسة ستانجرسون، ورئيس الخدم وجميع

خدام القصر، وموظف مكتب البريد رقم 40، وموظف محطة قطار إيناي، وبعض أصدقاء البروفيسور والأنسة ستانجرسون، وجميع شهود الدفاع عن السيد روبرت دارزاك، وقد حالفني الحظ ليدرج اسمي على رأس قائمة الشهود، وهذا ما أتاح لي فرصة حضور الجلسة بأكملها.

ظهر السيد روبرت دارزاك في قفص الاتهام مطوقاً برجال الشرطة، ومتحلياً بالهدوء، وقد لفت الأنظار بوسامته وطول قامته حتى أنه استقبل بهمهمات الإعجاب بدلاً من نظرات الشفقة وهمسات المواساة، ثم انحنى على الفور هامساً في أذن محامييه السيد هنري روبرت الذي شرع في تصفح ملف موكله بمعاونة وكيل أعماله السيد أندريه هيس. وفور أن اتخذ أعضاء هيئة المحلفين أماكنهم، لوحظ أنهم أعاروا انتباهاً واهتماماً ملحوظاً لحوار جانبي دار بين السيد هنري روبرت ومدير تحرير جريدة "العصر". في نهاية المطاف جلس مدير التحرير في مقعد بالصف الأول، وتملك بعض الحاضرين دهشة عارمة من عدم انضمامه إلى الشهود في القاعة التي خصصت لهم.

قُرئت لائحة الاتهام، كما جرت العادة، في بداية الجلسة، ولست بحاجة لأن أتطرق إلى تفاصيل الاستجواب المطول الذي خضع له السيد دارزاك. انطلقت ردوده بشكل تلقائي، وبدت مشوبة بالكثير من الغموض، جميع ما تفوه به من عبارات يبدو منطقياً إلى حد كبير، وكل ما التزم الصمت بشأنه بدا مريباً ومثيراً للفرع، بالنسبة له، وبالنسبة لأولئك الذين "يستشعرون" براءته، لا شك أن التزامه بالصمت بشأن عدة أمور جوهرية سيقلده إلى الموت الحتمي. ظل يقاوم بضراوة توبيخ وتعنيف رئيس المحكمة ووكيل النيابة. أخبره أن التزام الصمت، في مثل هذه الظروف العصيبة، يعادل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة.

أجابهم قائلاً: "حسنًا، لا حيلة بيدي سوى التزام الصمت، ولكنني بريء".

سعى السيد هنري روبرت، الذي ذاع صيته بفضل مهارته المتفردة، لتجميل صورة موكله، مستغلاً التزامه الصمت، وملقياً الضوء على الالتزامات والضوابط الأخلاقية التي تفرض نفسها على الشخصيات ذائعة الصيت، نجح المحامي البارز في إقناع أولئك الذين تربطهم علاقة وثيقة بالسيد روبرت دارزاك، بيد أن الآخرين انتابتهم حالة من الحيرة. عُلفت جلسة المحاكمة، ثم استدعي الشهود واحداً تلو الآخر، ولم يصل روليتاني بعد. في كل مرة يُفتح أحد أبواب القاعة تتجه كل الأنظار نحو الوافد الغريب، ثم تتسلط على مدير تحرير الجريدة القابع في مقعده. في نهاية المطاف شوهده مدير التحرير وهو يتحسس جيبه، ثم همّ بإخراج الرسالة. اندلعت ضجة كبيرة أعقبت هذه اللحظة المرتقبة. عندئذ راح السيد هنري روبرت يطرح بعض الأسئلة على الأب ماتيو، المحاط بشرطيين، والذي لم يكل ولم يمل من الدفاع عن نفسه نافعاً التهمة الملتصقة به جزافاً. أستخدمت زوجة الأب ماتيو واعترفت وهي تجهش بالبكاء، أن ثمة علاقة خفية غرامية ربطتها بالحارس، وأن الشكوك ساورت زوجها حيالها، لكنها أقسمت أن زوجها لا علاقة له، لا من قريب أو بعيد، بجرمة الاغتيا. في تلك الأثناء، التمس المحامي هنري روبرت من هيئة المحكمة الاستماع على الفور إلى شهادة فريدريك لارسان بشأن هذه القضية المثيرة للريبة.

أوضح المحامي قائلاً: "وفقاً لمحادثة قصيرة أجريتها مع المحقق الشهير فريدريك لارسان، أثناء تعليق الجلسة، أدركت على الفور أن وفاة الحارس لم تنجم عن ارتكاب الأب ماتيو لجرمة قتل، وسيكون من المثير للاهتمام معرفة ما يدور في ذهن فريدريك لارسان".

تقدم لارسان نحو منصة الشهود للإدلاء بإفادته، وعرض فكرته بوضوح قائلاً:

- لا أرى ضرورة لتوريط الأب ماتيو في هذه القضية، أخبرت قاضي التحقيق بوجهة نظري، ولكن عبارات التهديد والوعيد التي أطلقها هذا الرجل تركت مردوداً سيئاً في ذهن الجميع، ولا سيما القاضي. أظن أن السفاح الذي حاول اغتيال الأنسة ستانجرسون هو نفس الشخص الذي أنهى حياة الحارس، صوّبت النيران نحو المجرم الحقيقي وفر هارباً باتجاه الفناء الرئيسي؛ فظن الجميع أنه أردى قتيلاً، ولكنه في واقع الأمر كان قد تعثر، ثم ترنح متوارياً وراء الجناح الأيمن للقصر. وهناك اصطدم وجهاً لوجه مع الحارس الذي أراد دون أدنى شك، أن يعرقل محاولة هروبه، كان المجرم لا يزال مُمسكاً بالسكين التي طعن بها صدر الأنسة ستانجرسون، ولم يتردد في توجيه طعنة قوية إلى قلب الحارس أردته قتيلاً على الفور.

بدا هذا الافتراض البسيط واقعياً ومنطقياً ومتماشياً إلى حد كبير مع الأفكار التي جالت في خاطر أولئك الذين يركضون لاهئين وراء أسرار قصر جلاندييه. تناهى إلى مسامعي صوت همهمات الإعجاب والموافقة، فطرح رئيس القاضي هذا السؤال:

- وماذا حل بالمجرم عقب ارتكاب الجريمة؟
- سيدي الرئيس، من الواضح أنه توارى عن الأنظار في ركن مظلم يقع في نهاية الفناء، وعقب انتهاء سكان القصر من حمل الجثة الهامدة إلى الردهة، تسلل هارباً بهدوء دون أن يراه أحد.
- في تلك الأثناء، انبعث صوت شاب صغير من خلف الحضور المترقب، وفي غمرة ذهول الجميع، ارتفع قائلاً:
- أشاطر السيد فريدريك لارسان الرأي فيما يتعلق بتوجيه المجرم طعنة نافذة إلى قلب الحارس، ولكنني أخالفه الرأي بشأن الحيلة الماكرة التي لجأ إليها للفرار هارباً من الركن الضيق القابع في نهاية الفناء.
- شخصت كل الأبصار نحو الشاب، وسرعان ما شرع حُجَّاب المحكمة في الإشارة للحاضرين بالتزام الصمت، تملكث رئيس المحكمة ثورة غضب عارم، وأصدر أمراً بطرد الوافد المتطفل من قاعة المحكمة على الفور، ولكن انطلق نفس الصوت مرة أخرى بنبرة أكثر وضوحاً:
- سيدي الرئيس، أنا المدعو جوزيف روليتاني.

## الفصل السابع والعشرون

### روليتاي يعود محاطاً بهالة من المجد والفخر

عجت القاعة بالضجيج، وتناهت إلى مسامعي صيحات النساء اللواتي أصابهن الدهول، لم يعد هناك أي مراعاة لهيبة القضاء. وقع تدافع جنوبي من قبل الحضور، فالجميع يرغبون في رؤية جوزيف روليتاي، صاح الرئيس مهدداً بإخلاء القاعة، ولكنهم لم ينصاعوا لأمره. في تلك الأثناء قفز روليتاي متخطياً السياج الذي يفصله عن الحاضرين القابعين في مقاعدهم، ثم شق طريقه بصعوبة بالغة، متوجهاً صوب مديره الذي احتضنه بحرارة، ثم أعطاه الرسالة، فوضعها في جيبه متقدماً نحو منصة الشهود، والابتسامة تعلو ملامح وجهه الذي يبدو ككرة قرمزية تتألق بوميض الذكاء المشع من عينيه المستديرتين، أبصرته مرتدياً نفس البذلة المصنوعة من الصوف الإنجليزي التي رأيتهما صباح رحيله، وحاملاً على ذراعه نفس المعطف الفضفاض، وقبعته في يده... ساد الصمت لبرهة، ثم فتح فاه قائلاً:

- أستمحك عذراً يا سيدي الرئيس، لقد تأخرت الباخرة التي أقلتني من أمريكا عابرة المحيط الأطلسي! أنا جوزيف روليتاي!

انفجر الجميع ضاحكين، فقد تملكهم بهجة عارمة إثر وصول الشاب الصغير المغوار، تنفسوا الصعداء، وبدوا وكأن حملاً ثقيلاً انزاح للتو عن كواهلهم، فلا شك أن لديهم يقين تام بأن البطل الواقف أمامهم هو الوحيد الذي يضم الحقيقة بromptها بين جوانحه، وأنه سيطلع الجميع حتماً على أدق تفاصيلها، استشاط رئيس المحكمة غضباً، ثم قال:

- حسناً! أنت جوزيف روليتاي، حسناً، سألقنك درساً قاسياً لن تنساه جراء الاستهزاء بالعدالة، وأثناء تداول الحكم بشأن قضيتك، سأصدر أمراً باحتجازك بموجب سلطتي التقديرية.

- ولكنني سيدي الرئيس، لم ألتمس سوى أن أوضع تحت تصرف العدالة، أتيت منصاعاً لأوامرها، وإذا تسبب قدومي في إثارة بعض الجلبة، فألتمس العفو من عدالة المحكمة. صدقني سيدي الرئيس، لا أحد يفوقني تقديراً واحتراماً للقضاء. في الواقع، حاولت قدر المستطاع أن أنسل بين الصفوف دون أن يلمحني أحد.

راح يضحك، ثم غرق الحضور في نوبة ضحك هستيري. أصدر رئيس المحكمة أمراً قائلاً: "أودعوه قفص الاتهام".  
نفض السيد هنري روبرت ملتماً من القاضي أن يعفو عن الشاب، وبنبرة ملؤها الود واللفظ، أقنعه بضرورة عدم الاستغناء عن شهادة شخص ظل مائناً بين جدران قصر جلاندييه طوال أسبوع خيم عليه الغموض، ولا سيما أنه يدعي إثبات براءة المتهم وإزاحة الستار عن هوية المجرم. التفت الرئيس نحو الشاب، ثم سأله بنبرة يكسوها التردد الممتزج بالشك:

- هل ستخبرنا باسم الجاني؟

- بالطبع يا سيدي، ولهذا السبب أتيت إلى هنا!

عجت القاعة بتصفيق حار، ولكن شرع حُجِّب المحكمة مرة أخرى في مطالبة الحاضرين بالتزام الصمت. قال السيد هنري روبرت المحامي: "لم يستدع جوزيف روليتاي للمثول أمام المحكمة بصفته شاهد، ولكن أرجو من سيدي الرئيس، بموجب سلطته التقديرية، أن يخضعه للاستجواب".

- حسناً، سنخضعه حتماً للاستجواب، ولكن دعونا ننهي...

نفض وكيل النيابة عن مقعده قائلاً:

- أظن أنه من الأفضل أن يذكر لنا الصحفي الشاب، على الفور، اسم الشخص الموجهة نحوه أصابع الاتهام.  
خيم صمت مطبق على الجميع، ظل روليتاي ملتزماً الصمت يتطلع بنظرات ملؤها الشفقة والعطف إلى السيد دارزاك الذي امتنع وجهه فجأة، وكأن غيمة كثيفة السواد مرّت عليه، فانزلق بعُسر ريقه في حلقه. أردف الرئيس قائلاً: "حسناً، كلنا آذان مصغية يا سيد جوزيف روليتاي، ونتحرق شوقاً لمعرفة اسم المجرم".

غمس روليتاي يده في جيبه بكل هدوء، ثم أخرج ساعة، وراح ينظر إليها، وقال بنبرة يكسوها الهدوء:

- سيدي الرئيس، ليس بمقدوري اطلاعك على اسم القاتل قبل حلول الساعة السادسة والنصف! لا يزال أمامنا أربع ساعات.

ضجت القاعة بمهممات تنم عن الدهول والشعور بخيبة الأمل، وصاح بعض المحامين بصوت عالٍ قائلين: "لقد جاء ليهِزاً بنا!". غمّر رئيس المحكمة ببهجة عارمة، في حين أن المحامي ين هنري روبرت وأندريه هيس تملكهما شعور بالضيق والانزعاج والضجر.

قال الرئيس: "من الواضح أن هذه المزحة السخيفة استقطعت وقتاً طويلاً، وآن الأوان أن تغادر يا سيد روليتابي متوجهاً إلى قاعة الشهود، وسأصدر لاحقاً أمراً باحتجازك".

اعترض روليتابي بنبرة حادة: "سيدي الرئيس، عندما أذكر لك اسم القاتل، ستلتمس لي الأعذار لأنني لم أستطع اطلاعك عليه قبل حلول الساعة السادسة والنصف، أقسم لك بشرفي أنني سأفي بوعدي، وفي غضون ذلك، سأطلع سيادتكم على بعض التفاصيل التي ستلقي حتماً بالضوء على جريمة اغتيال الحارس، يُمكن للسيد فريدريك لارسان، الذي رأيته "أعمل بجد" في قصر جلاندبييه، أن يخبرك كيف أنني كرسيت كل وقتي وجهدي من أجل فك طلاسم الألغاز المحيرة. ربما تتباين آراؤنا، ولكنني أزعّم أن إلقاء القبض على السيد دارزاك جاء دون وجه حق، فهو بريء من التهمة التي ألصقت به جزافاً". قال فريدريك لارسان: "سيدي الرئيس، سيكون من الممتع أن نستمع إلى آراء السيد روليتابي، ولا سيما تلك الأمور التي يخالفني الرأي بشأنها".

انطلقت همهمات التأييد والاستحسان فور سماع العبارة الأخيرة التي تفوه بها المحقق ذائع الصيت، فقد تأهب، متسلحاً بالعزيمة، لخوض صراع ضارٍ ضد خصم عنيد لا يعرف الكلل والملل. ولأن رئيس المحكمة ظل ملتزماً بالصمت، استطرّد فريدريك لارسان قائلاً:

- نتشارك نفس الرأي حول الطعنة التي وجهها المجرم إلى الحارس، وبما أننا لم نتفق بشأن مسألة هروبه من الركن القابع في نهاية الفناء، فهلا تكرمت وأرويت ظمأ فضولنا موضحاً لنا كيف لجأ لحيلة الهروب الماكرة؟  
- بالطبع، سأسعى جاهداً لإرواء ظمأ الجميع.

ضجت القاعة بقهقهات الحاضرين، وأعلن رئيس المحكمة أنه لن يتردد في تنفيذ تهديده لو لم يلتزم الجميع بالصمت، ثم أردف قائلاً:

- في الواقع، لا أرى أي شيء مثيراً للضحك، فالقضية شائكة ومشوبة بالتعقيد.  
قال روليتابي: "وأنا أيضاً".

وضع الحاضرين مناديلهم على أفواههم كي لا ينفجروا ضاحكين، ثم التفت القاضي إلى روليتابي قائلاً:  
- أيها الشاب، لا شك أنك سمعت للتو ما تفوه به السيد فريدريك لارسان. هلا تكرمت وأخبرتنا بالحيلة التي لجأ إليها المجرم للتسلل هارباً من نهاية الفناء؟

التفت روليتابي إلى السيدة ماتيو التي رمقته للتو بنظرة ملؤها الحزن والأسى، ثم قال:  
- بما أن السيدة ماتيو، وفقاً لما أدلت به من اعترافات، أخبرتنا أنه ثمة علاقة خفية غرامية ربطتها بالحارس. صاحب الأب ماتيو بأعلى صوته: "أيتها الوعدة!".

وعلى الفور، أمر رئيس المحكمة بإخراج الأب ماتيو من القاعة. تابع روليتابي:

- وطالما أنها أدلت بهذه الأقوال، فلا داعي لأن أخفي عليكم أنها اعتادت تجاذب أطراف الحديث ليلاً مع الحارس، في الطابق الأول من البرج الرئيسي، بين جدران الغرفة التي استغلت قديماً ككنيسة صغيرة، وقد تكررت اللقاءات بينهما ولا سيما في الفترة الأخيرة، منذ أن بات الأب ماتيو طريح الفراش جراء الإصابة بداء التهاب المفاصل.

خُفن الأب ماتيو، من وقت لآخر، بجرعات من المورفين المسكنة للألم التي منحتة قسماً وافراً من الراحة والنوم، كما منحت زوجته متسعاً من الوقت لتغيب عن المنزل كما يحلو لها. اعتادت السيدة ماتيو التردد على القصر ليلاً، متلفحة بوشاح أسود كبير حجب إلى حد كبير ملامحها وجعلها تبدو كشبح متشح بالسواد، أقض في كثير من الأحيان مضجع الأب جاك، وشتت فكره. ولكي تلفت السيدة ماتيو انتباه الحارس فور وصولها القصر، استعارت قطعة الأم أجينو، وهي ساحرة عجوز تقطن في منطقة "سانت جينيفيف دي بوا"، وعلى الفور، يغادر الحارس البرج الرئيسي، ثم يفتح الباب

الخلفي السري لعشيقته، وعندما خضع البرج الرئيسي مؤخراً لبعض الترميمات، جرت اللقاءات الغرامية السرية في غرفة الحارس الجديدة التي أفرغت جميع محتوياتها ليمكث، بشكل مؤقت بين جدرانها، وهي غرفة تقع في نهاية الجناح الأيمن للقصر، ولم يفصلها عن غرفة رئيس الخدم والطاهية سوى حاجز رفيع.

عندما وقعت جريمة نهاية الفناء، كانت السيدة ماتيو قد تركت الحارس للتو، ولأنه لم يكن لديهما ما يقولانه لبعضهما البعض، غادرا البرج الرئيسي معاً. سيدي الرئيس، خلصت إلى هذه النتائج، في صباح اليوم التالي، عقب تفحص دؤوب ودقيق لآثار الأقدام التي طبعت بوضوح في الفناء الرئيسي، لم يستطع برنييه الذي أوكلت إليه مهمة مراقبة المنطقة الواقعة خلف البرج الرئيسي متسلحاً ببندقيته رؤية ما يجري آنذاك في الفناء الرئيسي. توجهت السيدة ماتيو إلى البوابة المفتوحة في الفناء متأهبة للمغادرة، وعاد الحارس معزتماً الخلود إلى الفراش في غرفته الصغيرة مقوسة السقف الواقعة في نهاية الجناح الأيمن من القصر.

لم يكد الحارس يبلغ باب الغرفة التي خصصت له حتى انهالت طلقات الرصاص وراءه، فاستدار عائداً أدراجه يتدفق في أعماقه زعر جارف. ولم يكد يصل إلى زاوية الجناح الأيمن للقصر حتى انقض عليه أحد الأشخاص وراح يبرحه ضرباً، ثم سدّد إليه طعنة نافذة أودت بحياته، حُمِلت جثته على الفور بواسطة مجموعة من الأشخاص جال في محيلتهم أنهم نجحوا في الإمساك بالقاتل، ولكنهم في واقع الأمر، لسوء الحظ حملوا جثمان القاتل. ماذا فعلت السيدة ماتيو في تلك الأثناء؟ عندما فوجئت بدوي إطلاق الرصاص وظهور مجموعة من الأشخاص واحداً تلو الآخر، تسمرت في مكانها وقررت البقاء، ثم أبصرت الرجال يحملون الجثمان، كاد قلبها أن يتفتت هماً وغماً، وبردة فعل مبهمّة نبعت من مشاعرها المضطربة، اندفعت نحو ردهة القصر، ثم ألقت نظرة عابرة على الدرج الذي سلطت عليه أضواء مصباح الأب جاك، الدرج الذي تمددت عليه جثة عشيقها، ألقت على الجثمان نظرة الوداع ثم لاذت بالفرار. هل استرعت انتباه الأب جاك؟

في تلك الليلة وقبل وقوع الجريمة، استيقظ الأب جاك من نومه فزعاً إثر سماع صرخة الدعسوقة، ورأى عبر النافذة شبحاً أسود يمر أمامه، ارتدى ثيابه على عجل، وهذا هو السر وراء وصوله إلى الردهة مرتدياً ثيابه بأكملها فور نقل جثمان الحارس. إذن، تجدر الإشارة إلى أن الأب جاك في تلك الليلة، غادر غرفته متوجهاً إلى الفناء الرئيسي، وسعى جاهداً أن يتفحص عن كتب، ملامح وجه الشبح الأسود، نجح أخيراً في تمييز ملامح وجه السيدة ماتيو، وباعتباره أحد أصدقائها القدامى اضطرت لأن تبوح له بسر علاقتها الغرامية ولقاءاتها الليلية، وتوسلت إليه أن ينقذها من برائن تلك اللحظة العvisية! أخذته الشفقة على امرأة منكوبة أبصرت عشيقها يسقط للتو قتيلاً أمام عينيها، فرافقها إلى غابة البلوط ثم إلى البركة، وأخيراً اجتاز بصحبته الممر الضيق المؤدي إلى الطريق الرئيسي. وهناك لم يتبق سوى بضعة أمتار كي تعود المرأة سالمة غائمة إلى منزلها، عاد الأب جاك مهولاً إلى القصر مقررّاً كتمان الأمر بين جوانحه، لست بحاجة لأن ألتمس من السيدة ماتيو والأب جاك تأكيد صحة هذه الرواية.

وعندئذ استدار روليتابي ملتفتاً إلى السيدة ماتيو التي لاتزال ماثلة أمام هيئة المحكمة، ثم أوماً إليها برأسه مبتسماً، وأكمل مستطرداً:

- من الجدير بالذكر أن هناك تشابهاً عجبياً وغريباً بين آثار أقدام السيدة ماتيو، وآثار أقدام الحذاء العصري الأنيق. انتفضت السيدة مذعورة، ثم راحت ترمقه بنظرات ملؤها الفضول. كيف يجزّو على قول ذلك؟ وما فحوى عباراته المبهمة؟ - سيدة ترتدي حذاء أنيقاً، وطويلاً وعريضاً بالنسبة لامرأة؛ حذاء ذا طرف أمامي مدبب يتوافق إلى حد كبير مع آثار أقدام القاتل.

تعالّت همهمات الحاضرين، فأشار إليهم روليتابي بيده أن يلزموا الصمت، يمكن القول بأن الشاب أضحى الآن متحكماً بزمام إدارة الجلسة، فأردف قائلاً:

- أسارع إلى القول بأن مثل هذه الاستنتاجات لا تعني لي الكثير، فالحقق الذي يتبنى منهجية تعتمد على آثار أقدام متطابقة دون وضع تصور عام، سيرتكب الكثير من الأخطاء الجسيمة التي ستضلّل دون شك العدالة، فأثار أقدام السيد روبرت دارزك تطابقت مع آثار أقدام المجرم، ومع ذلك لم يرتكب أي جرم!

التفت رئيس المحكمة إلى السيدة ماتيو طارحاً عليها هذا السؤال:

- هل هكذا سارت الأمور في ليلة وقوع الجريمة يا سيدي؟
- نعم سيدي الرئيس، يحدوني الاعتقاد بأن السيد روليتابي ظل يتتبعنا خطوة بخطوة.
- هل رأيت القاتل حينما ركض مهولاً باتجاه الجناح الأيمن للقصر يا سيدي؟
- نعم، رأيته يلوذ بالفرار مثلما أبصرت الرجال يحملون جثة الحارس بعد مرور دقيقة واحدة من وقوع الجريمة.
- وما الذي حل بالقاتل؟ بقيت بمفردك في الفناء الرئيسي، ولا شك أنك رأيته يحاول الهروب. يبدو جلياً أنه لم يكن على علم بوجودك في الفناء، فأراد أن يغتم الفرصة ويلوذ بالفرار.
- انفجرت السيدة ماتيو باكية، ثم قالت: "لم أبصر شيئاً سيدي الرئيس. في تلك الأثناء، ساد الظلام الحالك في أرجاء المكان".

قال الرئيس: "إذن، أظن أن السيد روليتابي سيزودنا بما نريده من معلومات بشأن لغز هروب القاتل".  
أجاب روليتابي بنبرة ملؤها الثقة تسببت في رسم الابتسامة على ثغر الرئيس: "بالطبع يا سيدي.. كان من المستحيل على القاتل أن يفر هارباً بشكل طبيعي من نهاية الفناء المتواري في إحدى زواياه دون أن نراه! ولو لم نره لكان من البديهي أن نصطدم به أو نلمسه! يمثل هذا الجزء من الفناء بقعة صغيرة ضيقة مربعة الشكل مُحاطة بمجموعة من الحفر والأسوار شاهقة الارتفاع.

- إذن، طالما أن الرجل صار حبس المربع الضيق المحاط بالحواجز، أخبرنا لماذا لم تتمكنوا من العثور عليه! وجهت إليك هذا السؤال منذ نصف ساعة تقريباً!

أخرج روليتابي ساعته مرة أخرى، وراح يمعن النظر فيها بكل هدوء، ثم قال:  
- سيدي الرئيس، يُمكنك أن تعيد السؤال مراراً وتكراراً طوال الثلاث ساعات والنصف المتبقية، ليس بمقدوري أن أمنحك جواباً شافياً ووافياً بشأن هذه النقطة طالما أن الساعة لم تحل السادسة والنصف!  
لم تضح القاعة، هذه المرة، بمهمات تنم عن السخرية أو خيبة الأمل، فقد شُيد الآن جدار متين من الثقة بين الصحفي الشاب والحاضرين. أما بالنسبة لرئيس المحكمة فقد عزم أن يصغي بإمعان، شأنه كشأن الجميع، لما ييوح به الشاب من أسرار تقشعر لها الأبدان، قائلاً:

- حسناً يا سيد روليتابي، تصرف كما يحلو لك! ولكن لا أود أن أراك مرة أخرى قبل حلول السادسة والنصف!  
انحنى روليتابي مودعاً الرئيس، ثم انطلق نحو قاعة الشهود. ظلت عيناه تجولان باحثتين عني ولكنه لم يراي. ولذلك تسللت بهدوء وسط الحشود الغفيرة التي تطوقني من كل صوب مغادراً قاعة المحكمة، في نفس اللحظة التي انطلق فيها صديقي، عانقي بحجرة، وغمرت أعماقه ببهجة عارمة فور رؤيتي، فقلت له:  
- صديقي العزيز، لن أسألك عن الدافع وراء رحيلك إلى أمريكا، فمن المتوقع أنك ستمنحني نفس الجواب الذي رددته للتو على مسامع رئيس المحكمة: "لن أبوح بشيء قبل حلول الساعة السادسة والنصف".

- لا يا عزيزي سنكلير، سأخبرك بالدافع وراء ذهابي إلى أمريكا، فأنت صديقي الصدوق: توجهت إلى هناك لكي أبحث عن النصف الثاني من اسم القاتل.  
- حقاً! النصف الثاني من اسم القاتل!  
- أجل، عندما غادرنا القصر آخر مرة، كنت على علم بنصف اسم القاتل، ولذلك سافرت إلى أمريكا باحثاً عن النصف الآخر.

في تلك الأثناء، توجهنا إلى قاعة الشهود الذين استقبلوا روليتابي بحفاوة وترحاب شديدين، باستثناء آرثر رانس الذي صافح صديقي ببرود لافت للأنظار. ولج لارسان القاعة ترتسم على ثغره ابتسامة عريضة، ثم صافح روليتابي بودٍ بالغ، وسأله أيضاً عن الدافع وراء رحيله إلى أمريكا. عندئذ جذبه روليتابي من ذراعه بلطف، وراح يقص على مسامعه بعض تفاصيل رحلته المثيرة، استطراداً في حديثهما، وتطرقا لمناقشة أمور تبلغ قدراً كبيراً من الجدية، فانصرفت تاركاً إياهما، بدافع من التقدير

والاحترام، كما أن فضولي الجارف كاد أن يقتلني ودفعني إلى العودة لقاعة المحكمة والاستماع إلى استجواب الشهود، عدت إلى مقعدي، ولاحظت على الفور أن الحاضرين لم يعودوا يعلقوا أهمية كبيرة على ما يدور أمامهم من مشاهد متكررة، ولكنهم باتوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول الساعة السادسة والنصف.

أشارت عقارب الساعة إلى السادسة والنصف، فولج روليتابي قاعة المحكمة مرة أخرى، تعجز الكلمات عن وصف مشاعر القلق والترقب المتأججة في أعماق حشود غفيرة نجح شاب مغمور في خطف أنظارها، حُبست الأنفاس، ونهض السيد روبرت دارزاك عن مقعده، فرأيت بوضوح شحوب وجهه الذي يحاكي شحوب الموتى. التفت الرئيس إلى روليتابي، ثم قال بنبرة ملؤها الجدية:

- سيدي، لن أطلب منك أن تؤدي القسم! فأنت لم تُستدعَ للشهادة وفقاً للإجراءات القانونية المتبعة، ولكن أرجو أن تعي أهمية كل كلمة ستوشك على التفوه بها.

ثم أردف بنبرة يعلوها التهديد:

- أن تعي أهمية هذه الكلمات وتأثيرها عليك، وعلى الآخرين!

لم يحرك روليتابي ساكناً، بل راح يتطلع إلى القاضي قائلاً: "حسناً يا سيدي".

- حسناً، أشرت منذ قليل إلى المربع الصغير الضيق الواقع في الفناء، والذي صار بمثابة مخبأ سري للقاتل، وقطعت لنا وعداً بأن تكشف النقاب بحلول الساعة السادسة والنصف عن الحيلة الماكرة التي لجأ إليها ليفر هارباً من تلك القبعة، بالإضافة إلى أن تذكر لنا اسمه، الساعة الآن السادسة وخمس وثلاثون دقيقة، ولم تخبرنا بشيء!

غرق صديقي في صمت مهيب لم أر مثله طوال حياتي، ثم قال:

- حسناً، يا سيدي، أوضحت لسيادتكم أنه كان من المستحيل أن يفر القاتل هارباً من بقعة صغيرة ضيقة مربعة الشكل مُحاطة بمجموعة من الحفر والأسوار شاهقة الارتفاع دون أن يراه أولئك الذين يفتشون بدأب عنه، يبدو هذا الأمر منطقياً ومقبولاً، وعندما ركضنا مهرولين إلى هناك، كان القاتل برفقتنا.

- وأنت لم تره!

صاح روليتابي: "لقد رأيناه جميعاً! سيدي الرئيس".

- ولماذا لم تتمكن من الإمساك به؟

- لم يكن القاتل معروفاً لأحد سواي، وكان من الضروري ألا أحاول إلقاء القبض عليه في تلك الأثناء! علاوة على أنه لم يكن يجوزني وقتئذٍ دليل يثبت صحة افتراضي سوى قناعتي الشخصية! نعم، قناعتي بأن القاتل توارى هناك وأنا رأيناه بأب عيوننا! كان يلزمني بعض الوقت لأقدم اليوم إلى محكمة الجنايات، دليلاً يتعذر دحضه، وأتعهد بأنه سيروى ظمأ فضول الكثيرين.

- إذن، تكلم! تكلم يا سيدي! وأخبرنا باسم القاتل.

أجاب روليتابي الذي لم يبدو في عجلة من أمره:

- اسم القاتل مدرج حتماً في قائمة أسماء أولئك الذين تجمعوا في البقعة الصغيرة الضيقة الواقعة في نهاية الفناء.

ضجت القاعة بمهممات التأفف والتذمر ونفاد الصبر، وهمس بعض الحاضرين قائلين: "اذكر اسمه! اذكر.. اسمه أيها الشاب!".

أجاب روليتابي بنبرة حادة أثارت حنق الجميع:

- سأستطرد قليلاً في شهادتي يا سيدي، ففي جعبتي العديد من الأسباب التي تدفعني لذلك!

تعالَت صيحات الحشد الغفير: "اذكر اسمه!".

صاح حاجب المحكمة: "الزموا الصمت!".

قال الرئيس: "ينبغي أن تذكر لنا اسم القاتل على الفور يا سيدي! أولئك الذين تجمعوا في البقعة الصغيرة من الفناء هم: أولاً، الحارس الذي فارق الحياة. هل هو المجرم الحقيقي؟

- لا يا سيدي.
- الأب جاك؟
- لا يا سيدي.
- الحارس برنييه؟
- لا.
- السيد سنكلير؟
- لا.
- إذن، فالقاتل هو السيد آرثر وليام رانس؟ لم يتبقَّ سواك والسيد رانس! أنت لم ترتكب جريمة القتل، أليس كذلك؟ بالطبع.
- إذن، تشير بأصابع الاتهام إلى السيد آرثر رانس، أليس كذلك؟
- لا يا سيدي.
- لم أعد أفهم شيئاً! ماذا تود أن تقول؟ لم يتبقَّ أي شخص آخر.
- لا يا سيدي، كان هناك شخص أعلى رؤوسنا، يطل من النافذة، في نهاية الفناء.
- صاح الرئيس مدهوشاً: "فريدريك لارسان!"
- أجاب روليتابي بنبرة جهورية ضخمة: "نعم، فريدريك لارسان!"
- استدار روليتابي ملتفتاً إلى الحشود الغفيرة التي تعالت صيحات اعتراضها، ثم ألقى على مسامعهم هذه الكلمات بنبرة مدوية تفوق الوصف:
- فريدريك لارسان هو القاتل الحقيقي!
- ضجت القاعة المكتظة بالحاضرين بصيحات صاخبة تنم عن الحيرة والذهول والسخط والاستياء، والارتباب، وتفاعل البعض بحماسة مع ردة فعل شاب صغير لديه ما يكفي من الجرأة لتوجيه أصابع الاتهام إلى محقق شرطة حظي بشهرة منقطعة النظير، لم يسع الرئيس لإخماد الضجيج الصاخب الذي اندلع فجأة في القاعة، وفور هدوء الأجواء المفعم بالضجيج، وتحرق البعض شوقاً لسماع المزيد، اتهم روبرت دارزاك ساقطاً على مقعده، وقال بنبرة واضحة تناهت إلى مسامع الجميع:
- هذا مستحيل! لقد أصابه مس من الجنون!
- قال الرئيس: "سيدي، كيف تجرؤ على إلصاق تهمة القتل بفريدريك لارسان! أتدرك العواقب الوخيمة التي ستنتج عن مثل هذه الإدانة، السيد روبرت دارزاك نفسه ينعكس بالجنون! لو لم تكن كذلك، فينبغي أن تزودني ببعض الأدلة.
- ترغب في أن أزودك ببعض الأدلة يا سيدي! حسناً، سأمنحك دليلاً واحداً لا يقبل الجدل. أرجو أن تصدر أمراً باستدعاء فريدريك لارسان!
- أيها الحاجب، استدع السيد فريدريك لارسان.
- ركض الحاجب مهولاً نحو الباب الصغير، ثم فتحه، وتوارى عن الأنظار لبضع دقائق، ظل الباب الصغير مفتوحاً تشخص كل الأبصار نحوه، لاح الحاجب أخيراً، ثم تقدم بضع خطوات، ووقف وسط قاعة المحكمة قائلاً:
- سيدي الرئيس، لم أجد أثراً لفريدريك لارسان، غادر قاعة المحكمة في حوالي الساعة الرابعة، ولم يره أحد بعد ذلك.
- صاح روليتابي بنبرة يكسوها الفخر: "ها هو دليلي يا سيدي!"
- وضح لنا ما تقول، عن أي دليل تتحدث أيها الشاب؟
- دليلي القاطع الذي ينطوي على فرار لارسان هارباً. أقسم لك أنه لن يعود. سيتوارى فريدريك لارسان عن الأنظار إلى الأبد.
- انطلقت همهمات وغمغمات في الجزء الخلفي من القاعة، فتابع الرئيس:

- لو أنك، أيها الشاب، لا تسخر حقاً من العدالة ولا ترغب في تضليلها، فلماذا لم تستغل وجود لارسان في القاعة، وواجهته بالتهمة التي تود أن تلصقها به؟ فعلى الأقل، كان بمقدوره أن يجيب على أسئلتك.

- وهل هناك إجابة أكثر وضوحاً من تلك يا سيدي الرئيس؟ كان من المتوقع ألا ينبس لارسان ببنت شفة! وألا يمنحني جواباً إلى الأبد! أتمته بارتكاب جريمة القتل، ثم لاذ بالفرار! أليست هذه إجابة واضحة وشافية وصریحة على جميع أسئلتني!

- لا أصدق ذلك، ولا أظن أن لارسان، كما تزعم، لاذ بالفرار. لماذا يلوذ بالفرار؟ هل كان على علم بأنك ستشير إليه بأصابع الاتهام؟

- أجل يا سيدي، كان على علم بأنني سأتهمه بارتكاب جريمة القتل، أخبرته بالأمر منذ بضع ساعات.

- كيف تجرؤ على فعل ذلك! تلصق به تهمة القتل، ثم تمنحه فرصة الهروب!

أجاب روليتابي بنبرة ملؤها الفخر: "نعم، سيدي الرئيس، أقدمت على هذه الفعلة لأنني لست عضواً في منظومة القضاء، ولا أنتمي لجهاز الشرطة، ولكنني صحفي مغمور، غير معنيّ بإلقاء القبض على المواطنين! أنا مجرد خادم أسعى لإعلاء راية الحق، هذه رسالتي، وأنتم معنيون بضمان سلامة المجتمع والحفاظ على استقراره، ولكن دوري لا ينطوي على اقتياد شخص إلى منصة الإعدام! لو أنك تؤدي دورك على أكمل وجه سيدي الرئيس - وأنت بالفعل كذلك - ستدرك أنني أؤدي دوري على أكمل وجه! ألم أخبرك منذ قليل أنه ليس باستطاعتي اطلاعك على اسم القاتل قبل حلول الساعة السادسة والنصف؟ أدركت أنه لا يزال هناك متسع من الوقت لتحذير فردريك لارسان، والسماح له باستقلال قطار الساعة الرابعة وسبعة عشر دقيقة المتجه إلى باريس، ليصل إلى بر الأمان، ويغدو بمنأى عن أي خطر يحدق به، ساعة للوصول إلى باريس، وساعة وربع أخرى ليتمكن من طمس أية آثار يتركها وراءه، وهذا ما قادنا إلى الساعة السادسة والنصف".

راح روليتابي يحدق في وجه السيد روبرت دارزاك مردفاً:

- لن تتمكن من العثور على لارسان يا سيدي، فهو رجل يتسم بالخبث والمكر والدهاء، لارسان هو الرجل الذي استعصى عليك الإمساك به، والذي ظللت تلاحقه لفترة طويلة دون جدوى، ربما لا يفوقني ذكاء وفطنة، بيد أنه أكثر دهاءً من جميع المحققين في شتى بقاع الأرض، فهو الرجل الداهية الذي نجح منذ أربع سنوات في اختراق جهاز الأمن، والذي نال شهرة واسعة منتحلاً اسم فريدريك لارسان، إنه الوجه الآخر لرجل متطير الشهرة يدعى بالمير.

صاح الرئيس مذهولاً: "بالمير".

أجاب روبرت دارزاك، وهو ينهض عن مقعده: "أجل يا سيدي، بالمير، هذا صحيح!".

- أوه! سيد دارزاك، لقد نعتني بالجنون منذ قليل، وها أنت تشاطريني الرأي، وتثبت أنني لأزال في كامل قواي العقلية.

ترددت أصدا هذا الاسم في شتى أرجاء القاعة: "بالمير! بالمير! بالمير"، وللتو أصدر الرئيس قراراً بتعليق الجلسة.

أزيح الستار أخيراً عن هوية الرجل الداهية "بالمير"، الرجل الذي انتشرت شائعة وفاته قبل بضعة أسابيع، كانتشار النار في الهشيم. اعتاد بالمير منذ ريعان شبابه، الهروب من الفخاخ التي نصبتها له الشرطة بإحكام. هل من الضروري أن أُلقي بالضوء على مغامراته المثيرة؟ تلك المغامرات التي دونت في سجلات القضاء وتصدرت صفحات الجرائد على مدى عشرين عاماً، ولو أن بعض قرائي تناسوا سهواً قضية "الغرفة الصفراء"، فلا شك أن اسم "بالمير" لا يزال محفوراً في ثنايا ذاكرتهم.

بالمير هو أحد أولئك المحتالين الذين اندسوا وسط صفوة المجتمع الراقي، فهو شخص يتمتع بصفات الشهامة والنبيل والود، رجل يتسم بالجرأة والجسارة، ولا أحد يضاهيه في المكر، تسلل بالمير إلى المجتمع الراقي، وأجاد سلب أمجاد أشهر العائلات، وأموال أعظم المقامرين بمهارة لا تضاهى. وعندما مر بأوقات عصيبة لم يتردد في توجيه الطعنات النافذة لمن يعترض طريقه، سواء بخنجره الحاد أو بعظمة الخروف. عقب السقوط في قبضة العدالة، نجح في الفرار هارباً صباح يوم جلسة المحاكمة عبر إلقاء مسحوق الفلفل الحار في أعين الحراس الذين اقتادوه إلى محكمة الجنايات.

علمنا لاحقاً أنه يوم هروبه من السجن، بينما راح يتعقبه خيرة رجال الشرطة السرية، توجه بكل هدوء لحضور العرض الأول لإحدى المسرحيات دون اللجوء إلى ارتداء أية أقنعة. ثم غادر فرنسا عازماً العمل في أمريكا. ذات يوم، نجحت

شرطة ولاية أوهايو في إلقاء القبض على اللص الخارق، بيد أنه تمكن من الفرار هارباً في اليوم التالي. يعوزنا كثير من الوقت للخوض في حديث مفصل بشأن بالماير، الوجه الآخر لفريدريك لارسان! كان الصحفي الشاب روليتابي هو من نجح في كشف النقاب عن هوية هذا الشيطان الماكر! وهو أيضاً من كان على علم بتاريخه الأسود المشين، ومنحه فرصة الهروب ليهزأ من مجتمعنا المتعجرف! وليس بوسعي الآن سوى إبداء إعجابي بالشاب روليتابي الذي انتوى منح السيد دارزاك والأنسة ستانجرسون طوق النجاة؛ عازماً أن يخلصهما من براثن لص عاتٍ في الإجرام دون الإفصاح عن هويته. استؤنفت الجلسة، وتناهى إلى مسامعي صوت بعض الأشخاص نافدي الصبر، والذين يبدون في عجلة من أمرهم، يصبحون قائلين:

- دعونا نفترض أن لارسان هو المجرم الحقيقي، ولكن هناك سؤالاً ملحاً يطرح نفسه الآن: كيف تمكن من مغادرة الغرفة الصفراء؟

أستدعي روليتابي على الفور ليخضع للاستجواب، فقال الرئيس:

- سيد روليتابي، ذكرت من قبل أنه من المستحيل أن يفر القاتل هارباً من بقعة صغيرة ضيقة مربعة الشكل مُحاطة بمجموعة من الحفر والأسوار شاهقة تقع في نهاية الفناء، وأنا أشاطرك الرأي بشأن هذه الفكرة، وأصدق أن لارسان كان يطل من النافذة، أعلى رؤوسكم. ولكن بما أنه الفاعل الأصلي للجريمة، فلا شك أنه ظل قابلاً في نهاية الفناء، فكيف، إذن، استطاع أن يتوارى عن الأنظار، ويغادر نهاية الفناء، ثم يصعد إلى الطابق العلوي ويطل من إحدى النوافذ؟

- قلت أنه من المستحيل على القاتل أن يفر هارباً "بشكل طبيعي أو مألوف" من نهاية الفناء، ولكنه هرب بطريقة غير مألوفة، فنهاية الفناء كما أوضحت آنفاً بدت شبه مغلقة، في حين أن جميع منافذ الغرفة الصفراء كانت موصدة بإحكام، كان بمقدوره لارسان أن يتسلق الجدار، وهو أمر مستحيل بالنسبة "للغرفة الصفراء"، أو يقفز إلى داخل الشرفة، ومن هناك بينما نحن منكبون على تفحص جثة الحارس، تسلل إلى القاعة عبر النافذة التي تبرز أعلاه، لم يكن لدى لارسان خيار آخر سوى التسلل بأقصى سرعة ممكنة، قاصداً غرفته، ثم فتح نافذته، ومخاطبتنا متطلعاً عبرها، مجرد لعبة بهلوانية ماهرة اعتاد بالماير أن يلجأ إليها. وإليك، سيدي الرئيس، الدليل القاطع على صحة أقوالي. وعندئذ، أخرج روليتابي من جيب سترته علبة صغيرة، ثم أخرج منها وتدّاً حديدياً، وأردف قائلاً:

- سيدي الرئيس، ها هو وتد حديدي يتوافق قطره تماماً مع ثقب عُثر عليه في النتوء الحجري الأيمن الداعم للشرفة المقوسة البارزة عن البناء. أقدم لارسان الذي توقع كل شيء، ودبر خطة محكمة للوصول إلى غرفته على غرز الوند الحديدي مُسبقاً في النتوء الحجري الداعم للشرفة، وضع إحدى قدميه على الحاجز المتاخم لزاوية القصر، ثم وضع القدم الأخرى على الوند الحديدي، أحكم قبضته متشبثاً بإفريز باب الحارس، ثم أمسك بيده الأخرى حاجز الشرفة، وهكذا تمكن من الصعود لأعلى، والتواري عن الأنظار.

في تلك الليلة، أوهنا لارسان أنه غط في سبات عميق واقعاً ضحية للمادة المنومة. لجأ لحيلة شيطانية ماهرة دبرها بمهارة لا تُضاهى، ونجح في التلاعب بنا جميعاً. وعندما وقعت بدوري ضحية للمادة المنومة، صار لارسان بمنأى عن أية شبهات، وحامت كل الشكوك حول أشخاص آخرين، لو لم أغط في نوم عميق، لكان من المستحيل أن يتسلل لارسان إلى غرفة الأنسة ستانجرسون، وكان من السهل أيضاً منع وقوع جريمة متهورة حمقاء!

تناهى إلى مسامع الحاضرين صوت تأوه ونواح، لم يبقَ السيد روبرت دارزاك على كبح جماح أنينه الموجه، أردف روليتابي:

- أدرك لارسان أن استغراقه في نوم عميق هو الحل الأمثل لكي يصل ويجول كما يشاء عازماً على تنفيذ مخططه الشيطاني المعد مسبقاً، فقد كان على علم بأنني سأظل مستيقظاً طوال الليل منتظراً قدوم المجرم! لا شك أنه لم يصدق لوهلة أن شكوكي ربما ستحوم حوله! ولكنني أعلم في أي وقت بالضبط غادر لارسان غرفته متوجهاً إلى غرفة الأنسة ستانجرسون. فعندما كنت مستغرقاً في سبات عميق بين جدران غرفتي، استغل لارسان انشغال صديقي سنكلير بإيقاظي، ثم تسلل إلى غرفتها، وبعد مرور عشر دقائق، دوت صرخات الأنسة ستانجرسون في الأجواء.

سأل الرئيس: "كيف ساورتك الشكوك بشأن فريدريك لارسان؟".

- شعرت بجدس يدفعني إلى مراقبة ردود أفعاله عن كثب، ولكنني كنت لأزال بحاجة إلى دليل ملموس، عقب وقوع حادث "القاعة المكتنفة بالغموض"، أبرز اليأس أنيابه وراح ينشب محالبه في أحشائي، فانكببت على الأرض متفحصاً الآثار الملموسة المضللة، ثم نهضت عن مكاني فجأة، وأدركت أنها لا تتوافق مع الدائرة التي رسمتها في عقلي، فتوجهت على الفور إلى القاعة.

وهناك أدركت جلياً أن المجرم الذي تعقبناه لم يكن بمقدوره مهما بذل من جهد، أن يفر هارباً من القاعة، بشكل طبيعي مألوف أو بشكل خارق للطبيعة. ولذلك أدرجت معضلي في إطار الدائرة التي تشكلت ملاحمها في ذهني، وحول هذه الدائرة، أودعت هذه العبارة المتوهجة ببريق أخاذ: "طالما أن المجرم بأي شكل من الأشكال ليس خارج الدائرة، فمن المنطقي أنه ظل داخل إطارها". إذن، من هم الأشخاص الذي ينبغي أن يدرجهم العقل في إطار هذه الدائرة؟ بخلاف المجرم المدرج حتماً في إطار الدائرة: الأب جاك، والسيد ستانجرسون، وفريدريك لارسان، وجوزيف روليتابي، خمسة أشخاص من بينهم القاتل، ولكن حين نتفحص بإمعان هذه الدائرة، والتي أقصد بها هنا (القاعة)، بما يلائم الواقع الملموس، لن نرى سوى أربعة أشخاص، ويتضح جلياً أن الشخص الخامس (المجرم) ليس بمقدوره الفرار هارباً، أو الخروج عن إطار الدائرة! إذن، لدينا هنا داخل إطار الدائرة شخصية مزدوجة، شخصية ظلت معروفة للجميع، ومثلت الوجه الآخر للمجرم الحقيقي! لماذا لم تطرأ هذه الفكرة على ذهني للتو؟ لأن ظاهرة ازدواج الشخصية بدت من وجهة نظري ضرباً من ضروب المستحيل، من بين الأشخاص الأربعة المحصورين في إطار الدائرة، أي شخص إذن بمقدوره ارتداء قناع القاتل دون أن تلمحه عيناى؟ لا شك أن الشخص المعني ليس أحد الأشخاص الذين شرعوا في مطاردة المجرم.

في الواقع، أثناء مطاردة القاتل، لم أرَ في نفس اللحظة سوى السيد ستانجرسون والمجرم، والأب جاك والمجرم. إذن، فمن البديهي أن المجرم ليس بأيّة حال من الأحوال السيد ستانجرسون أو الأب جاك أو أنا! والسؤال الملح الذي يطرح نفسه الآن هو: "هل أبصرت عيناى، في نفس اللحظة، فريدريك لارسان والمجرم؟" لا! لا! غاب المجرم عن ناظريّ لمدة ثانيتين. بلغ المجرم مفترق القاعتين، وفقاً لما أشرت إليه في مذكراتي، قبل وصولي ووصول الأب جاك والسيد ستانجرسون بثانيتين فقط، هاتان الثانيتان كانتا كافيتين لكي يشق المجرم طريقه قاصداً القاعة الدائرية، ويزيل في لمح البصر اللحية المستعارة، ثم يستدير مصطدماً بنا، زاعماً أنه يطارد القاتل! بالماير شخص حاذق في تدبير المكائد والحيل، واعتاد أن يتلاعب بالجميع بمهارة لا تُضاهى! بارع في التخفي وراء شتى الأقنعة وتبديل ملامح الوجه، فتارة يظهر للآنسة ستانجرسون بلحية صهباء، وتارة يتنكر في هيئة موظف مكتب البريد ذي اللحية الدائرية فيحمل نفس أوصاف السيد دارزاك!

أثار هذا الاكتشاف الصادم ذهولي، وسعيت جاهداً أن ألملم شتات نفسي المبعثرة، وأستفيق من دهشتي، منكباً على تفحص الآثار الملموسة، والظواهر البارزة التي ظلت، حتى ذلك الحين، تضللي وتغشي بصيرتي، والتي كان من الضروري أن أدرجها في إطار الدائرة التي رسمها عقلي!

أولاً، وقبل أي شيء، ما العلامات والظواهر الخارجية البارزة التي قادني، في تلك الليلة، للاعتقاد بأن فريدريك لارسان بعيد كل البعد عن أن يكون الوجه الآخر للقاتل:

1- رأيت بأم عيني الزائر الغريب في حجرة الآنسة ستانجرسون، وعندما ركضت مهولاً إلى غرفة لارسان، أبصرت المحقق الشهير يفتح الباب مدهوشاً منتفخ العينين.

2- الدرج الخشبي.

3- أمرت السيد لارسان بالتمركز في نهاية القاعة الدائرية وأخبرته أنني سأقفز إلى داخل غرفة الآنسة ستانجرسون عاجزاً إلقاء القبض على القاتل. وعندما عدت أدراجي، رأيت الزائر الغريب لا يزال ماکناً بين جدران الغرفة.

العلامة الخارجية الأولى لم تشكل مصدر إزعاج كبير، فمن المحتمل أن الزائر الغريب (المجرم) الذي رأيته جالساً بين جدران غرفة الآنسة ستانجرسون أنهى مهمته التي جاء من أجلها فور انتهائي من هبوط الدرج. ولذلك، أثناء عودتي إلى القصر، انطلق فريدريك لارسان (الزائر الغريب) مهولاً إلى غرفة نومه، ثم خلع ثيابه على عجل، وحينما جثت لكي أطرق باب غرفته، تظاهر بأنه استيقظ للتو من سبات عميق.

العلامة الخارجية الثانية (الدرج) لم تشكل أيضاً مصدر إزعاج كبير، فمن الواضح أن المجرم لارسان لم يكن بحاجة إلى درج ليتمكن من التسلل إلى داخل القصر، طالما أن غرفته تقع بجوار غرفتي، ولكنه لجأ لحيلة الدرج ليقنع الجميع بأن المجرم جاء متسللاً من الخارج، وقد نجح بالفعل في إثارة الشكوك والشبهات حول دارزك الذي لم يبت تلك الليلة بين جدران القصر. علي أية حال، ربما لجأ لارسان لوضع هذا الدرج لتسهيل عملية هروبه.

ولكن العلامة الخارجية الثالثة أربكت جميع حساباتي وأقضت مضجعي، فبعدما التمسست من السيد لارسان التمرکز في نهاية القاعة الدائرية، لم أجد تفسيراً مقنعاً لأن يغتنم هذا الماكر فرصة توجهي إلى الجناح الأيسر للقصر واستدعائي للسيد ستانجرسون والأب جاك، عازماً العودة إلى غرفة الأنسة ستانجرسون! يا له من تصرف أهوج ومخوف بالمخاطر! لقد جازف بالفعل بأن يلقى القبض عليه، كان لارسان على علم بأنه يقترب مجازفة منهورة مخوفة بالمخاطر! كاد أن يقع في قبضتي، لم يكن لديه متسع من الوقت ليعود أدراجه ويتمركز في موقعه، لابد أن هناك سبباً مُلحاً دعاه فجأة للعودة إلى الغرفة عقب مغادرتي، وإلا لما أعطاني مسدسه! عندما أمرت الأب جاك بالتمركز في نهاية القاعة اليمنى، كنت على يقين بأن لارسان لا يزال متمركزاً في موقعه في نهاية القاعة الدائرية، كما أن الأب جاك غير المزود بأية تفاصيل من قبلي حينما شق طريقه قاصداً موقعه ومجتازاً تقاطع القاعتين، لم يعر أي اهتمام لأن هناك شخصاً آخر مكلفاً بالتمركز في نهاية القاعة الدائرية، وانصب جل اهتمامه على تنفيذ أوامري في أسرع وقت ممكن. ما السبب الملح الخفي الذي دفع لارسان للعودة فجأة إلى غرفة الأنسة؟ هل أراد طمس الآثار التي خلفها وراءه؟ هل نسي شيئاً يبلغ قدراً كبيراً من الأهمية في الغرفة؟ لماذا؟ لاحت في ذاكرتي صورة الشمعة المضئمة المثبتة في أرضية الغرفة والزائر الغريب المحني قليلاً نحو الأرض، التمسست من السيدة برنييه التي اعتادت تنظيف غرفة الأنسة ستانجرسون أن تتفحص كل شبر في الغرفة، وقد عثرت أخيراً على نظارة أنفية، ها هي يا سيدي الرئيس!

عندما عثرت على هذه النظارة تملكنتي الحيرة والذهول، لم أرَ لارسان قط يرتدي نظارة أنفية، ولأنه لم يعتد ارتداؤها فهذا دليل قاطع بأنه لم يكن يوماً بحاجة إليها، ربما استغلها لبرهة من الوقت لإنجاز مهمة ذات معايير محددة. ماذا تعني هذه النظارة؟ لم أدرجها في إطار الدائرة التي تشكلت ملامحها في ذهني. رحت أحملق فيها مدهوشاً، ثم صحت فجأة: "ولكنها نظارة أنفية مصممة لعلاج طول النظر!" في الواقع، لم أرَ لارسان يقرأ أو يكتب قط، ولذلك من المحتمل أن يكون مصاباً بمدّ البصر! وقد شاع بين رجال الأمن أن لارسان (بالمالير) مُصاب حقاً بمدّ البصر، إذن فلا شك أنه يرتدي نظارة مصممة لعلاج طول النظر، وها هي قد عُثِر عليها أخيراً بين جدران غرفة الأنسة ستانجرسون، وفور أن تزايد لغز القاعة المحير غموضاً وتعقيداً، بات الخطر يحدق به ويدهامه من كل حذب وصوب! وهذا يفسر سر عودة لارسان إلى غرفة الأنسة ستانجرسون!

تلك هي المنهجية التي تبنيها يا سيدي الرئيس، والتي تنطوي على عدم الاعتماد بشكل مطلق على ظواهر وعلامات خارجية سعياً وراء فك الطلاسم والألغاز التي تكتنف الحقيقة، ولكنني بذلت قصارى جهدي لتطويع هذه الظواهر كي تتماشى مع الحقائق التي تشكلت ملامحها مسبقاً في عقلي. سأل الرئيس مذهولاً: "ولكن، ما الدافع الخفي وراء تسلل لارسان إلى غرفة الأنسة ستانجرسون؟ ولماذا يُقدم على إنهاء حياتها مرتين متتاليتين؟".

- لأنه يهيم بها عشقاً سيدي الرئيس.
- من الواضح أن هناك سبباً آخر.
- سيدي الرئيس، السبب الذي ذكرته مقنع للغاية وقاطع لا يقبل الجدل، أغرم بها إلى حد الجنون، ولهذا السبب، بالإضافة إلى عدة أشياء أخرى، تجرأ مرتكباً جميع هذه الجرائم.
- هل كانت الأنسة ستانجرسون على علم بذلك؟
- نعم يا سيدي، ولكنها لم تكن تعلم دون أدنى شك أن الشخص الذي يلاحقها هو فريدريك لارسان، وإلا لما جاء لارسان ليقيم معنا في القصر، وولج برفقتنا إلى غرفة الأنسة ستانجرسون للاطمئنان على صحتها بعد وقوع حادث القاعة

المكتنفة بالغموض. في تلك الليلة لاحظت أن لارسان بقي لا يحرك ساكناً، محني الرأس في بقعة مظلمة من غرفة الأنسة ستانجرسون، لا شك أن عينيه ظلنا تجولان باحثتين عن النظارة المفقودة، كان لزاماً على الأنسة ستانجرسون أن تتكبد عناء ملاحظات وهجمات لارسان الذي انتحل العديد من الأسماء وتكرر في هيئة مجهولة للجميع، ولكنها معروفة للأنسة ستانجرسون.

التفت الرئيس نحو السيد دارزاك سائلاً إياه:

- وماذا عنك يا سيد دارزاك؟ ربما باحث لك الأنسة ستانجرسون ببعض الأسرار المتعلقة بهذا الأمر الخطير، لماذا لم تجرؤ الأنسة على إخبار أحد بأمر المجرم سافك الدماء الذي ظل يلاحقها؟ كان من السهل اقتفاء أثره وإلقاء القبض عليه، وبما أنك بريء، لماذا تعمدت تجرع مرارة الصاق التهم بك، واحدة تلو الأخرى؟

أجاب السيد دارزاك: "الأنسة ستانجرسون لم تخبرني بأي شيء".

- هل الأقوال التي أدلى بها الصحفي الشاب تبدو مقبولة ومنطقية من وجهة نظرك؟

أجاب السيد دارزاك برباطة جأش: "الأنسة ستانجرسون لم تخبرني بأي شيء".

ثم عاد رئيس المحكمة ملتفتاً نحو روليتاي، واستطرد قائلاً:

- إذن، ما تفسيرك للغز إعادة المستندات والأوراق المسروقة إلى السيد ستانجرسون ليلة اغتيال الحارس؟ وكيف تمكن القاتل من اختراق غرفة الأنسة ستانجرسون الموصد بابها بإحكام؟

- أوه! من السهل أن أمنحك جواباً وافياً وشفافاً بشأن سؤالك الأخير، فمن الواضح أن مجرمًا محترفاً كالملاير استطاع أن يحصل بسهولة على المفاتيح التي يحتاجها أو صنع بضع نسخ منها، أما بالنسبة لسؤالك الأول، والذي يتعلق بسرقة الأوراق والمستندات، فيحدوني الاعتقاد بأن لارسان لم يخطط لهذا الأمر في البداية. لقد عزم المجرم المغرم بالأنسة ستانجرسون أن يترصدها ويلاحقها أينما حلّت، وسعى بأية وسيلة ومهما كلفه الأمر، أن يعيق إتمام زواجها من السيد روبرت دارزاك، فراح يتعقبها يوماً ما في أحد المتاجر الكبرى بمنطقة "لا لوف"، حينما كانت برفقة خطيبها، ثم نجح في الاستيلاء على حقيبة يدها المصنوعة من الستان الأسود، وتمكن من العثور على مفتاح ذي رأس نحاسي داخل الحقيبة المفقودة، أو التي توهمت الأنسة ستانجرسون أنها فقدت، بيد أنه لم يدرك قيمة المفتاح الذي وُصف بدقة في الإعلان المنشور من قبل الأنسة ستانجرسون في إحدى الصحف.

وسرعان ما كتب خطاباً إلى الأنسة ستانجرسون أودعه في مكتب البريد رقم 40 المشار إليه في الإعلان. ومن المحتمل أنه التمس من الأنسة ستانجرسون أن تقابله، وصرح لها بأن الشخص الذي يرسلها هو المتيم بها عشقاً والذي يلاحقها منذ فترة من الوقت، وهو أيضاً من مجوزته المفتاح والحقيبة، لم يتلقَ أي رد من جانبها، فانطلق متوجهاً إلى مكتب البريد رقم 40 للتحقق من أمر الخطاب، بعد أن تنكر بالطبع في هيئة السيد دارزاك، لأنه عقد العزم على خوض معركة ضارية، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول على الأنسة ستانجرسون، ولذلك دبر مكيدته ورسم خطته بمهارة لا تضاهي لكي يغدو السيد دارزاك المعشوق الأول والأخير للأنسة ستانجرسون، والذي أبغضه لارسان أشد البغض، وأراد أن يلحق به الأذى، في نظر الجميع الجاني الفعلي لجميع الجرائم التي ارتكبت.

ولكن يحدوني الاعتقاد بأن لارسان لم يجل بمخيلته قط أن الأمور ستؤول إلى سلسلة من الأحداث المأساوية، بيد أنه في جميع الأحوال، اتخذ كل ما يلزم من احتياطات لكي يتلاعب بالأنسة ستانجرسون ويضللها متقنعاً بقناع السيد دارزاك، وقد شاء القدر أن يمنحه قامة تقارب قامة دارزاك، وأن تتساوى أطوال أقدامهما. كان من السهل عليه إذا لزم الأمر أن يصنع نعلًا يتطابق مع آثار أقدام السيد دارزاك، ثم يرتديه وقتما يشاء، هذه مجرد خدع طفولية اعتاد لارسان بالملاير أن يلجأ إليها. إذن، لم يتلقَ لارسان أي رد، وضاع حلم الموعد الغرامي المنشود، ولكن لا يزال المفتاح الصغير بالغ الأهمية قابلاً في جيب سترته. حسناً، بما أن الأنسة ستانجرسون لم تستجب لرغبته ولم تجيء للقاءه، سيبادر بالذهاب إليها! لقد حاك لارسان مؤامره ببراعة استثنائية منذ فترة من الوقت. نجح في تزويد نفسه بأكبر قدر ممكن من المعلومات بشأن قصر جلاندييه والجناح. وبعد ظهر أحد الأيام عندما كانت الأنسة تنتزه برفقة أبنائها، وفور أن غادر الأب جاك الجناح، نجح في التسلل

إلى الداخل عبر نافذة الردهة. ظل بمفرده لفترة طويلة من الوقت، ثم تسلل الملل والضجر إلى أعماقه، راح يتطلع إلى الأثاث متفحصاً إياه، وقعت عيناه فجأة على خزانة حديدية مثيرة للفضول مزودة بقفل صغير للغاية. حسناً! حسناً! هذا الشيء مثير حقاً للاهتمام، فمفتاح الخزانة ذو الرأس النحاسي لا يزال في قابعاً في جيبه، استغرق في تفكير عميق، تشابكت الأفكار وتداخلت مع بعضها البعض، وضع المفتاح في القفل، ثم أداره، نجح الأمر، وفُتح باب الخزانة، أبصر كومة من الأوراق! لاشك أن المستندات والأوراق تبلغ قدراً كبيراً من الأهمية، فقد حُبِثت في خزانة حديدية مزودة بقفل، وقد علقت الأنسة ستانجرسون أهمية كبيرة على هذا المفتاح المميز ذي الرأس النحاسي. من الممكن أن يُستغل كورقة رابحة لا يتزاهها، سيغدو عنصراً لا غنى عنه في تحقيق أغراضه الدنيئة، وسرعان ما حزم الأوراق وأعد طرماً ثم وضعه على عتبة مرحاض الردهة، كان لديه متسع من الوقت لإلقاء نظرة متفحصة على الأوراق وإدراك قيمتها. ماذا سيفعل بأوراق مثل هذه؟ ستجعله عرضة للخطر. في إحدى الليالي أعاد جميع الأوراق إلى القصر، ربما تطلع إلى إعادة الأوراق التي تمثل خلاصة عشرين عاماً من العمل الدؤوب وتقديراً وعرفاناً لما بذلته الأنسة من جهود حثيثة طوال حياتها، كل شيء ممكن، ويصعب معرفة ما يدور في رأس هذا الأفعوان! في نهاية المطاف، أياً كان السبب، فقد أعاد الأوراق وتخلص منها تماماً!

أطلق روليتاي سعالاً خفيفاً مكتوماً أدركت فحواه للتو، من الواضح أن الشعور بالحرج الذي اتباه بغتة توارت خلفه رغبة ملحة في عدم الإفصاح عن الدافع الحقيقي الكامن وراء ردة فعل لارسان المثيرة للفضول إزاء الأنسة ستانجرسون. عندئذ، صاح صديقي قائلاً:

- آن الأوان لفك طلاسم لغز الغرفة الصفراء.

علا الضجيج في القاعة فجأة، ثم خمدت جميع الأصوات، فقد بلغ الفضول ذروته. قال الرئيس:

- ولكن، وفقاً لفرضيتك يا سيد روليتاي، يحدوني الاعتقاد بأن لغز الغرفة الصفراء قد فُكَّت جميع طلاسمه، فقد قدم لارسان تفسيراً واضحاً ومنطقياً أزال الغموض عن اللغز، باستثناء لجوئه إلى تضليل العدالة وإزالة التهمة عن نفسه ملصقاً إياها بالسيد روبرت دارزاك. من الواضح أن باب الغرفة الصفراء فُتح عندما كان السيد ستانجرسون بمفرده، وأن البروفيسور ترك المجرم (بالمير) يفر هارباً من الغرفة دون أن يحاول التصدي له، بالرغم من توسلات ابنته المتكررة، تفادياً لاندلاع أية فضائح!

اعترض روليتاي بنبرة حادة قائلاً:

- لا يا سيدي الرئيس، يبدو أنك نسيت أن الأنسة ستانجرسون الفاقدة للوعي لم تكن قادرة على إطلاق التوسلات المسترحة، ولم يكن باستطاعتها إغلاق باب غرفتها سواء بالمزلاج أو بالقفل، ومن الواضح أنك نسيت أن السيد ستانجرسون أقسم بحياة ابنته الراقدة آنذاك بين الحياة والموت مُصرحاً بأن الباب لم يُفتح بأي شكل من الأشكال!

- ولكن يا سيدي، لا تمتلك سوى هذه المنهجية لتفسير الأمور المبهمة! ظلت الغرفة الصفراء موصدة بإحكام كخزنة من الفولاذ، ودعني أقتبس هذه العبارة التي رددتها على مسامعي منذ قليل: "كان من المستحيل على المجرم أن يفر بشكل طبيعي مألوف أو بشكل خارق للطبيعة"، عندما فُتح الباب، لم يجدوا أثراً لأي شخص، ولذلك فمن البديهي أن المجرم لاذ بالفرار!

- لم يكن هذا الأمر مُجدياً على الإطلاق يا سيدي الرئيس.

- ماذا تقصد؟

- لم يكن المجرم بحاجة للهروب، لأنه لم يكن محتبئاً بين جدران الغرفة!

عجت القاعة بمهمات مدهوشة.

- ماذا، لم يكن محتبئاً بين جدران الغرفة؟

- بكل تأكيد يا سيدي، لم يكن داخل الغرفة!

اعترض الرئيس قائلاً: "وماذا عن الآثار التي خلفها وراءه؟".

- وفقاً لما يملحه العقل، يمكن الجزم بأن المجرم، منذ اللحظة التي أوصدت فيها الأنسة ستانجرسون باب غرفتها على نفسها

إلى أن فُتح عنوة، بات من المتعذر عليه الفرار هارباً، وما أننا لم نعثر عليه بين جدران الغرفة، فمن المنطقي أنه لم يكن محتبئاً هناك منذ إغلاق الباب وحتى لحظة تحطيمه عنوة.

- وماذا عن الآثار؟

- مهلاً سيدي الرئيس، دعنا نلقي نظرة متفحصة على هذه الآثار التي عرفناها بناءً على ما دَوّن في ملف القضية، وسنرى ما إذا كانت تتوافق أم تتعارض مع وجهة النظر المتبناة.

عقب اطلاعي على المقال المنشور في جريدة الصباح، والحوار الذي دار بيني وبين قاضي التحقيق في طريقي إلى بلدة "إيناي سير أوج"، تبين بالدليل القاطع أن الغرفة الصفراء ظلت موصدة بإحكام، وأن المجرم تسلل إلى هناك، وتوارى في أحد الأركان قبل ولوج الأنسة إلى غرفتها قبل حلول منتصف الليل. في الواقع، لم يكن بمقدوري إدراج هذه الآثار المثيرة للجدل في إطار الدائرة التي تشكلت ملامحها في ذهني. لم تُقدم الأنسة ستانجرسون دون أدنى شك على قتل نفسها، وهذه الآثار خير دليل على عدم وقوع حادث انتحار. ولذلك يبدو جلياً أن المجرم جاء قبل الليلة المشؤومة! فهناك سؤال يطرح نفسه: لماذا لم يقع حادث الاعتداء إلا حينما أغلقت الأنسة باب الغرفة على نفسها؟ أو بالأحرى لماذا بدت وكأنها تتعرض لحادث اغتيال عقب إحصاء الباب بإحكام؟ وبطبيعة الحال كان لزاماً عليّ إعادة صياغة القضية بناءً على مرحلتين، أو فترتين مختلفتين عن بعضهما البعض تفصل بينهما بضع ساعات: المرحلة الأولى والتي تنطوي على محاولة اغتيال الأنسة ستانجرسون، وقد نجحت الشابة البائسة بالفعل في إبقاء الأمر طي الكتمان؛ أما المرحلة الثانية فقد أعقبت تعرضها لكابوس مفرع، فظن والدها والأب جاك الرابضين في المختبر أنها وقعت ضحية لجريمة قتل!

عندئذ، لم أكن قد عاينت الغرفة الصفراء بعد. ماذا عن الجروح التي أدمت جسد الأنسة ستانجرسون؟ آثار الخنق حول العنق والجرح الغائر في صدغها الذي كاد أن يودي بحياتها. لم تُشكل آثار الخنق مصدر إزعاج كبير بالنسبة لي، فربما تعرضت الأنسة لاعتداء وحشي قبل هذه الليلة المشؤومة، وأخفت آثار الجروح أسفل ياقة رداؤها، أو أي شيء من هذا القبيل! فمنذ شروعي في إعادة صياغة ملامح القضية، اضطرت إلى تقسيمها إلى مرحلتين منفصلتين، وكان لزاماً عليّ إقناع نفسي بأن الأنسة ستانجرسون نجحت بالفعل في إخفاء جميع أحداث المرحلة الأولى، لأسباب قهرية، فهي لم تبج بأي شيء لوالدها، وبطبيعة الحال كان لزاماً عليها إخبار قاضي التحقيق بتفاصيل الاعتداء الغاشم الذي تعرضت له، مدعية أن الهجوم الذي شن عليها وقع ليلاً، أثناء المرحلة الثانية! كانت مجبرة على اللجوء إلى إحدى الحيل، وإلا لصاح أبوها في وجهها قائلاً: "ما الذي تخفيه عنا يا ابنتي؟ وماذا يعني صمتك المطبق بعد وقوع مثل هذا الاعتداء؟".

وهكذا عمدت الأنسة ستانجرسون إلى إخفاء آثار يد المجرم حول عنقها، ولكن ظلت آثار الجرح الغائر واضحة على صدغها الأيمن! أربكت ردة فعلها المبهمة تفكيري! ولا سيما فور أن تنامي إلى علمي خبر العثور على عظمة خروف في غرفتها وهي سلاح الجريمة، لم يكن بمقدورها إخفاء حقيقة تلقي ضربة مبرحة على صدغها الأيمن، ومع ذلك، من الواضح أنها أصيبت بالجرح الغائر أثناء المرحلة الأولى طالما أن الأمر تطلب وجود المجرم! جال في خلدي أن الجرح الذي أصاب الأنسة في صدغها الأيمن كان أقل حدة مما أشيع وقد جانبني الصواب في تصوري، وظننت أنها نجحت في إخفائه وراء شعرها!

أما فيما يتعلق بآثار يد المجرم على الجدار، فمن الواضح أنها لطخت الجدار قبل الليلة المشؤومة، أي خلال المرحلة الأولى، عندما اعتدى المجرم على الأنسة في غرفتها! فمن المنطقي أن جميع الآثار التي خلفها المجرم وراءه ظهرت بوضوح أثناء المرحلة الأولى: عظمة الخروف، الآثار السوداء التي خلفها نعلي القتال، الدماء التي لطخت الجدار والأرض والباب، ظلت هذه الآثار واضحة كوضوح الشمس في كبد السماء، ويبدو أن الأنسة ستانجرسون التي سعت جاهدة لكتمان الأمر لم يكن لديها متسع من الوقت لإخفائها! الأمر الذي دفعني للاعتقاد بأن الوقت الفاصل بين المرحلتين لا يتعدى بضع ساعات. إذن، بعد المرحلة الأولى، أي بعد هروب القتال، سرعان ما عادت الأنسة أدراجها إلى المختبر، حيث أبصرت والدها منكباً على العمل، ولو كان بمقدورها العودة مرة أخرى إلى غرفتها لبضعت لحظات، لما ترددت في إخفاء عظمة الخروف والقبعة والمنديل الملقيين على الأرض، لكنها لم تجرؤ على فعل ذلك لأن والدها ظل برفقتها. ولذلك، لم تعد الأنسة إلى غرفتها إلا

بحلول منتصف الليل.

حضر الأب جاك في الساعة العاشرة مساءً لأداء بعض المهام الليلية، أغلق المصاريح وأشعل المصباح الليلي. وفي ذروة شعورها بالإعياء والإرهاك والتعب، تظاهرت الأنسة ستانجرسون بالانكباب على العمل، ونسيت دون أدنى شك أن الأب جاك صار قاب قوسين أو أدنى من ولوج غرفتها! إذن، ما العمل؟ أخبرت الأب جاك ألا يعبأ بأمر دخول غرفتها وإغلاق مصراعي نافذتها! وهذا ما ورد بالفعل في المقال الذي نشرته جريدة الصباح، وبالرغم من ذلك دخل الأب جاك الغرفة بيد أنه لم يلاحظ شيئاً، فقد كانت الغرفة الصفراء غارقة في ظلام دامس! مرت هاتان الدقيقتان المرعبتان على الأنسة ستانجرسون كدهور! يساورني اعتقاد بأنها لم تكن على دراية بأن المجرم خلف الكثير من الآثار وراءه في الغرفة! ربما عقب المرحلة الأولى، لم يكن لديها ما يكفي من الوقت سوى لإخفاء آثار أصابع المجرم حول عنقها، ومغادرة غرفتها! لو كانت على علم بأن عظمة الخروف والقبة والمنديل لايزالون ملقيين على الأرضية لسارعت بالتقاطهم، ثم خبأهم قبل حلول منتصف الليل. لم تقع عينها عليهم، وخلعت ملابسها في الضوء الباهت المنبعث من لمب المصباح الليلي المحتضر، تمددت على فراشها خائرة القوى، مضطربة ومبعثرة المشاعر، يكاد صدرها ينشق من الهلع الذي دفعها للعودة مرة أخرى إلى غرفتها في وقت متأخر قدر الإمكان.

ولكن هناك العديد من الآثار الخارجية الأخرى الملازمة للحادث، والتي ينبغي إلقاء الضوء عليها، دوت أصوات طلقات الرصاص أثناء المرحلة الثانية، وانطلقت صرخات الأنسة ستانجرسون المسترخمة مدوية: "النجدة! أمسكوا القاتل!". وفيما يتعلق بتلك الصرخات البائسة: طالما أن المجرم لم يكن في الغرفة في تلك الأثناء، يمكن الجزم بأن الأنسة ستانجرسون قد انتفضت مذعورة إثر تعرضها لكابوس مرعب. تناهى إلى مسامع البروفيسور والأب جاك صوت جلبة كبيرة نجمت عن أثاث ينقلب رأساً على عقب، أعلم ذلك يقيناً، ولذلك راود تخيلتي هذا الافتراض: خلدت الأنسة ستانجرسون إلى فراشها تلاحق ذهنها ذكرى المشهد المرعب، راودها حلم، أو بالأحرى كابوس بشع، رأت المجرم يندفع نحوها كسهم شُد قوسه، فراحت تطلق صيحات مدوية: "النجدة! أمسكوا بالقاتل!"، وبردة فعل تلقائية شرعت في البحث عن مسدسها الذي وضعته على المنضدة قبل أن تغط في النوم. بيد أن يدها صدمت المنضدة بقوة فقلبت على الفور، سقط المسدس على الأرض، فانطلقت منه إحدى الرصاصات، ثم استقرت في سقف الغرفة، كابوس مفزع، ثم طلقة رصاص، استيقظت الأنسة ستانجرسون وهي في حالة يرثى لها من الفزع والرعب، باذلة أقصى ما في وسعها للنهوض عن فراشها، سقطت منهارة على الأرض خائرة القوى مصطدمة بالأثاث، فقلب رأساً على عقب، راحت تصرخ قائلة: "النجدة! أمسكوا بالقاتل!"، ثم غابت عن الوعي.

ولكن التحقيقات أشارت إلى سماع دوي إطلاق رصاصتين ليلاً، أثناء المرحلة الثانية، لم يكن هذا الرأي من وجهة نظري مجرد افتراض، فمن الواضح أن هناك رصاصتين انطلقتا بالفعل من المسدس، ولكن يُمكن الجزم بأن كل رصاصة انطلقت على حدة في مرحلة مختلفة عن الأخرى، رصاصة وُجهت إلى المجرم في المرحلة الأولى، ورصاصة أخرى انطلقت عقب الاستيقاظ من الكابوس المفزع، ألم يؤكد معظم الشهود سماعهم لدوي إطلاق رصاصتين أثناء الليل؟ في الواقع، سُمع دوي إطلاق رصاصة واحدة في خضم جلبة انقلاب الأثاث رأساً على عقب. عندما خضع السيد ستانجرسون للاستجواب، أشار إلى أنه سمع دوي رصاصتين، إحداها مكتومة الصوت والأخرى مدوية، أليس من المفترض أن دوي الجلبة المكتومة نجم عن انقلاب المنضدة الرخامية على الأرض؟ ألا يبدو هذا التفسير منطقياً ومقنعاً؟ ازدادت قناعتي بهذه الفرضية حينما علمت أن الحارس وزوجته اللذين ظلا على مقربة من الجناح ليلة وقوع الحادث المزعوم أخبرا قاضي التحقيق بسماعهما دوي طلقة رصاص واحدة.

وهكذا أعدت صياغة مرحلتي المأساة المفزعة فور ولوج الغرفة الصفراء. ومع ذلك، ظلت آثار الجرح الغائر خارج إطار الدائرة التي تشكلت ملامحها في ذهني. من المنطقي أن المجرم لم يجرؤ على تسديد الضربة المبرحة التي أصابت صدغ الأنسة خلال الفترة الأولى، لأنه لم يكن بوسعها إخفاء آثار الجرح وراء شعرها المغطى بعصابة! إذن، فمن الواضح أن هذه الإصابة وقعت خلال المرحلة الثانية، أثناء التعرض للكابوس المفزع؟ تلك هي الحقائق التي اتضحت جلياً أمام عيني حين ولجت

الغرفة الصفراء، وشرعت في فك طلاسـم اللغز المحير. أخرج روليتابي من جيبه ورقة بيضاء مطوية أربع مرات، ثم بسطها والتقط منها شيئاً يبدو غير مرئي. أمسك هذا الشيء بين سبائته وإمهامه، ثم قدمه إلى رئيس المحكمة قائلاً:

- هذه شعرة شقراء ملطخة بالدماء تعود إلى الأنسة ستانجرسون، وجدتها ملتصقة بإحدى زوايا المنضدة الرخامية المقلوبة، ظلت الزاوية الرخامية ملطخة بالدماء لفترة من الوقت. أوه! لم تشكل الدماء سوى مربع أحمر صغير ولا شيء سوى ذلك! زاوية ملوثة بالدماء لكنها تملك قدراً كبيراً من الأهمية، فقد تبين لي بالدليل القاطع أن الأنسة ستانجرسون فور نهبها من الفراش مذعورة، سقطت منهارة على الأرض خائرة القوى فوق هذه الزاوية الرخامية، التي تركت جرحاً غائراً على صدغها الأيمن، وانتزعت شعرة شقراء من خصلات شعرها المنسدلة على وجنتها! أوضح الأطباء أن الأنسة ستانجرسون قد غابت عن الوعي إثر التعرض لضربة مبرحة بواسطة أداة حادة، ولأن عظمة الخروف كانت لا تزال ملقاة على الأرضية، ظن قاضي التحقيق أن هذا الجرح الخطير نجم عن توجيه ضربة وحشية باستخدام هذا السلاح، ولم يخطر ببال قاضي التحقيق أو الأطباء أن الجرح الغائر من الممكن أن ينجم عن اصطدام قوي بزاوية المنضدة الرخامية، عجت قاعة المحكمة مرة أخرى بتصفيق حار، ولكن حين عاد روليتابي لاستئناف حديثه، خيم صمت مطبق.

- كان لزاماً عليّ معرفة (بخلاف هوية القاتل التي كُشف النقاب عنها بعد بضعة أيام) التوقيت الذي شهد وقوع أحداث المرحلة الأولى من الجريمة، وبالرغم من أن استجواب الأنسة ستانجرسون ساهم بشكل كبير في تضليل قاضي التحقيق، إلا أنها ذكرت أدق تفاصيل يومها، تبين أن المجرم تسلل إلى داخل الجناح ما بين الساعتين الخامسة والسادسة، وهناك افتراض مفاده أن المجرم نجح في اختراق الجناح في الساعة السادسة والرابع فور عودة البروفيسور والأنسة لاستئناف عملهما. ساورني اعتقاد بأن المجرم جاء إلى المختبر في تمام الساعة الخامسة! ولكن لم يجانبني الصواب، فقد كانت الأنسة في تلك الأثناء برفقة والدها. لاشك أن الجريمة وقعت في غياب السيد ستانجرسون! إذن، توجب عليّ أن أحصر ذهني في فترة زمنية قصيرة باحثاً عن لحظة افترق فيها البروفيسور عن ابنته، ووفقاً للاستجواب الذي جرى في غرفة الأنسة ستانجرسون بحضور والدها، تبين أن الأنسة ووالدها عادا إلى المختبر قرابة الساعة السادسة، وصرح السيد ستانجرسون قائلاً: "في تلك الأثناء، جاءني الحارس وظل برفقتي بضع دقائق لنتجاذب أطراف الحديث، ثم التمس مني مرافقته في جولة عاجلة في أنحاء الغاية التي عزمتم أن أقلم أشجارها". جرى بينهما حوار لفترة من الوقت، ولم تكن الأنسة ستانجرسون برفقتها. عادت الأنسة ستانجرسون آنذاك إلى المختبر، وقد ذكر والدها هذه العبارة: "تركت الحارس، ثم عدت أدراجي مستأنفاً العمل برفقة ابنتي". في الواقع، وقعت الجريمة خلال هذه الدقائق القليلة، هذا أمر لا يقبل الجدل! من الواضح أن الأنسة ستانجرسون عادت إلى الجناح، ثم توجهت إلى غرفتها لتجلب قبعتها، فأدركت أنها تقف وجهاً لوجه أمام اللص الذي يطاردها، والذي ظل مائتاً بين جدران الجناح لبعض الوقت، لاشك أنه كان يدبر لشن الهجوم على ضحيته فور أن يسدل الليل أستاره. عندئذ خلع نعلي الأب جاك اللذين أعاقا حركته، ثم جمع الوثائق والأوراق كما أخبرت سيادتكم آنفاً، وانزلق أسفل فراش الأنسة عندما جاء الأب جاك عازماً تنظيف المختبر والردهة وغسل أرضيتهما بالماء، مرت عليه هذه الدقائق كدهر، غادر الأب جاك الجناح، فنهض المجرم عن الأرض، ثم راح يتجول مرة أخرى في المختبر، تقدم نحو الردهة، وظل يتطلع إلى الحديقة عبر النافذة. أبصر الأنسة ستانجرسون قادمة بمفردها نحو الجناح. لم يجرؤ على مهاجمتها أو تكدير صفوها دون التيقن من قدومها بمفردها! ولكي ينفرد بها في إحدى زوايا الجناح، كان من الضروري أن يدور حوار مطول بين السيد ستانجرسون والحارس الذي تذرع بحجج واهية، وظل يختلق مواضيع للنقاش محتجزاً سيده في إحدى زوايا الممر الضيق، بجوار مجموعة من الأشجار التي أخفتها عن عيني المجرم الحقيق. عندئذ اكتملت أركان الخطة الشيطانية، شاء القدر أن يجمع بين المجرم وبين من سلبت النوم من عينيه. كان لزاماً عليه أن يغلق نافذة الردهة! وهذا ما يفسر عدم سماع السيد ستانجرسون والحارس البعيدين عن الجناح الطلقة النارية الأولى.

عاد المجرم إلى الغرفة الصفراء، وها هي الأنسة ستانجرسون تتأهب لدخول غرفتها، لاشك أن هذه الأحداث وقعت بسرعة البرق! من الواضح أن الأنسة ستانجرسون أطلقت صرخة فزعة، أو بالأحرى أرادت أن تطلق صرخة استغاثة؛ أحكم الرجل قبضته على عنقها، كتم أنفاسها حتى كادت أن تحتنق، تحسست بيدها المنضدة باحثة عن المسدس المخبأ في أحد

الأدراج، أشهر المجرم سلاحه المربع (عظمة الخروف) في وجه الأنسة، ثم راح يلوح بها أمام عينيها ولكنها أطلقت النار، وأصابته يده فترك السلاح على الفور، سقطت عظمة الخروف على الأرضية الملطخة بالدماء التي سالت من جرح المجرم اللعين، أخذ المجرم يترنح، ثم استند إلى الجدار ملطخاً إياه بأصابعه النازفة، أصيب بنوبة ذعر خشية أن تطلق الأنسة عليه رصاصة أخرى، فلاذ بالفرار.

رأته الأنسة يجتاز المختبر، تناهى صوت وقع قدميه إلى مسامعها. ماذا يفعل في الردهة؟ استغرق وقتاً طويلاً ليقفز عبر النافذة، قفز أخيراً! هرولت راكضة صوب النافذة، ثم أغلقتها! هل تمكن والدها من رؤية المجرم؟ هل سمع دوي إطلاق الرصاصة؟ الآن وبعد أن زال الخطر توجهت كل أفكارها نحو أبيها، لن تبوح له بأي شيء، لو كان هناك متسع من الوقت! وعندما سيعود السيد ستانجرسون أدراجه، سيجد باب الغرفة الصفراء مغلقاً، وسيرى ابنته منكبة على العمل في المختبر جالسة أمام مكتبها، في كامل وعيها!

وعندئذ التفت روليتابي نحو السيد دارزاك، وصاح قائلاً: "أنت ملم يا سيدي بكل الحقائق، أخبرنا لو أن الأمور لم تسر على هذا النحو؟".  
أجاب السيد دارزاك: "لا أعرف شيئاً".

قال روليتابي، وهو يعقد ذراعيه على صدره: "لماذا تلعب دور الضحية، وأنت بطل الرواية! وا أسفاه! لو أن الأنسة ستانجرسون كانت على علم بأنك متورط في هذه القضية الشنعاء، لأعتقتك من وعدك، وتوسلت إليك أن تبوح بما يضمرك قلبك.. بل بالأحرى كانت ستجنيء مهولة لدرء أي هجوم يشن ضدك.  
لم يحرك دارزاك ساكناً، ولم ينبس بحرف واحد، بل راح يرمق روليتابي بنظرات ملؤها الحزن والأسى.  
أردف روليتابي قائلاً:

- وأخيراً، طالما أن الأنسة ستانجرسون ليس بمقدورها أن تحضر إلى هنا، فقد جئت عوضاً عنها! صدقني يا سيد دارزاك، الطريقة المثلى والوحيدة لإنقاذ الأنسة ستانجرسون وإعادةها إلى رشدها، تكمن في إظهار براءتك وإحباط المساعي المبذولة للزج بك في السجن.

دوى تصفيق عاصف في القاعة إثر سماع هذه العبارة الأخيرة، ولم يقوَ رئيس المحكمة على كبج جماح الجماهير المتحمسة الثائرة، أنقذ السيد روبرت دارزاك أخيراً من براثن موت محقق، ولم يتبق سوى أن تعيد هيئة المحلفين النظر في القضية، عندئذ صاح رئيس المحكمة قائلاً:

- ولكن، ما الغز الكامن وراء إخفاء الأنسة ستانجرسون - إثر تعرضها لاعتداء وحشي - مثل هذه الجريمة عن والدها؟  
- لا أدري يا سيدي، لا شأن لي بهذا الموضوع.

بذل رئيس المحكمة مزيداً من الجهد محاولاً إقناع السيد روبرت دارزاك بالبوح ببعض الأسرار التي لازال يخفيها بين ضلوعه:  
- سيد دارزاك، أراك لاتزال متشبهاً بالصمت، ألا تود أن نخبرنا أين توجهت أثناء شن الهجوم الوحشي على الأنسة ستانجرسون؟

- لا أستطيع أن أخبرك بأي شيء يا سيدي.  
راح الرئيس يرمق روليتابي بنظرات ملؤها الفضول متسائلاً:  
- هل تكرمت وأعطيتنا تفسيراً منطقياً وواضحاً لهذا الغز؟

أجاب روليتابي وهو ينحني لإلقاء التحية على الرئيس، ترسم على ثغره ابتسامة عريضة: "سيدي، ليس بمقدوري أن أمنحك تفسيراً واضحاً! أعتقد أن في حوزتك الآن ما يكفي من أدلة لتبرئة السيد روبرت دارزاك! إلا إذا عاد لارسان! ولكنني لا أظن ذلك".

ثم انفجر ضاحكاً، فضجت القاعة بقهقهات الحاضرين. قال الرئيس: "سيد روليتابي، هناك سؤال آخر لايزال يطرح نفسه. وفقاً لوجهة نظرك التي أراها صائبة، يتبين جلياً أن لارسان أراد أن تتجه كل الشبهات نحو السيد روبرت دارزاك، ولكن ما المصلحة التي عادت عليه جراء إثارة الشكوك ضد الأب جاك؟".

- المصلحة التي يطمح إليها محقق الشرطة يا سيدي! مصلحة إظهار براعته ودهائه وسعة حيلته وسعيه الدؤوب نحو محو وإبطال الأدلة والبراهين التي جمعها بمهارة، يا لها من حيلة ماهرة! خدعة استغلها في كثير من الأحيان لتبديد أية شكوك تحوم حوله، وتحويلها نحو الآخرين! كان ماهراً في إثبات براءة أحدهم قبل أن يشير بأصابع الاتهام إلى الآخر. سيدي الرئيس، ينبغي أن تضع في حسابك أن مثل هذه المؤامرة الشيطانية دُبرت بمكر منذ وقت طويل. أعد لارسان العدة براءة وعكف على مراقبة الأشخاص، إذا كان لديك الفضول لمعرفة كيف نجح في تزويد نفسه بالوثائق، فدعني أخبرك أنه ظل، لفترة طويلة من الوقت بمثابة حلقة الوصل التي تربط بين "المختبر الأمني"، والسيد ستانجرسون المكلف بإجراء بعض التجارب. وهكذا، تمكن، قبل وقوع الجريمة، من دخول الجناح مرتين، كان بارعاً في ارتداء الأقنعة، ولم يستطع الأب جاك التعرف على ملامحه.

اغتتم لارسان الفرصة، وسرق من الأب جاك زوجاً من الأحذية البالية، وقبعة رديئة الجودة كان الخادم العجوز قد عزم أن يحملها في منديل إلى أحد أصدقائه الفحامين القاطنين على جانبي الطريق المؤدية إلى "إبناي". عندما فُكت طلاسمة الجريمة، لم يتمكن الأب جاك من التعرف بسهولة على تلك الأشياء التي كان يحتفظ به! أدرك أن هذه الأشياء ستثير الشبهات ضده، وهذا يفسر انزعاجه وتوتره حينما تجاذبنا معه أطراف الحديث بشأنها، لقد لجأ لارسان لنفس الحيل الماهرة التي دبرها في قضيتي "المصرف العالمي"، و"سرقة السبائك الذهبية من فندق "دو لا مونييه"، والعديد من القضايا الأخرى التي يتعين على سيادتكم إعادة النظر فيها، فكم من أناس أبرياء رُج بهم في غياب السجون ظلماً وعدواناً منذ اختراق لارسان لجهاز الأمن!

## الفصل الثامن والعشرون

### ليس بمقدور المرء التفكير في كافة الأمور

ضجت القاعة بمهممات الإعجاب! وأودع السيد هنري روبرت مذكرة مطالباً بتأجيل النظر في القضية إلى جلسة أخرى لإخضاعها للمزيد من التحقيقات، كما شاطره وكيل النيابة الرأي، تم تأجيل القضية، وفي صباح اليوم التالي أُفرج مؤقتاً عن السيد روبرت دارزك بكفالة، وأُفرج عن الأب ماتيو عقب صدور قرار فوري بعدم وجود وجه لإقامة الدعوى الجنائية ضده، باءت جميع محاولات البحث عن فريدريك لارسان بفشل ذريع، وثبتت براءة المتهم في نهاية المطاف، نجا السيد دارزك من حكم الإعدام بأعجوبة، يحذوه الأمل في أن تعود الأنسة ستانجرسون إلى رشدتها عقب زيارتها، وعبر إخضاعها إلى عناية طبية مكثفة.

أما بالنسبة للشباب العبقري روليتابي، فقد صارت جرأته حديث الساعة! عندما غادر قاعة المحكمة مُحمل على الأعناق، وراح الجميع يهتفون باسمه. تصدرت صورته ومآثره صفحات أبرز الصحف، وأجريت معه العديد من اللقاءات الرسمية! انتزع روليتابي حقاً أهات الإعجاب من الصدور، وصار مدعاة للفخر والاعتزاز. تناولنا العشاء - مغمورة قلوبنا ببهجة عارمة - في أحد مطاعم باريس الشهيرة. وحينما استقلينا القطار شرعت في إبطائه بوابل من الأسئلة المحيرة التي تبادرت إلى ذهني أثناء تناول العشاء، لكنني التزمت الهدوء والصمت آنذاك، لأنني أعلم جلياً أن روليتابي لا يحب الخوض في أي نقاش حول العمل أثناء تناول الطعام. فتحت فاهي لأخرج ما تراكم فيه من صدمات اليوم قائلاً:

- في الواقع، هناك بعض الأشياء المبهمة التي أربكت ذهني قليلاً. كل ما حدث للتو لم يعطيني تفسيراً واضحاً للدافع وراء رحيلك إلى أمريكا، وفقاً لما أشعر به وأدركه، أظن أنك غادرت قصر جلاندييه، في المرة الأخيرة، عقب الاشتباه في تورط فريدريك لارسان؟ هل كنت على علم بأن لارسان هو الفاعل الأصلي للجريمة، ولكنك كنت تجهل الحيلة التي لجأ إليها لتنفيذ اعتدائه الوحشي؟

أجاب روليتابي: "لقد أصبت كبد الحقيقة يا صديقي"، ثم غير مجرى الحديث قائلاً:

- وأنت، ألم تساورك الشكوك إزاء أي شخص؟

- على الإطلاق!

- كم يبدو هذا غريباً!

- صديقي، أظن أنك كنت حريصاً كل الحرص على إخفاء ما يطرأ على ذهنك من أفكار عني، ولم أستطع سبر أغوارك، عندما وطئت قدمي القصر وفي حوزتي المسدسان، هل كانت الشكوك في تلك اللحظة تحديداً، تساورك بشأن تورط لارسان؟

- نعم! كنت قد فككت للتو طلاسماً لحادث القاعة المكثفة بالغموض! ولكن مسألة عودة لارسان إلى غرفة الأنسة ستانجرسون كانت لاتزال تؤرقني، ولم تتضح الرؤية أمامي إلا عقب العثور على النظارة الأنفية المصممة لعلاج طول النظر، بدت لي فكرة تورط لارسان في جريمة الاعتداء صادمة ومثيرة للانزعاج لدرجة أنني عزمْتُ على تفحص واستكشاف الآثار الملموسة" قبل أن أجروُ على الإسهاب في الحديث عنها. في بداية الأمر، لم أعول كثيراً على "حسن نوايا" لارسان، وأخبرتُك مراراً وتكراراً أنه يتبنى منهجية في غاية الخطورة لن تجدي نفعاً، وأبدت تجاهه ازدراء منقطع النظير، أتذكر ذلك؟ عندما أحصيت لك الأدلة المتراكمة ضد السيد دارزك، رددت هذه العبارات على مسامعك: "جميع الأدلة تؤكد صحة فرضية فريد العظيم. ومع ذلك، أعتقد أن هذه الفرضية التي يتبناها لارسان، والتي تبدو خطأ من وجهة نظري، هي التي ستضله حتماً". ثم أردفت بنبرة كان من المفترض أن تثير ذهولك وتضرم نيران فضولك: "والآن، هل ضللت الفرضية أفكار فريدريك لارسان؟ بالطبع! بالطبع!" كان من المفترض أن تدعوك هذه العبارات إلى التفكير ملياً في الأمر، فقد قصدت القول بأن فرضية لارسان ضللت عقولنا! في تلك الأثناء، رحت أحرق في وجهك بإمعان، لكنك لم تعبرني اهتماماً، ولم تدرك آنذاك فحوى عبارتي.

قبل عثوري على النظارة الأنفية، ظلت فكرة ضلوع لارسان في ارتكاب الجريمة، من وجهة نظري، مجرد فرضية عبثية عقيمة،

لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكن، فور اكتشاف النظارة وتيقني من عودة لارسان إلى غرفة الأنسة ستانجرسون، تملكني بهجة عارمة، وكاد قلبي أن يقفز من بين ضلوعي فرحاً، أظنك تذكر هذا المشهد المثير! رحت أركض كمن جن جنونه في غرفتي، وصحت قائلاً: "سأهزم فريد العظيم شر هزيمة، مهما بلغت قوته وعظمته، سألحق به هزيمة نكراء!". في الواقع تملكني شعور بأنني أوجه هذه العبارات آنذاك إلى اللص المخادع. في تلك الليلة، فور أن كلفني السيد دارزاك بمنع تسلل أي شخص إلى غرفة الأنسة ستانجرسون، حصرت مهمتي في تناول العشاء مع لارسان بحلول الساعة العاشرة مساءً دون اتخاذ أي إجراء آخر، اطمأن قلبي لأنني أبصرته جالساً في مواجهة! في تلك الأثناء أيضاً يا صديقي العزيز، ربما ساورتك الشكوك في أنني لم أعد أخشى أحداً سوى ذلك الوغد اللعين، أتذكر حين قلت لك: "من المستحيل أن يغادر فريدريك لارسان القصر هذه الليلة".

ولكن هناك شيء جوهري كان من المتوقع أن يكشف النقاب، على الفور، عن هوية المجرم، شيء جوهري فضح جريمة لارسان، بيد أننا لم نعره اهتماماً كبيراً، وتركناه يتسرب كالماء من بين أصابعنا، أتذكر قصة العصا؟ تملكني الذهول أثناء إجراء تحرياتي، حين لاحظت أن لارسان لم يلجأ لاستخدام العصا كدليل إدانة ضد السيد دارزاك، ألم يُقدم شخص تتطابق أوصافه إلى حد كبير مع أوصاف السيد دارزاك على شراء هذه العصا، ليلة وقوع الجريمة؟ حسناً، قبل أن يستقل لارسان القطار ويتوارى عن الأنظار، طرحت عليه هذا السؤال: "لماذا لم تعد تحمل العصا؟"، فأجابني قائلاً: "لم أعد بحاجة إليها الآن"، تعلم يقيناً أن لارسان أخبرنا بأنه جلب هذه العصا من لندن، ولكن تبين لاحقاً أنه ابتاعها من أحد متاجر باريس! لجأ لاختلاق هذه الأكذوبة دون تردد، لماذا لم نمنع التفكير في هذه الحقائق، ونرددها على مسامع بعضنا البعض: "فريد يختلق أكذوبة، لم يغادر إلى لندن، طالما أنه ابتاع هذه العصا من باريس! فريد يلجأ لحيلة ماهرة، طالما أنه ظل في باريس، وقت وقوع الجريمة"، كان من المفترض أن تشكل هذه الأكذوبة نقطة انطلاق للاشتباه في تورط لارسان في الجريمة! وعندما علمنا، بناء على التحريات التي أجريتها بنفسك في متجر "كاسيت"، أن العصا ابتاعها شخص متكرر في زي دارزاك، وملكنا اليقين من أن السيد دارزاك لم يبادر بشراء العصا، وأن هناك شخصاً تنكر في هيئته متوجهاً إلى مكتب البريد رقم 40، لماذا لم تتبادر الأسئلة إلى أذهاننا، ولماذا لم نمنع التفكير في الأمر؟ لماذا يلجأ رجل مجهول الهوية يحمل نفس أوصاف دارزاك إلى شراء عصا، ثم يضعها في يد فريد؟ لا شك أن وضع لارسان المهني، باعتباره محقق ذائع الصيت، تنافي تماماً مع مثل هذه الفرضية الحمقاء، ولكن حين رأيته يكس الأذى بوضوء وحشية ضد دارزاك، ويطارده أينما حل وأينما ارتحل، كان من الممكن أن نزيح الستار عن خداعه وتضليله. أتدري لماذا لجأ لارسان إلى شراء هذه العصا؟ الأمر بسيط للغاية، وكان من السهل فك طلاسم اللغز المحير لو أننا أرهقنا أذهاننا ولو لبضع لحظات، بالتفكير والبحث. ابتاع لارسان العصا بعد أن أصيب بجروح طفيفة في يده عقب إطلاق الرصاصة من مسدس الأنسة ستانجرسون، عازماً أن تظل يده دائماً مغلقة، وألا يبسطها سهواً فيُظهر الجرح الذي أصابه، باح لي لارسان بكل هذه الأسرار، ولا شك أن تذكر حينما رددت على مسامعك في كثير من الأحيان هذه العبارة: "من الغريب ألا تفارق العصا يد لارسان لحظة واحدة".

وعندما جلسنا لتناول طعام العشاء برفقته، لم يكد لارسان يترك العصا حتى أمسك بسكين لم تفارق يده اليمنى. لاحت هذه التفاصيل بالفعل في ذهني حينما ساورتني الشكوك إزاءه، أي بعد فوات الأوان، وهكذا، في الليلة التي تظاهر فيها لارسان بأنه يغط في سبات عميق، انخبت قليلاً نحوه، وتمكنت بمهارة شديدة من أن ألمح الجرح الذي أصاب يده دون أن يلحظ ذلك. وضعت في حساباتي أيضاً أنه كان من المتوقع أن يزعم بأن هذا الجرح نجم عن شيء آخر غير الرصاصة التي أطلقت من مسدس الأنسة. ولكن في تلك الأثناء، كانت العلامات الخارجية التي ينبغي إلقاء الضوء عليها، قد أدرجت في إطار الدائرة التي تشكلت ملامحها في ذهني. أخبرني لارسان مؤخراً أن الرصاصة لامست بالكاد راحة يده، وتسببت في حدوث نزيف شديد.

لو كنا نتمتع بنظرة ثاقبة وبصيرة نافذة لأدركنا على الفور أكذوبة لارسان، وكان من المتوقع أن يسعى هذا الماكر جاهداً، من أجل إبعاد الشبهات عنه، لإثارة الشكوك ضد دارزاك، ولكن وتيرة الأحداث تسارعت بدرجة لم تمكننا من التفكير بتأنٍ في أمر العصا! وبالرغم من ذلك، أرهق بالماير تفكيرنا كثيراً دون أن تحوم شكوكنا حول تورطه في القضية!

قاطعته قائلاً:

- لو أن لارسان لم يعتزم استغلال هذه العصا كدليل إدانة ضد السيد دارزاك، فلماذا أقدم على التنكر في هيئته؟ ارتداء معطف جلدي طويل، وقبعة مستديرة صلبة من اللباد؟ إلخ.
- لأن جريمة الاعتداء على الأنسة كانت قد وقعت بالفعل، وفور ارتكابها، سعى لارسان جاهداً أن يجعل هيئة دارزاك هي الأبرز في جميع أعماله الإجرامية موجهاً أنظار الجميع نحو خصمه البائس.
- عندما انتاب لارسان القلق والانعاج من الجرح الذي أصاب يده، تبادرت إلى ذهنه على الفور فكرة شراء العصا أثناء مروره في شارع الأوبرا، كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساءً! رجل يتنكر في هيئة دارزاك ثم يبتاع العصا، ويسلمها إلى يد لارسان! أدركت أن هذه الجريمة وقعت في ذلك التوقيت، وكنت مقتنعا إلى حد كبير ببراءة دارزاك، ولكن من سخرية القدر أنني لم أشك لوهلة في تورط لارسان! في بعض الأحيان...
- في بعض الأحيان، تُغشى الأبصار عن إدراك الحقائق الواضحة.
- أجبرني روليتابي على التزام الصمت، فبنيما كنت استجوبه، لاحظت أنه لم يعد يصغي إليّ، أدركت أنه يغط في نوم عميق، وواجهت صعوبة بالغة في إيقاظه من نومه فور وصولنا إلى باريس.

## الفصل التاسع والعشرون

### لغز الأنسة ستانجرسون

في الأيام التالية، أتيحت لي الفرصة لأطرح على صديقي الشاب السؤال مرة أخرى، بشأن الدافع وراء رحيله إلى أمريكا. بالكاد منحني جواباً شافياً أكثر دقة ووضوحاً من الجواب المبهم الذي رددته على مسامعي أثناء استقلال قطار باريس، ثم غير مجرى الحديث إلى بعض النقاط الأخرى التي تتعلق بالقضية، ذات يوم ضاق بالأمر ذرعاً، فأجابني قائلاً:

- كنت في أمس الحاجة لسبر أغوار شخصية لارسان وتحليلها.

- أدرك ذلك، ولكن لماذا انطلقت إلى أمريكا باحثاً عنه؟

راح يدخن غليون بهدوء، ثم أدار لي ظهره قائلاً:

- بالطبع، سعت جاهداً لفك طلاسم لغز الأنسة ستانجرسون.

ظل روليتاني متيقناً من أن جذور اللغز المحير الغامض الذي يجمع بين لارسان والأنسة ستانجرسون تكمن في الفترة التي قضتها هذه الشابة في أمريكا. استقل الباخرة، وهناك جمع القدر الكافي من المعلومات بشأن لارسان وتاريخه الملطخ بالسواد، وما يلزم من تفاصيل تغلق فم عدوه اللدود إلى الأبد، ثم غادر إلى فيلادلفيا! والآن، ما اللغز الذي أجبر الأنسة ستانجرسون، وروبرت دارزك على التزام الصمت المطلق؟ بعد مرور سنوات عدة، وبعد العديد من المنشورات الصحفية التي تناولت الفعلة الفاضحة، وبعد أن صار السيد ستانجرسون على علم بأدق التفاصيل، وصفح وتغاضى عن أخطاء الجميع، أن الأوان للبحر بالسر الخطير.

تعود بداية الأزمة إلى زمن بعيد عندما كانت الأنسة فتاة صغيرة تعيش مع والدها في فيلادلفيا. وهناك، تعرفت في إحدى الأمسيات في منزل أحد أصدقاء والدها، على مواطن فرنسي نجح في إغوائها بسلوكياته، وأدبه الجم، وذكائه، ومودته، وحبه الفياض. قيل عنه أنه يتمتع بثراء فاحش، فتقدم رسمياً لطلب يد الأنسة ستانجرسون من أبيها البروفيسور الشهير. عزم السيد ستانجرسون على جمع معلومات مفصلة عن السيد جان روسيل، وعلم على الفور أن من سيغدو صهره هو رجل محتال ونصاب. في الواقع، لم يكن السيد جان روسيل سوى أحد الأقنعة التي أجاد بالمير الشهير الملاحق في فرنسا، والهارب إلى أمريكا ارتداءها، ولم يكن السيد ستانجرسون ولا ابنته يعرفان شيئاً عن تاريخه الملطخ بالسواد.

لم يكتف السيد ستانجرسون برفض زواج ابنته من روسيل فحسب، بل منعها من التردد على منزله. انتاب الفتاة ماتيلد، التي فتحت أبواب قلبها للحب، ولم تر أي شيء في العالم أكثر جمالاً ووداً من عشيقها المتيّم جان، شعور جارف بالغضب، ولم تقوَ على إخفاء استيائها إزاء والدها الذي أرسلها للتو إلى عمتها العجوز ليهداً روعها وتحمّد نيران غضبها على ضفاف نهر أوهايو. لحق جان بماتيلد، وبالرغم من احترامها البالغ وتقديرها لوالدها، قررت أن تخدع عمتها العجوز، وفرت هاربة مع جان روسيل، واعتزما الاستفادة في أقرب وقت ممكن من تسهيلات الزواج التي يمنحها القانون الأمريكي، انتقلا للعيش في بلدة ليست ببعيدة تُدعى "لوفيل"، وهناك، ذات صباح تناهى إلى مسامعهما صوت طرقات على باب مسكنهما. ألقى رجال الشرطة القبض على جان روسيل، بالرغم من اعتراضات وصرخات ابنة البروفيسور ستانجرسون. في تلك الأثناء، أخبر رجال الشرطة ماتيلد أن زوجها هو الوجه الآخر لبالمير الشهير!

غرقت الأنسة ستانجرسون في لجة من اليأس والقنوط، وأقدمت على محاولة انتحار فاشلة، ثم عادت إلى عمتها العجوز. كاد قلب عمتها أن يتوقف من سرعة دقاته فرحاً وسعادة فور رؤيتها مرة أخرى، فقد عكفت على البحث عنها في كل مكان لمدة أسبوع، ولم تجرؤ على إخبار والدها بأمر اختفائها المفاجيء، توسلت الفتاة إلى عمتها كي تُقسم لها بالألا تخبر السيد ستانجرسون بأي شيء، وهكذا صارت العمة متواطئة مع ابنة أخيها في فعلة حمقاء متهورة. عادت ماتيلد متحجرة القلب والمشاعر بعد مرور شهر إلى والدها، نادمة على ارتكابها لخطأ جسيم، ولم يشغل بالها في هذه الحياة سوى أمر واحد: عدم الخوض في أية تفاصيل تذكرها بزوجها المخادع بالمير عازمة على التكفير عن الذنب الذي ارتكبه بحق نفسها، وإرضاء ضميرها عبر الانهماك في عمل دؤوب ووفاء وإخلاص غير متناهيين تجاه والدها!

تشبّثت برغبتها، وعزمت على تبديل جميع خطواتها للوراء أضعافها إلى الأمام والمضي قدماً. ولكن، عندما اتخذت قراراً بأن

تبوح بكل ما يخالجهما للسيد روبرت دارزك، يحدوها الاعتقاد بأن بالمير وافته المنية، فقد انتشرت شائعة مفادها أن زوجها السابق قد فارق الحياة، اجتاحت البهجة قلبها، وأيقنت أن الكتابة تتأهب لمفارقتها، بعد دفع ثمن باهظ جراء طيشها وتهورها وعنادها المخزي، وعزمت على الزواج من صديق صدوق نال ثقتها وحبها، شاء القدر أن يفسد بهجتها، وأن تدب الحياة من جديد في جسد جان روسيل الذي عاد للظهور مرة أخرى! أخبرها بالمير أنه لن يسمح بزواجها من روبرت دارزك وأن قلبه لا يزال هائماً في صهوة عشقها! ولسوء الحظ؛ كان بالمير صادقاً في مشاعره!

لم تتردد الأنسة ستانجرسون في البوح لروبرت بما يثقل كاهلها، ويقض مضجعها، فقد أولته جل ثقتها. أطلعتة على الرسالة التي ذكرها فيها جان روسيل-فريدريك لارسان - بالمير بالساعات الأولى التي قضياها عقب زواجهما في بيت الكاهن الذي استأجراه في "لوفيل": "لم يفقد بيت الكاهن أي شيء من سحره، ورونق الحديقة المزهوة بالألوان الصاخبة لم يذبل". أخبرها هذا الشيطان الماكر أنه يتمتع بسطوة وثراء فاحش، وأنه سيتخذ ما يلزم من إجراءات كي يعيدها عنوة إلى مسكن الزوجية! صرحت الأنسة ستانجرسون آنذاك لدارزك أنه في حالة اشتباه أبيها في تورطها في مثل هذه الفعلة المشينة، ستقدم حتماً على الانتحار! أقسم لها دارزك أنه سيجبر هذا الأمريكي على التزام الصمت، سواء بالقوة أو باللين، حتى لو اضطر إلى ارتكاب جريمة قتل! ولكن السيد دارزك لم يتمتع بالقوة أو بالسطوة، وكان قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام صاغراً ذليلاً لولا تدخل الشاب الباسل روليتاني.

أما بالنسبة للآنسة ستانجرسون، ما المفترض أن تفعله في مواجهة مثل هذا الوحش الكاسر؟ عندما شن هجوماً ضارياً عليها في الغرفة الصفراء عازماً على إزهاق روحها، عقب سيل من التهديد والوعيد أجبرها على التواري عن الأنظار والانزواء في غرفتها، حاولت أن ترديه قتيلاً. ولسوء الحظ، لم يكلل مسعاها بالنجاح. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الضحية لقمة سائغة لهذا الكائن غير المرئي الذي بمقدوره أن يبتزها حتى الموت، والذي يقطن معها في نفس المنزل، بجوار غرفتها دون علمها، والذي أراد أن يجبرها على عقد لقاءات غرامية "باسم الحب". في المرة الأولى رفضت عرضه السخيف الموجه لها عبر خطاب أرسل إلى مكتب البريد رقم 40، فانتهى الأمر بمأساة الغرفة الصفراء. في المرة الثانية أخطرها عبر رسالة بريدية جديدة بموعد آخر، ثم تسلل إلى غرفتها في فترة نقاتها، لكنها نجحت في الفرار هاربة عبر الاختباء في غرفة معيشتها برفقة خادمتيها الأمينتين. أخطرها المحرم الحقيق عبر الخطاب الأخير، أنه سيتوجه إلى منزلها، وسيتسلل إلى غرفتها، في ساعة محددة من الليل، طالما أن حالتها الصحية لا تسمح لها بمغادرة القصر، لكي ترى ما يلزم من احتياطات متجنية الفضيحة، وبالرغم من الهلع الذي انتابها جراء جرأة وجسارة بالمير، إلا أنها جازفت وتركته له غرفتها (حادث القاعة المشوبة بالغموض).

في المرة الثالثة، تأهبت للقاء خصمها اللدود، كان لارسان قد ترك لها خطاباً أخيراً في غرفتها الفارغة فوق مكتبها الخشبي، ملزماً إيها باستقباله في غرفتها وفقاً لموعد محدد بالتاريخ والساعة، كما تعهد بأن يحضر إليها الوثائق التي سرقت من والدها، وهددها بحرق هذه الأوراق الثمينة لو لم تنصع لأوامره. لم يساورها أدنى شك في أن الوثائق في حوزة ذلك الشخص الحقيق، لأنها كانت تشبه في قيامه منذ فترة طويلة باستغلال "نواطرها اللاواعي"، وإقدامه على سرقة مستندات فيلادلفيا الشهيرة من أدراج مكتب والدها، أدركت أنها لو لم ترضخ لرغباته ستضيق خلاصة أعوام من الكد والعناء هباءً منثوراً، وستتحول الأوراق التي عُلقت عليها آمال العلم والعلماء إلى كومة من الرماد.

قررت أن تلتقي بزوجهما السابق وجهاً لوجهاً، وأن تحاول ثنيه عن عزمه، طالما أنه لن يدعها وشأها، ويمكن تخمين ما دار بينهما، توسلات مستعطفة ومسترحمة من قبل ماتيلد في مقابل وحشية وقسوة وفظاظة من جانب لارسان، طالبتها بالتخلي عن دارزك، أعلن لها حبه، ثم أبرحها ضرباً، وبدخله يقين راسخ من أن هناك بديلاً آخر سيساق حتماً إلى منصة الإعدام عوضاً عنه، ولأنه تتمتع بذكاء فريد من نوعه، أدرك أن قناع لارسان الذي يرتديه سينقذه دون أدنى شك من براثن أي اتهام، في حين أن كبش الفداء (دارزك) يرفض دائماً الإدلاء بأية تفاصيل تبرر غيابه عن القصر. ووفقاً لما ذكرته، نجح بالمير في اتخاذ أقصى درجات الحذر.

لجأ لارسان إلى ابتزاز دارزك، مثلما فعل مع ماتيلد مستغلاً نفس الأسلحة، ونفس اللغز المبهم، عبر الرسائل الملحة والمتكررة التي انطوت على أوامر غير قابلة للنقاش، ثم أعلن أنه على أهبة الاستعداد للتفاوض بشأن تسليم جميع المراسلات الغرامية في

حالة الانصياع لرغباته، ودفع الثمن، توجب على دارزك أن يغادر القصر في المواعيد المحددة من قبل خصمه الشرس، وإلا سيفشي لارسان في اليوم التالي، السر الخطير، كما تعين على ماتيلد الانصياع للأوامر التي تُملى عليها، وألا تتوانى عن حضور اللقاءات الغرامية التي يحددها عدوها اللدود، وبينما يكاد بالمير أن يزهق روحاً بريئة، يصل دارزك إلى إبناي، ويضحى متواطئاً مع لارسان في جميع الجرائم التي ارتكبتها، شريكاً لذلك المخلوق العجيب، القادم من كوكب آخر، والذي كان ينوي ارتكاب العديد من الجرائم الأخرى لولا تدخل جوزيف روليتابي!

لا يزال الغموض يحيم على "الغز الغرفة الصفراء، والذي سعى روليتابي جاهداً أن يتتبعه خطوة بخطوة في أمريكا، كان لازماً عليه أن يزيل الستار عن المغامرة المتهورة التي جمعت بين الأنسة ستانجرسون وجان روسيل في فيلادلفيا، جمع على الفور أكبر قدر من المعلومات بشأن آرثر ويليام رانس. علم أنه شخص يتسم بالإخلاص والتفاني، وعرف أيضاً الثمن الذي ظل يتقاضاه نظير ذلك. انتشرت في أكبر صالونات فيلادلفيا، شائعات تفيد بزواجه من الأنسة ستانجرسون كانتشار النار في الهشيم، افتقار هذا العالم الشاب إلى الرزانة، وملاحقته الدؤوبة التي كدرت صفو الأنسة ستانجرسون وأرهقت تفكيرها، والحياة الفوضوية التي عاشها متذرعاً بحجة "نسيان الهموم عبر إدمان الخمر"، جميع هذه الأمور دفعت روليتابي إلى عدم التعاطف معه، وهذا يفسر السر الكامن وراء إلقاء آرثر رانس علينا التحية ببرود في قاعة الشهود. ظن روليتابي أن ثمة علاقة خفية تجمع بين قضية رانس وقضية لارسان - ستانجرسون. في الواقع، كان رانس على علم بالعلاقة الغرامية المثيرة للذهول التي جمعت بين روسيل والأنسة ستانجرسون. إذن، من يكون ذلك الشخص المدعو روسيل؟ غادر فيلادلفيا محاولاً اقتفاء أثر ماتيلد عقب رحيلها لزيارة عمتها. وهناك، التقى بالعمة العجوز ونجح في اقتناص الاعترافات منها واحداً تلو الآخر: بدت قصة إلقاء القبض على بالمير، بالنسبة له، بمثابة بصيص نور ينبثق من بين دياجير الظلام وشعاع وهاج يبرز من بين ثنايا السحب الممتعة. تمكن من زيارة منزل الكاهن في لوفيل، وهو مسكن متواضع وساحر مشيد على الطراز الاستعماري القديم، والذي لم يفقد بالفعل أي شيء من سحره، عدل عن فكرة اقتفاء أثر الأنسة ستانجرسون، وشرع في تتبع مسار بالمير، من سجن إلى سجن، ومن جريمة إلى أخرى.

وأخيراً، عندما استقل روليتابي الباخرة عائداً إلى أوروبا عبر ميناء نيويورك، علم أن شخصاً يُدعى بالمير، رحل منذ خمس سنوات، عبر نفس الميناء، منتحلاً هوية شخص يدعى لارسان، وهو تاجر مشهود له بالكفاءة والنزاهة، يقطن في نيو أورليانز كان بالمير قد أنهى حياته. والآن، هل فُكَّت جميع طلاسَم أَلغاز الأنسة ستانجرسون؟ لا ليس بعد. لقد أُنجبت الأنسة ستانجرسون طفلاً من زوجها جان روسيل. وُلد هذا الطفل في منزل العمة العجوز، التي حرصت كل الحرص أن يبقى هذا الأمر طي الكتمان طالما بقيت على قيد الحياة. ما الذي حل بهذا الطفل؟ هذه قصة أخرى سأرويها لكم يوماً ما. بعد مرور شهرين، التقت بروليتابي، حيث أبصرته جالساً على أحد المقاعد في المحكمة، ووجهه غارق في حزن مهيب، دنوت منه، ثم همست في أذنه قائلاً:

- حسناً! أراك شارد الذهن ومهموماً يا صديقي العزيز، فيم تفكر؟ وكيف حال أصدقائك؟
- وهل لدي أي أصدقاء غيرك؟
- آمل أن يكون السيد دارزك قد صار...
- بدون شك.
- والأنسة ستانجرسون. كيف حال الأنسة ستانجرسون؟
- أفضل بكثير، أفضل، تحسنت حالتها كثيراً.
- إذن، لماذا تبدو قلقاً ومهموماً يا عزيزي؟
- يغمر الحزن قلبي لأن ذكرى عطر السيدة ذات الرداء الأسود تلوح في ذهني من حين لآخر.
- عطر السيدة ذات الرداء الأسود! لطالما رددت على مسامعي هذه العبارة المثيرة! ألم يحن الأوان أن تخبرني لماذا تلاحقك باستمرار هذه الذكرى؟
- ربما سأطلعك على تفاصيلها يوماً ما، يوماً ما، ربما يا صديقي.

ثم تنهد متنفساً الصعداء.

